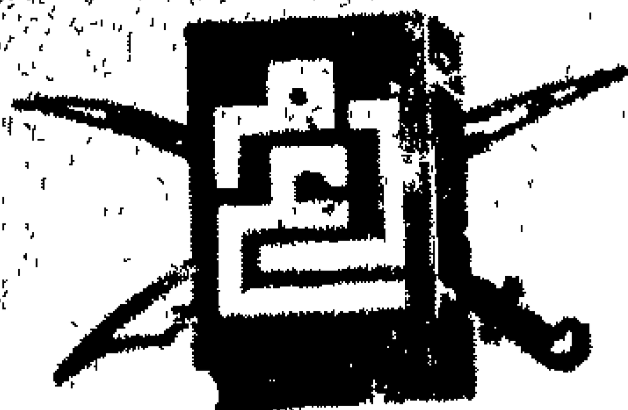


اسطفان براسيموس

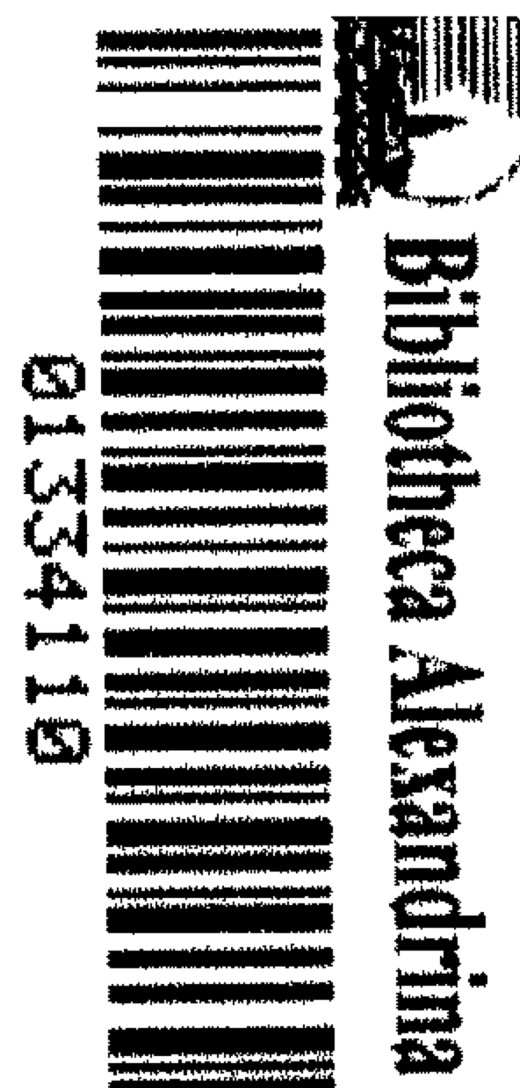
المسألة الشرقية

حدود وأقليات من البلقان إلى القفقاس



ترجمة كمال نعيم الخوري

مركز الدراسات العسكرية
دمشق ١٩٩٦



اسطفان براسيموس

المسالة الشرقية

حدود وأقليات من البلقان إلى القفقاس

ترجمة كمال نعيم الخوري

تقديم

بناء على توجيهات السيد العماد – نائب القائد العام – نائب رئيس مجلس الوزراء – وزير الدفاع، قام مركز الدراسات العسكرية بترجمة وطبع كتاب «المسألة الشرقية».

يستعرض الكتاب مجريات أحداث «المسألة الشرقية» التي كانت نتاج تفكك الامبراطورية العثمانية والتي كادت في مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط أن تحيط بالبحر المتوسط من كل جهاته، لولا الاخفاق الذي منيت به في حصار «ڤيينا». وبعد هذا الاخفاق، واليقظة العامة للشعوب الأوروبية، كانت بداية ظهور المسألة الشرقية. وبعدها أُطلق على كيان الامبراطورية العثمانية «الرجل المريض»، مما شجع الأصحاء من حولها التفكير باقتسام ممتلكاتها والاجهاز عليها.

وكذلك تضمن الكتاب مراحل نضال الأقليات والقوميات والحروب التي حدثت داخل البلدان التي كانت منضوية تحت راية الامبراطورية العثمانية، ومن أهم المسائل التي استعرضت رسم الحدود، وقضية لواء الاسكندرونة، ومشاكل القفقاس...

لهذا يرى مركز الدراسات العسكرية أنه من المفيد أن يطلع القارئ المثقف على مثل هذه المعلومات إغناءً للثقافة العامة، وترسيخاً للفكر القومي.

مركز الدراسات العسكرية

المقدمة

المسألة الشرقية

" المسألة الشرقية، التي شغلت الدوائر الغربية أكثر من قرن، وكانت أحد الأسباب الرئيسية للحرب العالمية الأولى، هي الانتقال من امبراطورية متعددة القوميات إلى دولٍ قومية. تحتل ثلاثون دولة، اليوم، أجزاء من هذه الامبراطورية في مساحتها الأكثر اتساعاً، أي من ضواحي سلوفاكيا وأوكرانيا إلى ضواحي الصومال واليمن، ومن القفقاس حتى منطقة وهران «الجزائر»". وأصبح تشعب هذه المسألة، وأهميتها واضحين لعالم يشكل همزة وصل بين العالم الغربي وآسيا العليا وافريقيا السوداء.

لكن بما أن هذه المنطقة الشاسعة والمتوسطة هي جوهر المسألة، فتحول الامبراطوريات إلى دول قومية لا يخص بعد الان الامبراطورية العثمانية وحدها. فقد زالت الامبراطورية النمساوية-المجرية، والامبراطورية العثمانية عام ١٩١٨، من بين تلك الدول الكبيرة في المنطقة. أما الامبراطورية الروسية التي تحولت عن طريق الشيوعية لتصبح الاتحاد السوفييتي قد استمرت ستين عاماً. ومنذ عام ١٩٩٠ عاد إلى الظهور تشكل دولة قومية فبرزت معها المسائل التي لم يكتمل حلها في المرحلة السابقة. وعادت المسألة الشرقية إلى الظهور بعد فترة غياب طويل جعلتنا نعتقد أن المسائل القومية ومسائل الحدود الملازمة لها قد وجدت حلاً لها.

منذ القديم تتكون أراضي المسألة الشرقية من منطقتين جغرافيتين: البلقان ومنطقة الشرق الأوسط، تفصل بينهما هضبة الأناضول التي اختا تركيا، وريثة الامبراطورية العثمانية، كأرض قومية رغم الاعتراضات وأضف إليها منطقة ثالثة وهي القفقاس التي استثنيت جزئياً في القرن عشر من المسألة الشرقية، إذ قد سيطرت عليها الامبراطورية الروسية و معظمها منذ عام ١٨٢٨. ونلاحظ أن منطقة القفقاس تدخل بالقوة على الجغرافية - السياسية في كل مرة تختفي السلطة الامبراطورية الروسية عام ١٩١٧ وإلى عام ١٩٢١ ومنذ عام ١٩٩٠، فيتبين لنا أنها جزء لا يتجزء المنطقة الشرقية. ونستطيع أن نضيف إلى تلك المناطق الثلاث منطقة رابعة مقاطعة شمال البحر الأسود التي احتلتها روسيا بين نهاية القرن الثامن (ضم القرم عام ١٧٨٣) وأوائل القرن التاسع عشر (ضم بيسارابياً - مو الحالية- عام ١٨١٢) وقد تبيّن الآن أن حدود روسيا تعود إلى ما وراء حد في القرن الثامن عشر، ولكنها ترتبط بمنطقة أوروبا الوسطى.

نشاهد خلال القرن التاسع عشر في البلقان عملية تشكل دول قومية شعوب قديمة جمعتها بالقوة الامبراطورية العثمانية التي لم تعتمد إلا الفارق الديني. وقد أدت هذه العملية قبيل الحرب العالمية الأولى، إلى العثمانيين من البلقان طرداً تاماً. وأن الحدود الموضوعة بين الدول الجديد وليدة الصدفة إذا وجدتها المعاهدات. وقد ثبتتها الدول العظمى بقرار وطامعة ١٩١٩. وبقيت على حالها في الوضع القلق الذي ساد بين واستمر أثناء الحرب الباردة. وتبدو الاضطرابات التي اندلعت منذ عام أنها عودة إلى العملية المجمدة منذ عام ١٩١٢ أكثر من أن تكون نتيجة نتائج الشيوعية.

إذا استثنينا الحدود الإيرانية العثمانية القديمة فلقد وضعت الدول الحدود في الشرق الأوسط دون مشاركة السلطات المحلية (سوى بعض

النادرة مثل تركيا أو العربية السعودية) ولم تكن تهدف بالتأكيد إحداث دولة قومية جديدة. وكان على تلك الدول أن تتشكل بعد ذلك ضمن حدود موضوعة مسبقاً. وقد صمم قادتها أن يصنعوا بالقوة دول جديدة رغم أنهم يحتجون على ما فرض عليهم من أغلال. ويبدو أخيراً في القفقاس أن المحاولات الضعيفة والمتنازعة في سبيل تكوين دولة قومية، والتي ظهرت عند سقوط النظام الامبراطوري عام ١٩١٧، قد عادت إلى الظهور بذات القوة عند انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١.

يستحق، مخطط المسألة الشرقية كما عرضت في كل جزء من الأجزاء ضمن هذا الاطار، أن يدرس بمنظار انبعاثها الحالي، إذ تجد صراعات اليوم جذورها في المسألة المفتوحة خلال السنين التي سبقت وتبعت الحرب العالمية الأولى مباشرة. وقد تم كتابة ونشر معظم النصوص المعروضة هنا بين عامي ١٩٨٦-١٩٩٣ في مجلة هيرودوت ومجلات فرنسية وأجنبية. ولا يعني تتابعها أنها ستغطي الأوجه العديدة لهذه القضية المضطربة التي طالما درست وعولجت في كثير من المنشورات العلمية. وهدفنا هنا ليس احتواء الموضوع من كل جوانبه بل تسليط الضوء لفهم الصراعات الحالية والمستقبلية.

I- القسم الشرقي للبحر المتوسط والبلقان

١- القسم الشرقي للبحر المتوسط - فترة انتقال

إن أسطورة وحدة البحر المتوسط قديمة قدم الامبراطورية الرومانية وثابتة مثل الآثار التي تركتها على أطراف البحر المتوسط «بحرنا». ويبدو أن التاريخ يجري بين حلم وحدة وحقيقة انفصال. والتناوب راسخ أكثر في شرق المتوسط لأن جذور التاريخ عميقة أكثر. وتضع الإلياذة التي هي النص المؤسس للذاكرة الغربية، الحدود بين الحضارة والبربرية. ولا تزال حرب طروادة تنتظر السلام الذي سيضع حداً لها.

ثلاثة آلاف عام عايشت ميراث هذه الحدود والرغبة على اجتيازها بالحرب وليس بالاتحاد. لقد نقل اليونانيون للغرب أساس رؤية للعالم مبنية على هذين الشقين، جسّدتها الحدود المتغيرة باستمرار بين جزر إيجة وحدود آسيا الوسطى. وكان الفُرس أول مجتاح شرس. وكان الاسكندر المقدوني، الحديث في الحضارة (لا يزال انتماء هذا الشخص موضع جدل أثناء قمة المجموعة الأوروبية في لشبونة، حزيران عام ١٩٩٢، وبرهاناً لاستمرارية رؤيتنا للعالم)، أول من طرد البربرية حتى حدودها، وقد سار الرومان في إثره، فضموا للمرة الأولى البحر المتوسط كاملاً داخل امبراطورية.

انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين، استمر الشرق في وهم الأولوية الامبراطورية ومقاومة البربرية، التي كان يمثلها الفرس لزمن قصير، ثم انتقل هذا الدور إلى الاسلام. وتقاسمت المسيحية والاسلام البحر المتوسط منذ ذلك العهد متهماً كل واحد الآخر بالقيام بدور البربري. وتقدم العرب باتجاه

الغرب حتى ناربون ثم تراجعوا في الوقت الذي اجتاز فيه الأتراك الدردنيل واحتلوا اليونان وصعدوا شواطيء المتوسط حتى خليج الكوتور. واحتل محمد الثاني العثماني أثينا بعد تسعة عشر قرناً من فشل أحشورس (Xcrsccs). ورأى المعاصرون في هذه الأحداث عودة إلى التوازن. وانتشرت الشائعات في أوروبا النهضة أن الأتراك من سلالة الطرواديين. واعتبر المؤرخ اليوناني أن الخليفة والقائد محمد الثاني هو الزعيم الذي سيعلن على أطلال طروادة ثأر الشرق من الغرب.

أخذ انحطاط الامبراطورية العثمانية وتأسيس الدول القومية في البلقان طابع اجتياح ثاني. وكان الهدف حتى مؤتمر باريس الذي أنهى الحرب العالمية الأولى هو طرد الأتراك من أوروبا. وقد تحقق هذا الهدف عملياً عام ١٩١٨. فاعتبرت اليونان نفسها الوريث المباشر لهذا الدور الصعب فاجتاحت آسيا الصغرى قبل أن تثبت الحدود ثانية بين جزر إيجة وساحل الأناضول حيث كانت في عصر الحروب المدنيّة التي خاضها اليونان ضد الفرس.

غيّر ظهور الاتحاد السوفييتي والستار الحديدي والحرب الباردة، لفترة، الحدود بين الحضارة والبربرية وأعيدت المخططات نفسها إذ اعتبرت الشيوعية العدو الشرقي. فكان على أعداء الأمس أن يتحدوا تحت شعار «العالم الحر» ويسوّوا خلافاتهم تحت تأثير الديمقراطية والتحرر. وعندما زال العالم الشيوعي، عادوا إلى انقساماتهم السابقة.

حدان وثلاثة عوالم

هل نستطيع أن نتساءل أن المناطق التي شاهدت عبر التاريخ تلك الحدود المتنقلة قد خصصت لتشكل منطقة متوسطة، وبؤرة تمتزج فيها الخلافات التي لا حل لها؟ عندما نرى حداً طبيعياً يفصل بين عالمين نستطيع أن نبدله بحدين

ثابتين. حد يسير مع نهر الساف عند بلغراد قبل أن يتصل بالأدرياتيك على شواطىء دلماسيا وقد بدا كحد فاصل للامبراطورية الرومانية عام ٣٩٥. لقد فصل أثناء العصور الوسطى بين النظام المستتب تقريباً في الامبراطورية الشرقية وبين الفوضى السائدة في باقي أوروبا. وكان منذ عام ١٠٥٧ الحد الفاصل بين الأرثوذكسية والكثلكة وأصبح منذ القرن السادس عشر الحصن المنيع بين الامبراطورية العثمانية ومملكة الهابسبورغ. وتكوّن اليوم الخط الفاصل ليوغسلافيا، يفصل بين سلوفين وكروات الكاثوليك الذين تشدهم أوروبا الغربية وبين البوسنيين الذين يبحثون عن هوية مسلمة وصربيين تشدهم الشيوعية والقومية والأرثوذكسية. لم يتكون هذا الحد الأكثر قدماً في أوروبا مثل حدود البيرينية، من حواجز طبيعية. فانها لا تفصل بين شعوب من أصول قومية ولغوية مختلفة (يسكن في الجانبين سلافيون يتكلمون السلافية الكرواتية) ولكنها تفصل بين تطورات ثقافية مختلفة الواحدة كاثوليكية ضمت إلى الامبراطورية النمساوية المجرية، والأخرى أرثوذكسية، أسلم جزء منها فيما بعد وشكل جزءاً من الامبراطورية العثمانية.

يتكون الحد الآخر من جزئين الأول من الشرق إلى الغرب مع جبال طوروس يفصل الأناضول عن سورية وعن ما بين النهرين، والثاني من الشمال إلى الجنوب يفصل ما بين النهرين والهضبة الإيرانية. ويشكل هذا الجزء الأخير أحد أقدم الحدود في العالم. يفصل بين الحضارة الإيرانية وحضارة ما بين النهرين. إنها أقدم الحدود الحالية في المنطقة وضعت منذ عام ١٦٣٩ بين الامبراطورية الإيرانية والعثمانية. عايشت الحدود الأناضولية طيلة أربعة قرون (٧-١١) المجابهات بين البيزنطيين والعرب. وعندما احتل الأتراك الأناضول شكلت الحد الفاصل بين الأتراك والعرب. هذا الحد الشرق أوسطي على عكس حدود البلقان، حد طبيعي يتكون من سلسلة جبال ووديان بين السهول والهضاب، وتكوّن أيضاً حداً قومياً واضحاً يفصل بين الأتراك والعرب والفرس.

أما الفاصل الديني فهو أقل وضوحاً، إذ يعيش في الجانبين مسلمون، وإذا كان الإيرانيون شيعة، فهذه الفئة موجودة في العراق والأناضول. ويعيش على جانبي الحدود شعب بدون دولة، الأكراد.

ليس ذلك الطابع المميز خاصاً بالحدود الشرق أوسطية لأننا نجد بذات الوضع على جانبي حدود البلقان الصربيين، سوى أن هؤلاء يمتلكون دولتهم على عكس الأكراد ويشكلون الأكثرية في يوغسلافيا. يعيدنا هذا التشبيه إلى مسألة الحصن المنيع. فمثلما استخدم الأتراك القوة القبلية الكردية ضد الإيرانيين، جمع النمساويون قسماً من الصربيين العثمانيين ليسكنوهم كجنود فلاحين على حدود امبراطوريتهم. وعندما تجزأت الامبراطورية العثمانية إلى دول قومية، وجدت الحصون الكردية نفسها مقسمة مثل الحصون الصربية عندما تجزأت يوغسلافيا، التي تعتبرآخر دولة غير قومية سليلة الامبراطورية النمساوية المجرية والعثمانية.

ينطوي وجود حدين بدلاً من حد واحد على وجود ثلاث مناطق، ونتج عن ذلك منطقة متوسطة بين عالمين مختلفين، ونستطيع أن نتتبع ذلك عبر التاريخ. لقد فرضت بيزنطة ثقافة يونانية ونظاماً سياسياً شرقياً فاخضعت الدين للسلطة الامبراطورية وأصبحت قبل الانفصال الكبير عالماً منعزلاً، إذ تقدم نظاماً ثابتاً في الظاهر أمام الفوضى التي سادت في الامبراطورية الغربية. وأصبحت عدوة الامبراطورية الألمانية، الوريث الوحيد للسلطة الدنيوية وعدوة البابوية المالكة الوحيدة للسلطة الدينية. فغدت مطمعاً للغربيين، حتى إن أول احتلال للقسطنطينية عام ١٢٠٤ كان نتيجة حملة صليبية. واعتبرت نفسها في ذات الوقت المدافع الأول عن المسيحية ضد الاسلام العربي والتركي، فوجب علينا أن نتكلم منذ بداية الألف الثاني عن عوالم ثلاثة: الكثلكة والأرثوذكسية، والإسلام كخصوم لبعضها البعض رغم التأثيرات والمداخلات التي لا بد منها والواضحة في بلاد الأندلس وصقلية وسورية ودلماسيا.

بداية الامبراطورية العثمانية

لم يغير مجيء الامبراطورية العثمانية تلك الحقيقة تغييراً تاماً، لأنها أصبحت الوريثة الجغرافية–السياسية لبيزنطة إذ تسيطر على ذات المناطق وورثت ذات الخصومات وقامت في الوقت نفسه بدور الطليعة للاسلام وحامية المسيحية الشرقية ضد الكثلكة المزدهرة. ودحضت في أنقى التقاليد البيزنطية، ادعاءات مملكة هابسبورغ، وبما أنها قوة عظمى تسيطر بوضعها الجغرافي على البلقان وعلى جزء من أوروبا وشرق وجنوب المتوسط أصبحت طرفاً في كل النزاعات والمعاهدات الأوروبية منذ النهضة حتى الحرب العالمية الأولى. وكان العثمانيون يختارون القوى النشيطة من إداريين وعسكريين إما من البلقان أو من المرتدين والمنشقين، وأهملوا العالم العربي الذي بات يجتر بمرارة انحطاطه وهو يعزو ذلك إلى الاحتلال التركي.

تقلصت المنطقة المتوسطة مثلما تقلصت الامبراطورية العثمانية، فقد فقدت مناطق احتلها النمساويون والروس بمساعدة الحركات الاستقلالية عند الشعوب الامبراطورية. فكانت العملية جغرافية سياسية بقدر ما كانت عقائدية. ودفعت ولادة الحركات القومية عند الشعوب المسيحية في البلقان، في المرحلة الأولى، إلى مصالحة مسيحيي الشرق مع الغرب. ولم يتم ذلك بتقارب بين كنائس بل بعلمنة تدريجية للطليعة التي انفصلت عن قبضة رجال الدين الذين قد اعتادوا على عبودية ضعيفة لا تخلوا من بعض المكاسب، وعلى حماية الامبراطورية الشاملة ضد محاولات تبشير الكنيسة الكاثوليكية. ولا يحمل الغرب وجه الهرطقة البابوية وهرطقة لوثر، بنظر الطبقات البلقانية التقدمية، بل وجه البرجوازية المزدهرة بفضل التجارة والصناعة. ولم يقضِ التغيّر على نفوذ الكنائس التي عرفت أن تواكب المسيرة محققة جزءاً كبيراً من النهضبة الفكرية والصراع القومي كونها البنية الوحيدة الموجودة والمقبولة في الامبراطورية.

ولكنها حدّت من قدرتها وألزمتها بالتساهل والاعتراف من خلال تطور رعاياها، بتفوق الغرب. وكانت تطمح المقاومة ضد الامبراطورية العثمانية إلى كسر ما كان يعتبر غلاً وإلى الانتماء إلى الغرب.

انخرط العالم العربي من جانبه، في الوقت نفسه، في تيار التجديد الاسلامي الذي لا يمكن أن يكون حسب نظام الفكر الاسلامي، إلا عودة إلى الأصول، وقاوم الامبراطورية العثمانية التي كانت تعتبر متخلفة كثيراً وعلمانية إذ أفسدتها بيروقراطية ثقيلة. وحاولت الامبراطورية بين هاتين النزعتين المتنابذتين أن تلعب دوراً ذي وجهين: فبدأت عملية تحول غربي لتسعى إلى الالتحاق بالتفوق التقني والتنظيمي في الغرب، وعارضت رغبات رعاياها المسيحيين، وطرحت في ذات الوقت شعار الوحدة الاسلامية في تجديد الاسلام وتوحيده. وقد فشلت المحاولتان أمام ضغط القوى النابذة والضغط الغربي، وساعد الغرب تلك القوى التي كانت تفتح له مجال تدخل ومجال تأثير اقتصادي وعقائدي، ولكنه كان خائفاً من الفراغ الذي سيسببه هذا الجسم المتعدد القوميات والقائم منذ قرون. فأطال ذلك الخوف نزاع الامبراطورية مدة قرن وامتدّ حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى.

الولادة الصعبة للدولة القومية

وأخيراً انتصرت القومية، وهي العنصر الأسهل ادراكاً والذي يمكن تطبيقه، فسادت القومية ليس فقط على الامبراطورية بل أيضاً على أحلام الوحدة الاسلامية والوحدة العربية. فتبنت في الشرق الأوسط مخطط الدول القومية من خلال مصاعب نظام الانتداب. وكان بينها فارق إذ لم تكن النزعة القومية من الطبيعة نفسها فإنها لم تجد الزمن الكافي لتنضج كما نضجت الروح القومية في الغرب. فكان يقوم غالباً بدل التطور السياسي والثقافي الذي

يصنع بنياته الاجتماعية وأدواته الاقتصادية ومعتقداته الخاصة عبر ألف عام،حرب تحرير يرافقها تدخل عنيف للدول العظمى لكي تشكل خلال مؤتمر سلام، دولةجديدة. لقد بحث المعتقد القومي البلقاني والشرق أوسطي في ملفات المعتقدات الغربية عن الشعارات والمقاييس التي استخدمت لتبرر الوحدات القومية في نهاية مطافها واستعملتها كشعارات قادرة على صنع دولة قومية جديدة، فعندما نستخدم عقائد وشعارات مستوردة ومكرسة لتخدم كل قضايانا، فلا نستخدم في الحقيقة إلا ما نملك، إذ نسعى هكذا إلى تشكيل وحدات قومية من خلال وحدات دينية قد رسم إطارها ضمن الهيكل الامبريالي.وإضافة إلى ذلك فإن ألف وخمسمائة عام من سياسة امبريالية وبيزنطية وعثمانية قد كونت رقعة شطرنج قومية ودينية حسب مزاجها. يستحيل تشكيلها ثانية عقائدياً وحسب المقاطعات.

يمكننا أن نعتقد أنه حسب ما تقدم أنه بعد توقيع المعاهدة الأخيرة التي أنهت الحرب العالمية الأولى في المنطقة، قد تمت عملية تكوين دول قومية كبدايات ضرورية وقد أخذت تلك الدول الطابع الغربي، وترك للزمن ما تبقى: التصنيع والديمقراطية «ورفع المستوى» ، ولم يكن لدى مجموعة البلاد البلقانية والبلاد التركية الوريثة المباشرة للامبراطورية العثمانية ذات القومية الصلبة إلا نموذجاً واحداً وطريقة واحدة: الانتماء إلى الغرب. ولعبت دول الانتداب دور الشرنقة «للفراشات»للوحدات الوطنية حتى وقت تفتحها.

كانت عملية التشكل القومي في الحقيقة سريعة وغير متقنة، ولم يكن للطموحات الوطنية والمتطرفة عند كل فرد، الوقت الكافي لتنضج ضمن معتقد ثقافي دائم وضمن مقاطعة ثابتة. لقد قسمت البلاد بالسيف فأجبرت على كبت مطالبها وسادها أنظمة مستبدة فباتت تتغذى بحقدها وتتمسك بمعتقدات سطحية مكرسة فقط في سبيل استمراريتها. وكان يتوجب علينا في هذا الاطار حيث يكون الجار العدو الذي يعيق تحقيق الحلم القومي ويكون جار الجار حليفنا

لأنه متشبع بالحقد نفسه وحيث كانت الأقليات تعامل كطابور خامس أو كرهائن، أن نعمل في سبيل الدمج على النموذج الغربي. وعندما لا يتم هذا الدمج بالتعاون يتم بالعزل. ولم يكن الفكر الساعي إلى التعديل الذي ساد أوروبا بين الحربين قادراً على تقديم أفكار متنوعة وملموسة في حوار الحرب المستقبلية، إلى أي من زعماء دول المنطقة. فكانت العملية العقائدية لذلك العزل تنحصر بأن نضع أنفسنا وراء الحدود التي تفصل بين الحضارة والبربرية، ويجب أن نظل على تماس معها بحيث نتصور أنفسنا في المراكز الأمامية للعالم الغربي، وندفع بالجار إلى الظلمات الخارجية فكانت تلك العملية تتطلب كثيراً من الالتواءات الجغرافية السياسية.

كان ذلك الدور سهلاً نسبياً لليونان الذي يتمتع بمزايا منحها له ماضيه القديم وبمستوى متطور لبرجوازية تجارية وبجواره لعدوه الوراثي، تركيا، التي تصل حدودها مجدداً إلى الحد القديم الذي عليه بنى أجداده مفاهيم الحضارة والبربرية. وهكذا يعود العالم المتحضر إلى حدوده الطبيعية التي يسهر اليونان الخالد على حراستها دائماً.

ارتبطت رومانيا بلاتينيتها بعملية شبيهة. لأنها تشكل المركز الأمامي في وجه البربرية السلافية المجاورة. وعندما أصبحت صربيا يوغسلافية ازدادت الأمور تعقيداً، فكان من المتوقع أن يكون عدوها البربري البلغار، لكنها قاتلت ضد النمسا خاصة. ويمنع انتماء النمسا إلى الغرب أن تصبح منطقة مجابهة. وكان الحد الفاصل بين الغرب والمنطقة المتوسطة يمر من أواسطها فتفتحت جراحها القديمة ثانية.

لم يتبق من البربرية بنظر بلغاريا إلا تركيا. فكان على الأتراك الذين تضرروا من الإرث الامبراطوري والعداء العام أن يتورطوا بعملية التبرير الذاتي المعقدة جداً، فرفضت تركيا الجمهورية، الميراث العثماني في المرحلة الأولى. وعندما اتجه النظام إلى العلمنة، حاولت أن ترفض الميراث الثقافي العربي

الاسلامي لكي تضع نفسها في مأمن. ولكن هذا الرفض الاجمالي يطرح مسألة الجذور، فعلى تركيا أن تبحث عنها في مكان آخر. فتخيلت في آسيا الوسطى حضارة قديمة وعالمية واعتبرت أتراك الأناضول أجمل ورودها. فلم يكفِ هذا الجهد الفكري ليضع تركيا في أحضان الغرب، ولكي يعيد المنطقة المتوسطة إلى سابق عهدها وظهرت تركيا التي ليست غربية ولا مسلمة بعيدة كل البعد عن الموقعين: الاسلام والغرب. فاستوحت من نظريات علم الانسان الهندية-الأوروبية التي كانت رائجة كثيراً بين الحربين، ما مفاده أن الإنسانية المتحضرة تنحدر من عائلة أولية في آسيا الوسطى وكانت تركية الأصل: الحثيون أتراك (لم يفعل الأتراك إلا العودة إلى وطن اغتصبه اليونانيون)، السومريون والآخيون أتراك وهم أجداد اليونانيين.....الخ.... لم يكن هذا التفكير يكفي حتى للاستهلاك الداخلي ولا يصلح للتصدير، فلم يبق أمام الأتراك إلا أن يبرهنوا بالأعمال عن رغبتهم بالانتماء إلى الغرب.

المنطقة البلقانية مطهر للغرب

بسّط الستار الحديدي الشيوعي بعد الحرب الأمور ظاهرياً. فكانت اليونان التي وحدها الناجي البلقاني، ترى نفسها صامدة بدورها الرائد للحضارة، ولكن كان عليها أن تتحالف مع تركيا البلد الوحيد الذي يستطيع أن يكّون التوازن مقابل قوى حلف وارسو. في الحقيقة لم يدم هذا التحالف في داخل حلف الناتو إلا ثلاث سنوات من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٥. ثم عاد العداء المتبادل منذ ذلك مع تصعيد أزمة قبرص وساد إلى درجة أن البلدين اللذين ما زالا في حلف الناتو توصلا مراراً عديدة إلى مشارف الحرب. وأبدلت الحكومة اليونانية في أواسط الثمانينات «شعار» الخطر الآتي من الشمال (حلف وارسو) بشعار الخطر الآتي من الشرق (تركيا). أما أوروبا المتبقية اعتبرت تركيا حليفاً

ضرورياً للغرب ولكنها لم تقبلها في داخلها.

سبب انهيار الأنظمة الشيوعية في البلقان وفي أوروبا الوسطى نفس الأوهام التي حصلت عند انهيار الامبراطورية النمساوية المجرية والعثمانية عام ١٩١٨. فساد الاعتقاد بأنه إذا استثنينا المسائل التقنية في سبيل التطور الاقتصادي والبنيات الديمقراطية لم يبق موانع لكي تعود البلاد الأوروبية – بدون شك أوروبا الجغرافية التي يحدها بحر إيجة والمضائق والبحر الأسود وسلسلة القفقاس والأورال – إلى الغرب الذي فصلها عنه بعض التطورات، وترفض أن تأخذ بعين الاعتبار وجود هذه المنطقة المتوسطة التي ميزت طويلاً الشعوب التي تواجدت فيها ونسينا أنه أثناء الأوقات الصعبة التي تكونت فيها أوروبا، من نهضة الكارولانجيين إلى نهضة الهوهينستاوفن، ومن النهضة حتى الازدهار والثورة الصناعية لم يشكل البلقان وشرق البحر المتوسط، الموجودة ضمن مجموعة أخرى، جزءاً منها.

فلا يدهشنا النسيان إذا اعتبرنا أن أولياء الأمر أنفسهم لا يريدون الكلام عنه. وأن الانتماء إلى هذه المنطقة المتوسطة، مطهر الغرب، بنظرهم تلوث سمي بلقاني، وعليهم أن يتخلصوا منه. وأن ردود الفعل هذه واضحة كثيراً في اليونان لأن هذا البلد منتمي منذ زمن انتماءً تاماً، ثقافياً ومؤسساتياً، إلى أوروبا. ويجب أن لا ننسى أنه منذ تدخل القوى العظمى النشيط لصالح استقلاله عام ١٨٢٦–١٨٢٩ وحتى عملية انتمائه السريعة إلى المجموعة الأوروبية ١٩٧٤–١٩٨١ وجهود بريطانيا العظمى لكي تخلصه من التأثير السوفييتي عند تقسيم يالطا، كان الطابع العقائدي للدين الثقافي الغربي على الحضارة اليونانية مساوياً للاعتبارات السياسية آنذاك وكان حماس اليونان ضمن هذه الشروط ليحافظ على مركزه الرائد في الحضارة مرتبطاً بحب البقاء أكثر من ارتباطه بالمحافظة على كنز ثقافي.

نستطيع من ضمن هذا الاطار أن نتفهم ردود الفعل العامة عند اليونانيين

عندما أحدثت دولة تحمل اسم مقدونيا، لأنه لم يكن مسلكها نتيجة أسباب استراتيجية، فليست الدولة هي المرفوضة، بل اسمها، الذي يرتبط برغبة المحافظة على الكنز اليوناني القديم كاملاً وبدون تلوث لأنه يساعد على تحديد وتقييم الوحدة اليونانية الحديثة من قبل شعب لم يعرف أن يتخلص من مخلفات الماضي. ويجب أن نضع ضمن هذا الاطار معارضة اليونان لمحاولة انتماء تركيا في الدوائر الأوروبية، أنه يعارض ليعيق كل محاولة مكرسة لكي تنسق تركيا في قضية قبرص. ويرفض هادفاً ليحفظ تركيا بعيدة عن الغرب، حتى أن قسماً من الرأي العام بات قلقاً من حل محتمل للقضية القبرصية إذ سيخسر اليونان حجته بالأبعاد.

وتتمسك رومانيا بذات الطريقة بوهم جذورها اللاتينية التي ليست فقط لغوية بل أيضاً قومية. إذ تعتبر أن الأمة الرومانية تنحدر من زواج «الداس» من الجنود الرومانيين (ومن المفروض أن يكونوا لاتين أنقياء) عندما كانوا يحتفظون مدة مئة وستين عاماً بحامية في تلك الأماكن. ومكث أولاد هذا الزواج فيما بعد أكثر من ألف عام في الجبال متحاشين كل تلوث مع فصائل «القوطيين» والآفار والسلاف والمجريين قبل أن يهبطوا ليؤسسوا دولتهم الجديدة.

وكانت عملية الولادة البكر للأمة في رحم جبلية شائعة في البلقان. لجأ اليونانيون القدماء والبيزنطيون و«الإلريون» الألبان أو سلاف الجبل الأسود، هم أيضاً، إلى الجبال أمام الغزاة، خاصة الأتراك، لأنهم عاشوا بعيدين عن كل تلوث قومي وثقافي قبل أن يهبطوا ليطردوا الدخلاء ويؤسسوا دولاً قومية.

إن نقاوة العرق ملازمة للقدم وكانت فخر اليونانيين والألبان أحفاد «الإلريين» ويعتبر السلافيون القادمون في القرن السابع أمامهم دخلاء، ولا نحتاج أن نذكر الأتراك الذين يعتبرون مغتصبين حتى في الأناضول، لقد حمل هذا السباق إلى الأجداد، الأتراك ، إلى تبني الحثيين لكي يفسروا تواجد اليونانيين في آسيا الصغرى، مثل ذلك «الأوراتو» (شعب قد بنى مملكة حول

بحيرة ڤان في أوائل الألف الأول قبل المسيح) يتنافس عليهم الأكراد والأرمن. إن البلغار شعب من أصل تركي وقد أصبحوا سلاڤ، وهم أيضاً أعلنوا أثناء النظام الشيوعي أنهم ينحدرون من التراسيين، فندرك جيداً تمسك المقدونيين برغبتهم في الانتماء إلى الاسكندر الأكبر رغم كل الحقائق.

يوصل البحث عن النقاوة العرقية إلى العزل المتبادل الذي يؤثر خاصة على الأقليات فتلام تلك الأقليات عادة لأنها تريد الاندماج بينما الأكثرية لا تبدي أية رغبة باحتوائها، وربما تقبل أن تحتويها إذا نزعت عنها كل طابع مميز. فينتج عن ذلك أسطورة أخرى، أسطورة الأخوة التائهين والمستمرين بعناد في تيههم. ينطبق ذلك على أتراك بلغاريا الذين اعتبرهم النظام الشيوعي بلغاراً أسلموا بالقوة وعليهم أن يعودوا إلى الحظيرة تاركين لغتهم ودينهم وحتى أسماءهم، وأسطورة الأكراد أيضاً التي كتب عنها أتراك جامعيون علماء، كتباً ضخمة، ليبرهنوا أنهم أتراك انعزلوا في الجبال فنسوا لغتهم وأبدلوها بلهجات غريبة، واستغل هذا الضياع جيران سيئون إن لم تكن الدول العظمى. وكذلك أيضاً إن وجد ألبان في كوسوڤو يعود الخطأ على النمسا-المجر، وإذا وجدت عصابة كردية، يعود السبب إلى المداخلات الامبريالية.

الكنائس الأرثوذكسية أمام الكثلكة

هل الطابع لهذه المنطقة المتوسطة المميز هو رفض السكان الاعتراف بها؟ أو هل هو القومية التي تعتبرها مرض طفولة للدولة القومية وعلينا أن نتغلب عليه لنشترك باتحاد الدول المتحضرة؟ إن ورثة الأممية الشيوعية الذين كانوا يحلمون بالاتحاد البلقاني بعد الحرب يغرقون اليوم في قومية بدائية قد صمم الأحرار على بترها من مقاطعاتهم المتخلفة لكي يلحقوا باسرع ما يمكن بالغرب، ويبقى تجاوز القوميات الشعار الأساسي.

عندما، اتحد اليونان بالمجموعة الأوروبية أعطى المتمسكون بالأرثوذكسية الأولوية لفكرة منطقة متوسطة. ويعود هذا المفهوم كمذهب سياسي إلى أواخر القرن التاسع عشر عندما كان الأحرار يمجدون تحقيق الشعارات القومية بتوسع تدريجي للدولة اليونانية على حساب الامبراطورية العثمانية. وكان اليمين المحافظ المرتبط بالبطريركية القسطنطينية التي كانت تريد المحافظة على الامتيازات التي قد منحها لها السلطان، تؤيد اضفاء الطابع البيزنطي (بيزنطة) على الامبراطورية العثمانية. لربما توصل غزو من الداخل بسيطرة البرجوازية اليونانية الاقتصادية، ومداخلات الطليعة اليونانية في الإدارة إلى أبعاد الأتراك وإلى تحويل الامبراطورية إلى يونانية أو على الأقل إلى إقامة سيادة يونانية تركية حيث كل واحد ينفذ الأعمال التي يعتبر نفسه قادراً على القيام بها: لليونانيين الصناعة والتجارة، وللأتراك الجيش والإدارة.

ظهرت فكرة اتحاد فيدرالي يوناني تركي بطريقة غريبة عندما أبعدت دكتاتورية الضباط اليونانيين (١٩٦٧-١٩٧٤) البلد عن أوروبا، واعتبرت المنطقة المتوسطة ثانية مثل بديل للانتماء المرفوض. لم يقلق ازدهار الكثلكة في سنوات الثمانينات، الأرثوذكس، بينما اعتبر سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وفي بلاد البلقان، الأرثوذكسية مثل فقدان الشرنقة الحامية، كما حصل عند انهيار الامبراطورية العثمانية، وأغضب الدعم الذي قدمه الفاتيكان للمتحدين، ومشاريع التبشير في الشرق، الأرثوذكس. وقد جعل زوال الستار الحديدي في البلقان، تكوين منطقة متوسطة مبنية على الأرثوذكسية بدون حاجة اللجوء إلى الأتراك أمراً معقولاً، وأثار اعتراف الفاتيكان المبكر بسلوفيينا وكرواتيا، وتساهل النظام البلغاري الجديد المعتبر مذنباً تجاه أقليته التركية، والميول إلى الاعتراف الدولي بكنيسة مقدونية مستقلة بدعم من الفاتيكان، وتحركات البروتستانت المجريين في ترانسلفانيا، مجموعة مصالح بين الكنائس الأرثوذكسية في صربيا وبلغاريا ورومانيا واليونان، وكان المسلك الأفضل لاسكات الخصومات هو أن نضع

أنفسنا ضمن هيمنة بطريركية القسطنطينية. وقد أرسلت هذه الأخيرة شخصية دينية رفيعة كموفد في نهاية ١٩٩١ ليعيد تنظيم كنيسة ألبانيا أرثوذكسية، وفي أول أحد من صوم عام ١٩٩٢ يوم تقليدي في الأرثوذكسية، اجتمع في «الفنار» (مركز بطريركية استنبول) جميع رؤساء الكنائس الأرثوذكسية لكي يتدارسوا الوسائل الضرورية لمقاومة الهمجية الكاثوليكية، وجرى ذلك تحت رعاية تركيا الحامية: وتفكر تركيا حائرة منذ معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ التي فرضت عليها بقاؤها، كيف ستتخلص من البطريركية بكل الوسائل، واكتشفت فجأة مكاناً جديداً للسلطة تحت إشرافها. فاستطعنا هكذا أن نقرأ في الصحف التركية أن على «الفاغاوز» (أتراك أرثوذكس يطالبون باستقلالهم عن مولدافيا التي ضموا إليها) أن يرتبطوا ببطريركية القسطنطينية لكي يكونوا تحت الحماية التركية.

ظهور التآلف التركي الإسلامي

إن النهضة الاسلامية في الجانب التركي التي بدأت في الخمسينات حينما لم تستطع التعددية الحزبية أن تفرض علمنة قسرية. وانتشرت في الثمانينات، لم تحقق المصالحة مع العالم العربي. فقد تم توازن فقط بعد سوء العلاقات التركية العربية المستمرة منذ ثورة ١٩١٦ التي اعتبرها الأتراك خيانة وحتى انحياز السياسة الخارجية التركية انحيازاً كاملاً إلى سياسة القوى الغربية فجرها إلى الاعتراف باسرائيل وتأييد حرب الجزائر وحملة السويس وعداوة النظام الناصري ونظام البعث.

إن مراقبة الدولة للدين التي اشتدت بعد محاولة انقلاب عام ١٩٨٠ والتي كانت هنا مثل أي مكان وسيلة لابعاد الأصوليين، أدخلت في ذات الوقت مذهبها الخاص «التآلف التركي الاسلامي». وكانت تهدف أن توحد بين اليمين المتمسك بالقومية التركية واليمين الديني. لكن كان عليها أيضاً أن تعيد توحيد

المذاهب الأساسية التي بنيت عليها الجمهورية، وتحافظ على منافذ ممكنة إلى الجوار الذين هم في أوج التغيير. فتمسكت بالأصول الآسيوية المركزية المجيدة، ولم تستخدم تلك الأصول لكي تجد أجداداً أوثان عند الحثيين أو غيرهم بل لتضع صورة التركي المتحضر والسيد الذي سيضع تحت حمايته الاسلام الذي تديره خلافة عربية سيئة ومنحلة، ويسير به نحو فتوحات جديدة، وهكذا قد حل مكان صورة التركي المفسد للاسلام التي ضخمها الاستشراق الغربي في القرن التاسع عشر وتبناها العرب، صورة التركي منقذ الاسلام. وسلك الآباء مؤسسو الجمهورية هذا المسلك. كان الجديد في الأمر تمجيد الامبراطورية العثماينة ومن خلال ذلك تبنى دعاة التآلف التركي الاسلامي إرث المنطقة المتوسطة، وكان الموقف تجاه التغريب مبهماً. إذ اعتبر دعاة تغريب الامبراطورية، منذ القرن التاسع عشر، حفاري قبور لها، فلم تكن عملية تغريب تركيا موضوع اتهام، وكان ضرورياً فقط أن نميز بين المظاهر المادية حيث علينا أن نتقدم وبين المظاهر الثقافية والأخلاقية حيث علينا أن نستلهم من التآلف التركي الاسلامي. فهذا التمييز الذي كان مدار اهتمام المصلحين العثمانيين كان تعريفاً للمنطقة المتوسطة. حتى ولو فقد منظموا التآلف التركي الاسلامي نفوذهم منذ أوائل التسعينات فقد نجحوا بوضع الأسس المذهبية لإدارة تثبت تركيا كقوة إقليمية بعد التقلبات التي حصلت حولها مباشرة: تجزء يوغسلافية وتفجر الاتحاد السوفييتي، والتقلبات في القفقاس، وحرب الخليج، ويمكن أن يكون هذا الاختفاء مناسباً في وقت كان على تركيا أن تظهر موالية للغرب لكي تربح من الانحدار بقدر ما تربح من مساهمة القوى الغربية في مشاريعها. إن اعادة الاعتبار ثانية للعصر العثماني الذي يتعارض مع رفض العصر الكمالي وانطوائه الجبان، أيقظت اهتمام الرأي العام بالأقليات المسلمة في البلقان، بينما جلبت إعادة الهيمنة التركية مرتبطة بانهيار الاتحاد السوفييتي، اعجاب الأخوة في القفقاس وآسيا الوسطى وكان يعني التآلف التركي الاسلامي بنظر الجميع،

أن البوسنيين أو الألبان بما أنهم كانوا عثمانيين ولا يزالوا مسلمين فلا يهم كثيراً إذ لم يكونوا أتراك، وعلينا أن لا نبحث لكي نعرف مَنْ مِنَ «الشيشان» أو «الأبخاز» أو الكباردان أو البلغار وشعوب القفقاس الأخرى، كان تركياً أم لا، وليس هاماً أن يكون الأغاغوز مسيحيين أرثوذكس بما أنهم أتراك، فتركيا وريثة العثمانية ورسالتها بأن تهتم بالجوار.

سواءً كان عند الارثوذكس أو عند الاسلاميين، فمن الطبيعي ان يكون اكتشاف المنطقة المتوسطة، دينياً، لانه يعيد إلى ذاكرتنا امبراطوريات بنيت على المعتقد الديني وقد كوّنت وخلدّت هذه المنطقة المتوسطة، وطبيعي أيضاً أن تكون الحكومة التركية أول من يتدخل، لانها قبلت أن تأخذ على عاتقها ميراث الامبراطورية العثمانية، وصرح بذلك رئيس وزراء تركيا في ربيع ١٩٩٢ أن منطقة النفوذ التركي تمتد من الادرياتيك حتى بحر الصين.

ان هذه المنطقة المتوسطة لم تكن في الحقيقة أبداً مكان تعايش سلمي، بل غالباً كانت تحكمها سلطة واحدة. لا ينظر يعين الرضى كل من اليونان وصربيا وبلغاريا، إلى الاهتمام الذي توليه تركيا للمسلمين البلقان. ولكن لا بد لتركيا أن تبحث لتملأ الفراغ الحاصل في البلقان نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتي مثلما وجدت المانيا نفسها مشدودة إلى الفراغ الحاصل في أوروبا الشرقية للأسباب نفسها، ولا يقال - ونتمنى ذلك - أن وسائل الغد ستكون وسائل الامس. وهذا الأمل قائم أقل في الايمان القوي بتحسين الجنس البشري من جودة في الارتباطات الدولية، وذلك صحيح على الاقل فيما يخص تركيا، انها لا تستطيع ان تطمع اليوم إلا إلى تأثير ثقافي وتدخل اقتصادي. ولا تملك لأجلها رؤوس الأموال والكوادر العلمية وتستطيع على الاكثر أن تعبر عن رغبتها في ذلك وتطلب المشاركة الدولية فتكون هي وسيلة النقل بفضل خبراتها المحلية التي عليها ان تثبها.

تبذل تركيا قصارى جهدها اليوم لتصنع كوادر تعاون اقليمية عبر مقاطعة

التعاون الاقتصادي للبحر الاسود (CEMN) بينما تحاول شركاتها الصغيرة والمتوسطة ان تستقر في بلغاريا ورومانيا أو في القفقاس. لم تُحدث المقالات الساخنة في الإعلام القومي لصالح البوسنة وكاراباخ أي عمل مدهش. ولم تفكر الحكومة بمبادرة خارج نطاق الدوائر الدولية (CSCE) أو (ONU)، وخضعت لرفض هيئة الأمم المتحدة في إدخال وحدة عسكرية تركية بين الوحدات المخصصة للبوسنة والهرسك. ولم يجلب الاعتراف المبكر بمقدونيا بمبادرات أخرى. وتوصلت تركيا إلى أن تراجع بسرعة خلافها الكبير مع بلغاريا. وقد لعب جيرانها البلقانيون أيضاً لعبتهم. تشترك بلغاريا ورومانيا واليونان وألبانيا بـ (EMN) (التعاون الاقتصادي للبحر الأسود). وظهر انفتاح على مستوى الحكومات بين أثينا وأنقرة، يؤكد الطرفان أنه عندما يتم حل المسألة القبرصية تزول الخلافات بين البلدين بسرعة وأن بلغاريا قلقة جداً من جانبها تجاه مستقبل أقليتها التركية لذلك فهي تتبع سياسة التهدئة.

نستطيع أن نعتبر هذه المنطقة المتوسطة في أوروبا الغربية والعالم الاسلامي كأثر مرض (عقبول) من الماضي. ويجب أن ندرك أن الآثار، عميقة، ويتطلب اختفاؤها زمناً. ونستطيع أن نقول أنها حقيقة وستبقى تحت شكل أو آخر وعلينا في كلا الحالتين أن نحسب لها حساباً خوفاً من أن نخطيء بتقييم قدراتها على التطور.

٢- الأقليات ودورها في البلقان

إن الضرورة الملحة لتضع مشاعر قومية منذ القرن التاسع عشر في البلقان، أتت بلازمتها، الرغبة بالتخلص من أقلياتها المعتبرة عائقاً في عملية إحداث دولة قومية متجانسة، كأنها الطابور الخامس للعدو الجار، وقد دفعت يوغسلافيا غالياً ثمن هذه التجربة عندما رأت نفسها ملزمة في عام ١٩٤٥ على

أن تنطلق على أسس وحدوية متعددة القوميات.

اليونان: وزن الأقليات الضعيف

حظيت اليونان في تحليل آخر باحداث كانت غالباً مأساوية لكي تحقق على وجه أفضل سيرها نحو دولة وحدوية. وقد بدلت أقليات مقدونيا وكريت المسلمة والقديمة بمسيحيي تركيا الأرثوذكس بعد كسيرة اليونان في آسيا الصغرى. وقد ساهم الوافدون الجدد وكان عددهم ثلاثة أضعاف الذين غادروا (١٢٠٠٠٠٠ مقابل ٣٩٠٠٠٠) وقد توطن معظمهم في المقاطعات الجديدة في الشمال (٦٤٠٠٠٠ في مقدونيا و ٦٠٠٠٠ في تراس الغربية) بفائدة كبيرة باعمارهم ودعمهم ضد الخطر الآتي من الشمال. وبدّل أيضاً بموجب الاتفاق الموقع عام ١٩١٩ بين اليونان وبلغاريا، ٢٥٠٠٠ يونانياً بما يقارب ٦٠٠٠٠ ألفاً سلافياً (بلغار ومقدونيين) من مقدونيا الشرقية اليونانية. حملت إرادة اليونان بالمحافظة على أقلية استنبول اليونانية لوزنها الاقتصادي، وكعنصر ضروري لبقاء البطريركية المسكونية (لقب بطريركية القسطنطينية) في مقرها التاريخي، مقيماً توازناً للمطاليب التركية بالاستفتاء في تراس الغربية، على ابقاء المجموعات الخاصة بكل فئة والمتساوية العدد تقريباً، ١٢٠٠٠٠ ألفاً. فكان على اليونان هكذا أن يعترف رسمياً بالأقلية المسلمة في تراس الغربية وحدها.

حافظ البلدان على التوازن بين المجموعتين مع انخفاض خفيف لدى الطرفين حتى أواسط الخمسينات. وأحدثت حينذاك الأزمة القبرصية تحت ضغوط الحكومة الترحية الملحة والتي كانت تسعى إلى التخلص من بقايا الامبراطورية العثمانية المتعددة القوميات، هجرة اليونانيين الجماعية من تركيا، فلم يبق إلا ثلاثة آلاف نسمة، فدفع تخلخل التوازن هذا، اليونانيين على اتخاذ إجراءات قاهرة ضد أتراك تراس الغربية، واصطدمت تلك الاجراءات بمقاومة

شعب معظمه قروي، أي أقل تحرك، ولذلك أقل تضرراً من يوناني استنبول، وقد كانت الحكومة التركية تساندهم وتدعمهم جيداً. ولم تولّد الضغوط الشديدة طيلة أعوام السبعينات والثمانينات إلا زيادة في توتر العلاقات اليونانية التركية. وتتكون هذه الأقلية التي يسميها اليونان مسلمة اليوم من ١٢٠٠٠٠ ألف نسمة، منهم ٧٠٠٠٠ ألفاً من الأتراك و ٣٠٠٠٠ ألفاً من البوماك (لا يزال حول أصلهم جدل ولكنهم على الأغلب بلغار قد أسلموا) و ٢٠٠٠٠ ألفاً من الجيتان ولكن يبدو أن جميعهم يدّعون أنهم أتراك رغم رفض اليونان قبول هذه التسمية.

فعلى عكس الشعوب المسلمة التركية، لا يوجد أي قرار دولي يجبر مباشرة اليونان على الاعتراف بأقلية صربية. وتصرح دائماً أنه لا وجود لمسألة مقدونيا، وقد اعترفت بوجود ٨٢٠٠٠ ألف يتكلمون السلافية في احصاء ١٩٢٨، وقد عمدت دكتاتورية الجنرال «ميتاكساس» بين عامي ١٩٣٦-١٩٤٠ على تحويلهم إلى يونانيين. وكانت النتائج واضحة فوراً بعد الحرب العالمية الثانية، فقد عمل الفارق بين تطور شمال اليونان، وتطور جنوب يوغسلافيا المرتبط بالهجرة الريفية إلى أثينا وسالونيك كخميرة اندماج فعّالة أكثر بكثير من الاجراءات الزاجرة. وألزم قانون عدم استخدام اللغة المقدونية والذي لا يزال يعمل به، البعض على الهجرة إلى استراليا وكندا (بدلاً من يوغسلافيا) حيث أسسوا تجمعات مغلقة ومطالبة. وقد توصل تدخلها مع الدعاية التي قام بها «سكوبج» إلى رفع القضية إلى الدوائر الدولية عام ١٩٨٩، فقد وجه تقرير الولايات المتحدة الأمريكية حول الأقليات عام ١٩٩٠ اللوم لليونان على تصرفها في هذه القضية.

استوطن ألبانيون مسيحيون أرثوذكس ومسلمون، في المقاطعات اليونانية حتى الجزر منها، أثناء الفترة التركية وحتى قبلها بدون شك، لاقى مصير الأتراك الذين طردوا تدريجياً أو هاجروا حسب تقهقر الامبراطورية العثمانية. بينما اندمج الأرثوذكس اندماجاً طبيعياً حتى ولو ما زالوا يحتفظون ببعض

التقاليد وبلغتهم في حياتهم المنزلية في المقاطعات حيث هم كثيرون مثل «الآتيك». يكّون «التسام» (تساميد) حالة شاذة، أنهم ألبان مسلمون بقوا في اليونان بعد ذهاب الأتراك عام ١٩٢٣ واستوطنوا في «الايبير». دفعهم الاحتلال الإيطالي عام ١٩٤١ إلى التعاون فطردتهم المقاومة اليونانية الوطنية باتجاه ألبانيا.

يعيش «الكوتزوفالاك» (أو الآرومان) حول «الميتسوفون» في جبال البندوس، ويقدر عددهم بأربعين ألفاً عام ١٩٥١ وقد طالبت بهم رومانيا في أوائل هذا القرن إذ كانت تمول ما يقارب اثنا عشرة مدرسة في مقدونيا العثمانية، وبما أنهم ليسوا موضوع مطالبة من قبل جيران اليونان المباشرين فانهم مقبولون وأسست جمعية ثقافية «فالاك» في الثمانينات.

بلغاريا: ربع السكان

إن مجموع الأقليات في اليونان، والتي قسم كبير منها في طريقه إلى الاندماج، لا يتجاوز ٤٪ من مجموع السكان (٥ر١٠ ملايين)، لكن الوضع مختلف في بلغاريا التي يسكنها أقلية تركية تقدر بـ ١٠٪ من مجموع سكانها. وتلك الأقلية هي بقايا إحدى أكبر المجموعات المسلمة في البلقان (كان القناصل الفرنسيون يقدرون عام ١٨٧٦، قبيل تكوين دولة بلغاريا، السكان بمليون مقابل مليون ومئتي ألف غير مسلم). وتمت أول هجرة للسكان المسلمين في أيام الاحتلال الروسي ١٨٧٧ – ١٨٧٨، ولا تزال مستمرة، وقد هاجر ٥٥٠٠٠ ألف نسمة بعد إقامة النظام عام ١٩٥١، وما يقارب المئة ألف بين عامي ١٩٦٨ – ١٩٧٧. واتبعت الحكومة البلغارية منذ بدء الحرب الباردة سياسة دمج قسرية للأقلية التركية إذ تهدف أن تكوّن دولة قومية متجانسة، وتأسست المدارس التركية عام ١٩٧٠ مع المدارس البلغارية، وفي أوائل السبعينات ألغي تعليم اللغة التركية

وتأزمت الحالة في أواسط الثمانينات مع التبديل الالزامي للأسماء التركية، أسماء العائلة والأشخاص بأسماء بلغارية بحجة أنهم بلغار قد أسلموا بالقوة أثناء الفترة العثمانية وأحدثت هذه العملية التي تمت ما بين كانون الأول ١٩٨٤ وآذار ١٩٨٥ مقاومة، نتج عنها مصرع عشرات الأشخاص، وتكللت حركات الاحتجاج فيما بعد في ربيع ١٩٨٩ بطرد عدد كبير من الاتراك وتبعها هجرة الآخرين، اجتاز الحدود التركية ٣٠٠٠٠٠ ألف نسمة بين شهري آيار وآب. فاضطرت السلطات التركية آنذاك إلى إغلاق الحدود لتجابه الوضع. واجبرت الأوضاع الاقتصادية السيئة ١٣٠٠٠٠ ألف من بينهم على العودة إلى بلغاريا في أوائل ١٩٩٠. في العاشر من تشرين الثاني ١٩٨٩ أجُبر السكرتير العام للحزب الشيوعي «تودور جيفكوف» على الاستقالة معلناً بدء تغير النظام.

اسس بعد شهر زعيم تركي قد خرج حديثاً من السجن، «أحمد دوغان»، حركة الحقوق والحرية. وبقدر ما كان الحزب الاشتراكي، وريث الحزب الشيوعي البلغاري، يتخلى عن السلطة لصالح اتحاد القوى الديمقراطية التابعة «لجيلوجيكيف»، كانت تعود حقوق الأقلية التركية تدريجياً، لكن كان يرافق كل مرحلة مظاهرات قومية معادية، وظهرت في نيسان ١٩٩٠ أول صحيفة ناطقة باللغة التركية (نصف شهرية) وتبعها في شباط ١٩٩١ صحيفة يومية (M.D.L) وسمح للأتراك في تشرين الثاني عام ١٩٩٠ أن يستعيدوا أسماءهم وأدخلت اللغة التركية إلى المدارس منذ بدء الدراسة عام ١٩٩١. وفي انتخابات ٢٩ أيلول ١٩٩١، قامت صحيفة (M.D.L) مع ٢٤ نائباً بدور الحكم للنظام وقدمت الدعم اللازم لتأمين أكثرية لصالح اتحاد القوى الديمقراطية، (V.F.D).

استخدم النظام الشيوعي أسلوب القهر مع أقليته «البوماك» البالغة ٢٧٠٠٠٠ ألف نسمة والتي تقطن على طول الحدود اليونانية البلغارية. فأجبر «البوماك» على تبديل أسمائهم بأسماء سلافية منذ عام ١٩٧١ مستخدماً إجراءات عنيفة نتج عنها مئات الضحايا وقد أزيلت تلك الإجراءات عام ١٩٩١

واتجه تصويت البوماك بأغلبية لصالح (M.D.L).

احتفظت بلغاريا في مقدونيا بوادي «ستروماً الذي يكوّن الطرف الجنوبي الغربي للبلاد. بعد الحرب العالمية الثانية وقبل انفصال يوغسلافية عن الاتحاد السوفيتي، كان جورج ديمتروف السكرتير الأول للحزب الشوعي البلغاري، وأصله مقدوني، ميالاً إلى الاعتراف بقومية مقدونية، وكانت الاحصاءات التي تمت في تلك الفترة الزمنية تدل على وجود مئتي ألف مقدوني. واعتمد الحزب الشيوعي البلغاري الموقف نفسه. وتجمُع معظم الأحزاب السياسية الرئيسية على رفض القومية المقدونية. ولم يمنع ذلك الرفض ظهور حركات استقلالية مقدونية في بلغاريا منذ نشرين الثاني ١٩٨٩، وقد تجمعت تلك الحركات في نيسان ١٩٩٠ تحت اسم التنظيم المقدوني الموحد «الاندن» (مشتق من اسم أول انتفاضة مقدونية وقد تفجرت يوم عيد القديس الياس الاندن في المقدونية في الثاني من آب ١٩٠٣) ويطالب التنظيم باستقلال ٢٥٠٠٠٠ ألف مقدوني بلغاري، وتمثل حتى اليوم الأقلية الوحيدة في بلغاريا ذات الميول الاستقلالية.

يأوي هذا البلد ٦٠٠٠٠٠ ألف من الجيتان منظمين منذ آذار ١٩٩٠ في الاتحاد الديمقراطي «روم» المتحد مع الاتحاد الفيدرالي الديمقراطي بينما يشترك «الجيتان» المسلمون بـ (M.D.L). وقد سمح فقط للأرمن وعددهم عشرون ألفاً ويعيشون في بلغاريا، ولليهود بالانضواء تحت راية النظام الشيوعي. ويتألف ربع السكان الذين يعيشون اليوم في بلغاريا من أقليات معترفاً بها أو أنها تعلن هويتها بتنظيم تجمعات اجتماعية وخاصة سياسية بعد تغيير النظام عام ١٩٨٩.

مقدونيا : تنوع قومي:

هذه النسبة عالية أكثر في جمهورية مقدونية المجاورة التي أعلنت استقلالها في ١٠ أيلول ١٩٩١ والتي لم يعترف بها في ربيع ١٩٩٢ إلا بلغاريا

وتركيا والجمهوريتان اللتان انفصلتا عن يوغسلافيا، كرواتيا وسلوفينا، وانضم إليها بعد بضعة أشهر روسيا. وتشمل ثلث مجموع السكان، فكان مجموع السكان ١.٩١٢.٢٥٧ نسمة أحصيت عام ١٩٨١، وقد توزعوا كالتالي ١.١٨١.١٩٥ مقدونيين، ويتبعهم ٣٧٧.٧٢٦ ألباني، ٤٤.٦١٣ صربي و ٣٩.٥٥٥ مسلم و ٤٧.٢٢٣ جيتاني و ٨٦٦٩١ تركي و ٧١٩٠ فالاك.

يعيش الألبان في الشمال الغربي من مقدونيا في قوس دائرة تمتد من «آهوريد» في الجنوب إلى «كومانوفو» حيث يكونون الأغلبية في مقاطعات كثيرة: تيتوفو وغوستيفار وكيسيفوا وديبار على حدود كوسوفو وألبانيا. ويجب أن نضيف أن الألبانيين (هنا كما هي الحال في يوغسلافيا السابقة) يكونون النسبة الأعلى في الازدياد السكاني والنسبة الأقل في تطور العائدات. وأحدث في عام ١٩٩٠ حزب ذو قومية ألبانية من أجل ازدهار مقدونيا الديمقراطية (P.P.D.M) وحاول أن يجذب إليه مسلمين آخرين.

وقد استخدم المسلمين في القوائم الاحصائية تحت اسم مسلم وقد كانت مجموعتهم مكونة من السلافيين المسلمين ويسمون أيضاً هنا بوماك، كمجوعة ترجيح مخصصة لكي تخفض عدد الأتراك أو عدد الألبانيين حسب حاجة الساعة. كانت تركية العضو في الناتو معتبرة في بدء الحرب الباردة مثل خطر كبير، وقد أجبر عشرات الآلاف من الأتراك (من ٨٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠ ألف حسب المصادر) على الهجرة إلى تركيا وقد تركزت فيما بعد مخاوف السلطات على الألبان. وقد وصل عدد المسلمين الذي كان ١٥٩١ نسمة عام ١٩٥١ إلى ٣٩٥٥٥ نسمة عام ١٩٨١. ونستطيع التوقع بأن تميل كتلة المسلمين المتقلبة قومياً إلى الاقتراب من المجموعة المسلمة النشيطة، فتتحول من أتراك إلى ألبان. وقد برر ذلك التحول نتائج انتخابات ٢٥ تشرين الثاني ١٩٩٠ إذ بدأ التصويت المسلم موجهاً لصالح (P.P.D.N).

وكانت حكومة الوحدة الوطنية المكونة في سكوبج، أثناء صيف ١٩٩٢ بعد

الأزمة الناتجة عن رفض المجموعة الأوروبية الاعتراف بمقدونيا تحت هذا الاسم، تضم كثيراً من وزراء ألبان، ولم يمنع ذلك مجلس النواب من أن يصوت على قانون يحدد ١٥ عاماً للفترة اللازمة لكسب الجنسية لغير المقدوني. وأوقعت اضطرابات في سكوبج في تشرين الثاني أربعة قتلى ألبان .

ألبانيا : فوارق دينية:

تختلط المسألة القومية في ألبانيا بالمسألة الدينية. بلغ تعداد السكان بعد الحرب العالمية الثانية أكثر من (٧٠٪) من المسلمين و (١٧٪) من الأرثوذكس و (١٠٪) من الكاثوليك. كانت الأقلية القومية الأكبر من اليونانيين الذين يقطنون على طول الحدود اليونانية بين «جيروكاستر» و «كورس» وتقدرهم ألبانيا عام ١٩٩٢ بـ ٥٧٠٠٠ ناطقين باليونيانية وتتمسك بهذا التعريف، ويقدرون ٤٠٠٠٠٠ ألف من قبل اليونان الذي يدمج بدون شك اليونانية بالأرثوذكسية. ويكّون يونانيو «ايبير الشمال» المطلب اليوناني الوحيد في البلقان الذي يتكرر دورياً، وقد دشن ملك اليونان قسطنطين عام ١٩٦٥ على الحدود الألبانية «مسلة» تحمل كتابة: «لا تنتهي حدود اليونان هنا: ايبير الشمال» ولم تتوقف حالة الحرب بين اليونان وألبانيا إلا عام ١٩٨٧. وقد عاد النزاع شديداً اليوم بمناسبة تشكل حزب الوفاق «الكونكورد» من يونانيّ ألبانيا .

الأقلية القومية الثانية هي أقلية المقدونيين «سلاف» المتوطنة حول بحيرات «بريسبا» بين الحدود اليونانية والمقدونية وتقدر بـ ٢٠٠٠٠ ألف نسمة. ومهما يقال ، تبدو ألبانيا اليوم بلداً متجانساً من حيث القومية مثل اليونان حتى ولو أن الفارق الديني معرض لتفجير اتجاهات متعددة بقدر ما هي متناقضة في المستقبل القريب. أضف إلى ذلك أن الشعب الوحيد الذي يعيش أكثر من نصفه خارج حدود قومية.

٣ - أطلس جغرافي صغير للمسالة الشرقية :

قبل أن نتساءل في اب عام ١٩٣٩ هل يستحق أن (نموت من أجل دانتزغ) تساءلت أوروبا في تموز عام ١٩١٤ «هل يجب أن نموت من أجل البلقان» ومات الناس أخيراً من أجل الأثنتين ومنذ ذلك الوقت بقيت البلقان رمز الاختلاط القومي المعقد - مقدونيا المالك «اللعبة» - الجبل الأسود - وحراقات سريعة لتفجير العالم : سراييڤو.

وقد جعلنا النظام الذي أوجدته الدول العظمى بعد الحرب العالمية الثانية أن ننسى كل ذلك، وإذا استثنينا الاشتراكية الالبانية الدخيلة فقد أصبحت البلقان طريقاً واسعاً تربط بين أوروبا والشرق مارة من بلغراد واستنبول وعلى جوانبها محطات للاستجمام حيث من «دوبروفنك» إلى كورفو ومن «ماممايا» إلى رودس يتمتع الشرقيون والغربيون.

وإن إعادة النظر في نظام البلقان الراهن مع عودة الاسماء القديمة الحالية تستوحي من قضايا الماضي المعروفة تحت الاسم الشهير الذي يبعث إلى اليأس «المسألة الشرقية» وان مجموعة الخرائط الثانية وتعليقاتها تعطي لمحة عنها وتبين تقهقر الامبراطورية العثمانية وتكوين الدول القومية في المنطقة وقد رسم على كل خريطة بالتنقيط الحدود الحالية.

- شبه جزيرة مفتوحة لكل ريح (خريطة رقم - ١)

أن الجبال في البلقان رغم كثرتها أقل أهمية من الوديان إذ تسمح الوديان بالمرور بدون صعوبة في جميع الاتجاهات. وتنقسم طرقات البلقان التي نشاهدها من استنبول والتي هي هدف جميع المسافرين أو الغزاة، إلى ثلاثة

أقسام : طريق اليمين القادم من روسيا وطريق الوسط طريق ڤيينا، وطريق اليسار التي توازي الطريق الرومانية.

تعرقل الوديان طريق اليمين أكثر من الجبال. تبدأ من «كييڤ» و «لومبرغ» (الڤوڤ) وتجتاز الدينستر عند كمنيك، مركز حدود عثماني قديم، والبروت عند سيرنوفسي ومرة ثانية عند الشرق من جاسي والدانوب عند تولسيا ثم تأتي دوبروجا وممر شرقي البلقان قبل ادين واستنبول.

كان طريق الامبراطورية في الوسط، في العهد العثماني، يتبع الدانوب بين ڤيينا وبلغراد كان يتم اجتيازه بالسفن غالباً ولم تنجز الطريق المرافقة للطريق الحديدية التي تربط أوروبا الغربية ببلغراد ومروراً بزغريب ووادي الساڤ إلا بعد أن ضمت النمسا المجر هذه المقاطعة. ولكن تبقى الطريق ثابتة بعد بلغراد. وتسلك الطريق العريضة وطريق السكة الحديدية الطريق القديمة في وادي موراڤا حتى «نيس» حيث تنفصل طريق سالونيك، في وادي الموراڤا العميق ووادي ڤاردار. ثم تسلك وادي نيساڤا الصغير وتهبط إلى سهل صوفيا وتجتاز البلقان السلسلة الوحيدة في كل المسار. وتتبع وادي الماريتزا حتى أدين.

كانت طريق اليسار أصعبها لأن عليها أن تجتاز الألب الديناريك موازية للشاطيء ولكن تقطعها وديان كثيرة فتنقسم الطريق إلى أقسام عديدة. يمر القسم الشمالي في وادي نيرتڤا مروراً بموستار وسراييڤو ثم تسلك ممر «نوفي بازار» الشهير حتى سهل كوسوڤو وسكوبج. وقد أهملت اليوم بسبب الطريق الأسهل، طريق الإيبار التي تدور حول «الممر» في الشمال الشرقي.

ويسلك القسم الثاني الدرين عند «شوكودير» ويتصل بسكوبج عبر «بريزرين»، ويبدأ القسم الثالث، الطريق الرومانية القديمة، عند دوريس (ديراشيوم) وتصعد الشكومبان وتصل إلى الأوهريد ثم تهبط عند بيتولا إلى سالونيك لتسلك فيما بعد الشاطيء حتى ماريتزا وسهل تراس قبل أن تصل إلى استنبول.

استخدم هذه الطرقات خلال قرون التجار والسفراء والجيوش، وانتشر العثمانيون عبرها حتى أبواب ڤيينا وكييف ثم تراجعوا حتى ضواحي استنبول. وقد أغلقت المنطقة البلقانية أثناء هذا التقهقر من قبل الدول القومية التي كونتها القوميات البلقانية تحت سيطرة الممالك المجاورة، الثابتة.

الحدود العثمانية قبل حصار ڤيينا الثاني ١٦٨٣ (خريطة رقم -٢-)

كانت حدود الانتشار العثماني في أوروبا الوسطى دينية وسكانية أكثر مما كانت طبوغرافية. بعد أن اجتاز الأتراك جبال البلقان والبوسنة والهرسك توقفوا في وسط السهل الكرواتي والسهل المجري والبطاح الأوكرانية. ولو لم تكن أسباب استقرار الحدود هذه نفسها في كل مكان لصعب علينا أن نقول أن اجتيازها والإقامة فيها سهل باتجاه أو بآخر.

وبعد أن شطب العثمانيون من الخريطة بيزنطة والدول البلقانية والمجر ووصلوا إلى أبواب ثلاثة امبراطوريات: الحصون الدلماسية الأمامية للمملكة البحرية الڤينيسية والمنحدر المجري للامبراطورية الألمانية المقدسة والحدود الأوكرانية للامبراطورية الروسية التي كانت في أوج تكوينها. وكانت تمتلك بولونيا الواقعة بين ألمانيا وروسيا والتي تحتل جزء من أوكرانيا، حدوداً مشتركة مع الأتراك.

وأصبحت الممتلكات الڤينيسية البرية في دلماسيا بضع مدن صغيرة ذات أسوار منيعة تعود إلى العصور الوسطى محصورة بين البحر والجبل. فكانت بودڤا وكوتر أو بيراست الواقعة بالقرب من سواحل الجبل الأسود مهددة جداً. وكان يقيم للأتراك في الشمال، في سبليت، حصن سولان الأمامي الذي يتكون اليوم من حي يحيط بالمدينة ويحتفظ الڤينيسيون بمقاطعة صغيرة حول سيبيتيك وزادار، واستطاع سكان المدن ذات الكثافة العالية والكاثوليك أن يقيموا حصاراً

استمر أكثر من قرن، شهرته ثلاثة حروب تركية ڤينيسية، فقد منعوا الأتراك من أن يمتلكوا مرفأ أدرياتيكياً واحداً في شمال خليج الكوتور.

تمركز الأتراك في كرواتيا طيلة قرنين على أبواب زغريب دون أن يستطيعوا الاستيلاء عليها فاعتمدت عائلات تابعة للكروات مثل زيريني، على الفلاحين الكثيرين لتصد الهجمات. وكان الخط الذي يمتد من زغريب إلى ايزترغوم ويمر ببحيرة البلاتون، يفصل بين المقاطعات الكاثوليكية للامبراطورية المقدسة وبين المجر البروتستانتيين أثناء السيطرة التركية. وتوصل الأتراك في الشمال أن يتقدموا حتى جبل تاتراس وكانت إمارة ترنسلڤانيا التابعة تحتل الكارابات. وتقدم للأتراك في شمال ملدافيا ضمن فراغ نسبي يسكنه كوزاك زابروغ بعد أن اغتصبوا من بولونيا البودولي لكي يصلوا إلى أبواب كييڤ قبل بضع سنوات من هزيمتهم أمام ڤيينا.

البلقان بعد مؤتمر ڤيينا (١٨١٥) (خريطة رقم -٣-)

لقد امتاز القرن الثامن عشر باسترجاع الأراضي التاريخية المجرية. فقد استرجعها النمساويون الذين طردوا الأتراك من أوروبا الوسطى. واحتلت امبراطورية الهابسبورغ، بعد هزيمة نابليون، جمهورية راغوس التي كانت تخضع للعثمانيين والمقاطعات الڤينيسية بكاملها. وتركت الجزر الايونية للانكليز ثم تقاسمت بولونيا مع روسيا وبروسيا، وأصبحت القوة العظمى في المنطقة. وبدأت روسيا بالمقابل بعد أن ضمت القرم عام ١٧٨٣ نزولها على ضفتي البحر الأسود، فوصلت من الجانب الأوروبي إلى مصب نهر الدانوب.

وبدأ الهجوم الكبير ضد الامبراطورية العثمانية عندما فشلت أمام ڤيينا عام ١٦٨٣. فأقيم الحلف المقدس، وقد اشترك فيه جميع جيران الأتراك الأوروبيين: النمسا وبولونيا وروسيا وڤيينا. ووصلوا إلى الحدود الطبيعية للمرة

الأولى بعد ست عشرة سنة في معاهدة كارلوفيتز عام ١٦٩٩. واستعادت النمسا المجر التاريخية بكاملها بما فيها ترانسلفانيا، ما عدا «بانات تامشوار»، تيمسوار الحالية. وتمتد الحدود مع نهر أونا الرافد اليميني للسافا، بين سلسلة الدلمات وملتقى النهرين . ثم تسلك تجاه وادي السافا نفسها حتى بلغراد، ومنها تتجه نحو الشمال لتكوّن الجيب العثماني في بانات ثم تسير الحدود مع الدانوب حتى ملتقى نهر تيسزا لكي تتبع نهر المور وعندما تصل إلى حصون الكارابات الغربية تتجه نحو الجنوب لتصل إلى نهر الدانوب عند الأبواب الحديدية.

وأقامت النمسا على هذه الحدود التي ليست مقاطعات وإنما خط ترسمه أنهار كبيرة أو سلاسل جبال وعلى عمق ٥٠-١٠٠كم فلاحين جنود مكلفين بحمايتها تحت اشراف عسكري. واستعادت بولونيا في الشمال الشرقي بعد ترانسلفانيا التي رسمت حدودها جبال الكارابات، ومقاطعة البودولي، وتمر الحدود على نهر الدينستر، وقد اكتفت روسيا هذه المرة بمرفأ أزوف في القرم. واحتلت فينيسيا شواطيء دلماتي حتى شواطيء كريت والبيلوبرنيز التي فقدتها فيما بعد عام ١٩١٥.

وخسر الأتراك «البانات» في معاهدة باساروفيتز. وانفصلت القرم عام ١٧٧٤ في معاهدة كاتناردج وضُمت فيما بعد إلى روسيا عام ١٧٨٣. واحتل الروس المقاطعات الواقعة في شمال نهر دينيستر في معاهدة ياسي عام ١٧٩٢ وبيسارابيا في معاهدة بخارست ١٨١٢، وضمت النمسا أخيراً بوكوفين في شمال مولدافيا عام ١٧٧٣ مع الممتلكات الفينيسية في دلماتي ١٨١٥.

من استقلال صربيا (١٨١٧) إلى استقلال اليونان ١٨٢٩ (خريطة رقم -٤-)

توقف تقدم الممالك الوسطى المباشر باتجاه البلقان بعد مؤتمر فيينا، لقد تم فقط احتلال النمسا للبوسنة والهرسك عام ١٧٨٦ ثم ضمها عام ١٩٠٨

واعتبر ذلك خطأ تاريخي وقد لفت هذا الحدث نظر روسيا التي لم تتردد بمتابعة تقدمها على شواطيء البحر الأسود الشرقية. واستولت في طريقها على دول مسيحية أرثوذكسية قديمة منذ آلاف السنين مثل مملكة الجورجيين، مع أنها كانت تظهر بمظهر المدافع الأكبر عن الدول البلقانية على الشاطئ الغربي للبحر الأسود نفسه. ويفسر هذا التناقض تصدي الامبراطورية الروسية للامبراطورية النمساوية المجرية. فلا تستطيع أي منهما التقدم إلا عبر دول صديقة. وتبدو روسيا محظوظة أكثر في بادىء الأمر لأنها تستطيع أن تعمل في مجالين، مجال الوحدة الأرثوذكسية (أعلنت نفسها حامية أرثوذكس الامبراطورية العثمانية في معاهدة كاينارجي ١٧٧٤) وفي مجال الوحدة السلافية التي أخذت تحمل ثمارها بعد مئة عام في الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧.

وليست الممالك الوسطى وحدها في هذه اللعبة. فقد اهتمت بريطانيا العظمى وفرنسا، كقوى صناعية وبحرية، لأسباب عديدة بالامبراطورية العثمانية وبالبلقان وقد أكسبها تقدمها الاقتصادي والتقني معطيات لا جدل فيها في سباق النفوذ، وكانت روسيا تستغل الفرصة في كل مرة لأنها كانت تحصل بحرب ضد تركيا على استغلال دولة بلقانية، وكانت الدولة المستقلة تسقط فيما بعد في أحضان دولة غربية.

وتفجرت أول حركة استقلال عند الصربيين عام ١٨٠٤، وكان يغذيها صرب فويفودين النمساوية ويدعمها الروس في حرب ضد تركيا منذ عام ١٨٠٦، وتوقفت بعد معاهدة بخارست عام ١٨١٢ ثم عادت عام ١٨١٥، فحصلت عام ١٨١٧ على حكم ذاتي صربي في وادي موراڤا الذي يشكل المحور الرئيسي للدخول في البلقان بين سميدبريڤو ونيس.

نضجت الحركة القومية اليونانية في المراكز الكبيرة الاقتصادية مثل استنبول والأوديسة ولكنها تفجرت في البولوبونيز والجزر القريبة حيث يشكل السكان اليونان الأكثرية. ولما عجزت الحكومة المركزية عن مقاومتها، استنجدت

بمحمد علي باشا والي مصر. فأرسل ابنه ابراهيم ليسحق الثورة بوحشية. فتدخلت في هذه الأثناء القوى العظمى بكل قواها، وأحرق أسطول بريطاني فرنسي روسي، سفن ابراهيم باشا في ناڤاران ١٨٢٧، وعندما نزل الجيش الروسي حتى اندرينول (اديرن) فرض عام ١٨٢٩ معاهدة تحمل ذات الاسم استقلال اليونان واستعاد دلتا نهر الدانوب المركز الهام في الملاحة النهرية.

حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) وتكوين رومانيا (خريطة رقم -٥-)

صدقت معاهدة لندن استقلال اليونان وجعلت من جزيرة ساموس عام ١٨١٢، التي اشتركت في الثورة ولكنها اعتبرت قريبة جداً من الشواطئ الأناضولية لتكون جزء من المملكة اليونانية، إمارة مستقلة يحكمها مسيحي يسميه الباب العالي. وقد غيّر استقلال الشعب الأكثر نشاطاً في الملاحة والتجارة وحرية التبادل بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا العظمى عام ١٨٣٨، واتفاق لندن حول حرية الملاحة في المضائق عام ١٨٤١، خلال عشر سنوات، المعطيات الاقتصادية والجغرافية في الشرق الأوسط. وأصبحت الآن المنطقة التي كانت فيما مضى المنتجة للمواد الأولية للغرب وذات أهمية وسط، سوقاً من الدرجة الأولى للقوى الصناعية الجديدة. ولا ننسى دور السماسرة والوسطاء الهام الذي قام به اليونانيون والشعوب المسيحية الأخرى في الامبراطورية. وصار الحد من نفوذ روسيا في هذه المقاطعة ومنعها من النزول باتجاه الجنوب منذ ذلك التاريخ، الشاغل الأول لبريطانية وفرنسا.

وكانت روسيا تتمسك بالوحدة الأرثوذكسية كسلاح عقائدي وقد منحها نابليون الثالث فرصة ذهبية إذ تبنى الدفاع عن المصالح الكاثوليكية في الأماكن المقدسة، فاستخدمت سياستها العدوانية، وتقدمت كحام للأرثوذكس. فاندلعت حرب القرم بسبب مسألة ملكية مفتاح الباب الخلفي لكنيسة الميلاد في بيت لحم،

وكان لتلك الحرب الفضل بأن تثبت دور تركيا كمعقل ضد التوسع الروسي ومنذ مؤتمر باريس الذي أعاد السلام عام ١٨٥٦ دخلت الامبراطورية العثمانية في «ائتلاف الدول الغربية».

كانت مشاركة بريطانيا وفرنسا أثناء هذه الحرب إلى جانب تركيا ضد روسيا برهان قوة دائمة لصالح شعوب المنطقة. وقضى حصار المرافئ اليونانية على نفوذ الحزب الروسي في هذه البلاد وترسخ فيها النفوذ البريطاني وبرزت فرنسا كأخت لاتينية على ضفاف الدانوب. واستعاد الأتراك بموجب معاهدة باريس دلتا الدانوب، واستعادت مولدافيا منطقة الشمال الشرقي من بروت واتحدت عام ١٨٥٨ مع فالاشيا لتكوّن إمارة جديدة مستقلة، رومانيا. اتخذت فرنسا لنفسها في ذات العام حليفاً جديداً في البلقان، لقد زار امير الجبل الأسود نابليون الثالث وحصل بزيارته على تعديل للحدود.

تكوين الوحدات القومية ١٨٧٦-١٨٨٥ (خريطة -٦-٧-)

أظهر تطور الملاحة التجارية في النصف الأول من القرن التاسع عشر تفوق البحر على الطرقات البرية. ولكن أعاد انتشار طرق السكك الحديدية في النصف الثاني من القرن التفوق للبر، وأصبحت بلاد البلقان قوية من الداخل. وازدهرت مملكة النمسا المجر التي تسيطر على المعابر. وكان يحتاج هذا الازدهار إلى حدث آخر ليزداد قوة فوجده في هزيمة سادوفا ١٨٦٦ وسيطرت بروسيا على ألمانيا فتركت للنمسا الجنوب الشرقي وأجبرت النمسا على مجابهة روسيا التي تتسلح دائماً بحججها القومية والدينية فتبنت وسائل القوى الغربية التي بدت ناجحة وهي التدخل الاقتصادي والتجاري. ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى هدفها إلا بتحالف جديد، تحالف النمسا المجر التي تسيطر على الطرق مع ألمانيا، الدولة الصناعية الجديدة، وقد وُلد تحالف الدول الوسطى يرافقه شعار

«الهجوم باتجاه الشرق».

وكان العائق الأول على هذه الطريق إمارتا صربيا والجبل الأسود الخاضعتان للامبراطورية العثمانية وقد ازداد نشاط هاتين الامارتين إذ كانتا واثقتين من دعم روسيا الأرثوذكسية وكان يشدها تفوق الدول الغربية. فلم يبق في وجه الجبل الأسود إلا المقاومة النمساوية، لكي تسيطر على استخدام مرفأ انتيفاري عام ١٨٦٢ الواقع وسط ممتلكات نمساوية مجرية في دلماتي. فاحتلت صربيا بلغراد، الحصن المجري المنيع عام ١٨٦٧. ولكن حصل البارون النمساوي هيرش بالمقابل على امتياز الخطوط الحديدية في تركيا الأوروبية.

أصبح الرهان الآن على البوسنة الهرسك آخر ولاية عثمانية ذات أكثرية مسلمة وتمتد في أعماق أوروبا الوسطى، لقد دعم الجبل الأسود في أوائل ١٨٧٠ الثورات في هذه الولاية بينما كانت النمسا المجر تحاول أن تضع تحت سيطرتها الإمارة المضطربة وقد عادت روسيا إلى الحلبة، عندما شاهدت وسائل نشاطها تضعف، وأتت بذخيرة جديدة.

كان شعار الوحدة الأرثوذكسية في الحقيقة هو تعزيز سلطة البطريركية القسطنطينية اليونانية لأنها السلطة الوحيدة التي يعترف بها الأتراك، وكان ذلك يغضب، الأرثوذكس السلافيين أو الرومان، ولا سيما أن اليونان قد وقع في أحضان بريطانيا التي قدمت له هدية، الجزر الأيونية عام ١٨٦٣، فاستبدلت روسيا شعار الوحدة الأرثوذكسية بشعار الوحدة السلافية التي كان لها مزايا ثلاثة: انها تشد إليها الامارة الصربية وامارة الجبل الأسود ورعايا الامبراطورية العثمانية البلقانيين، ورعايا الامبراطورية النمساوية-المجرية، وقد نشأت الوحدة السلافية في براغ لأنها حركة فكرية.

واختيرت بلغاريا كمنطقة مثالية لتطبيق الخطة، فحصلت روسيا على انفصال الكنيسة البلغارية عن الكنيسة اليونانية. وشجعت ازدهار اللغة البلغارية، وأقامت حركة قومية. فكانت كل دولة وسطى تمتلك في أواسط عام ١٨٧٠

محرقتها الخاصة، فكانت البوسنة والهرسك محرقة للنمسا، وبلغاريا محرقة روسيا.

كانت الثورة تعصف على أشدها في البوسنة والهرسك في تشرين الأول عام ١٨٧٥، لقد أغضب تأجيل دين مالي من قبل الحكومة العثمانية، أوصى به السفير الروسي، حسب ما قيل، الرأي العام الغربي، المكون من ممولين صغار قد جذبتهم الشروط المربحة لعمولات الديون العثمانية، وعندما قرر الأتراك في ربيع ١٨٧٦ التدخل ضد الجبل الأسود، فجرّت روسيا الثورة البلغارية، لقد كان الردع سريعاً حيث كان السكان الأرثوذكس أكثر بقليل من السكان المسلمين (٢٣ر١ مليون مقابل ١٢ر١ مليون حسب الأرقام الفرنسية). وضخمت أبواق الدعاية الروسية صدى الثورة فهزت أوروبا التي كانت غاضبة من إلغاء دينها المالي. وكانت تستطيع روسيا حينذاك أن تتدخل بدون عائق، إذا أعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على الأتراك واحتلت النمسا البوسنة والهرسك.

عسكر الجيش الروسي عام ١٨٧٧ في سان ستيفانو، في موقع مطار استنبول الحالي، وانتزعت من الأتراك بلغاريا الكبيرة والتي تضم زيادة على بلغاريا الحالية مقدونيا كلها ثم أغلقت روسيا بواسطة محميتها الجديدة، الطريق أمام النمسا وأخذت منفذاً على بحر إيجة. لم يرضِ ذلك بريطانيا والنمسا ومحميتها ألمانيا. وعندما قام بسمارك بدور الوسيط دعا إلى مؤتمر في برلين لكي يقسم بلغاريا الكبرى إلى ثلاثة أقسام، فعادت مقدونيا إلى تركيا مع وعد بالاصلاح، وأصبح شمال بلغاريا مستقلاً، بينما كوّن الجنوب، روميلي الشرقية، مقاطعة مستقلة. واستقر الجبل الأسود جيداً في الوقت نفسه على شواطئ بحر الأدرياتيك. وحصلت صربيا على وادي موراڤا العالي، وبروح العدالة بدون شك، منحت رومانيا التي لم تخوض هذه المعركة، دوبرودجا، وحصلت اليونان على تيسالي عام ١٨٨١.

تم هذا التقسيم عام ١٨٨٥ عندما ضمت بلغاريا الروميلي الشرقية، لقد

وجدت جميع وحدات الدول القومية نفسها في ذلك التاريخ مكونة ما عدا ألبانيا التي حرمت بسبب وجود ثلاث ديانات: الأرثوذكسية والاسلام والكثلكة.

مقدونيا أو التكوين القومي في البلقان (خريطة رقم -٨-)

قد لا تتطابق أرقام قدمتها الفئات المختلفة إذ لا تعترف كل فئة بتعريف الفئة الأخرى ولا تقبل بالمنطقة المحددة لها. وتطمح كل واحدة إلى تضخيم أرقامها وتصغير أرقام الفئات الأخرى، وتعطي الاحصائيات العثمانية التي جرت عام ١٨٩٣ الممتلكات الامبراطورية الأوروبية باستثناء الجزر ومقاطعة استنبول ما يقارب أربعة ملايين نسمة فمنهم ١٨٠٠٠٠٠ مسلماً و ١٢٠٠٠٠٠ يونانياً و٨٠٠٠٠٠ بلغارياً. وكان مقياس هذا الاحصاء دينياً فقط. وإذا فصل البلغار عن اليونان فلأن بعضهم أرثوذكس والبعض الآخر منفصلين بعد انفصال كنيسة بلغاريا، ولا يوجد بالمقابل صربي واحد لأنهم أحصوا مع اليونانيين، ولا ألباني لأن الألبان انقسموا بين المسلمين واليونانيين، ويبلغ تعداد الكاثوليك عشرة آلاف نسمة.

اعتمدت الأرقام التي قدمتها البلاد الأخرى على الأساس العرقي ولكن كيف نوفق بين الاحصائيات الصربية التي تعد أكثر من مليوني صربي مقابل ٥٧٠٠٠ من البلغار وبين الاحصائيات البلغارية التي تعطي ١٢٠٠٠٠٠ من البلغار مقابل ٧٠٠٠٠٠ ألف صربي، بينما تدل الأرقام اليونانية على ٤٥٠٠٠٠ نسمة من الصرب والبلغار على السواء، وقد حصلت هذه الفوارق بسبب تغير أساس جغرافي: لقد اهتم اليونانيون فقط بمقدونيا مع مقاطعات سالونيك ومانايستر (بيتولا)، وأضاف البلغار مقاطعة كوسوڤو، والصربيون مقاطعة شكوديروويانينا، واستخدم الجميع «المقدونيين» ليبدلوا الأرقام حسب حاجتهم، فلم يظهر سكان مقدونيا «الايبونيم» مباشرة على أية قائمة بل استخدموا لاعطاء

الأكثرية لكل فئة. وجمع البلغار والصرب لأنفسهم وحدهم جميع الناطقين باللغة السلافية بينما ضم اليونانيون جميع الأرثوذكس مستثنين من ذلك المنشقين.

يبدو ذلك غير معقول حسب البرهان التالي: ينتمي المسلمون أنفسهم إلى الامبراطورية ما عدا الألبان الذين يتجمعون حول لغتهم، ويضم اليونان الناطقين باليونانية وتجمع بلغاريا المنشقين ويتقاسم الجميع مقدونيا والمقدونيين، وبقي الرومان أو الكوتزوفالاك الذين يقدرون بمئة ألف وتطالب بهم رومانيا ولكن بغير حماس بسبب البعد ولأن معظمهم يعيش في اليونان.

القضية المقدونية وثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ (خريطة رقم -٩-)

كونت الدول البلقانية القومية عام ١٨٨٥ قاعدة أرضية وقومية راسخة ومسلّم بها. ولكن نستثني منها ألبانيا لأنها لم تكن قائمة كدولة، وكريت التي خضعت لعملية ضم إلى اليونان. وقد وضعت كل دولة منها ضمن الحدود التي رسمت لها ووفق المسار الذي خطط لها. فوجدت كل دولة منها نفسها في وسط صنعته الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية العثمانية حسب مصالحهما. وقد سلخ منها مقاطعات قومية بعد أن أعطيت شعارات متنوعة: عرق ودين ولغة وتاريخ وصراع اجتماعي.

لم تتغير الدول البلقانية في هذه المغامرة. وقد ساهمت حسب العادة النمسا وروسيا واشترك معهما عنصر جديد ألمانيا، التي تبنت شعار «الهجوم باتجاه الشرق» لقد أعطت الأولوية لمشروع طريق السكة الحديدية الذي يربط بين برلين وبغداد. ودفع نزول الممالك الوسطى بقوة باتجاه الشرق الأدنى والأوسط إلى تحالف الأطراف، بريطانيا وروسيا فوضعت مسار العملية التي ستوصل إلى الحرب العالمية الأولى.

تبنت النمسا والمجر في هذا الاطار، قضايا البلقان. فكان على هاتين

الدولتين أن تبقيا الممر المؤدي إلى البوسنة والهرسك، عبر سندجك نوفي بازار ومقدونيا باتجاه مرفأ سالونيك، مفتوحاً من أجل تصدير البضائع القادمة بواسطة السكك الحديدية نحو الشرق. وكان عليها أن تمنع اتصال صربيا والجبل الأسود على هذا الممر، واتصال اليونان وبلغاريا في الجنوب فاستخدمت لذلك الشعوب التي لم تنل الاستقلال، مثل الألبان والمقدونيين. وأدت سياسة نشيطة في كوسوفو، الامتداد الجنوبي لنوفي بازار، إلى ثورة الألبان فطردوا الصربيين. (تدل النجوم التي في الخريطة على المعارك الرئيسية).

دخل اليونانيون والبلغاريون في حرب دامية، حرب عصابات متعارضة في الجنوب من مقدونيا، وحاولوا أن يفصلوا السكان بين أرثوذكسي ومنشق، وكانت تلك الطريقة هي الوحيدة لاحصائهم. وكانت روسيا، الحامي المطلوب في بلاد البلقان، منهمكة في هذه الآونة بين هزيمتها في منشوريا وثورة ١٩٠٥. فأصبحت بريطانيا شرطي المنطقة. وأدّى لقاء ريفال في حزيران عام ١٩٠٨ بين ادوار السابع ونقولا الثاني إلى اقرار القيام بعمل مشترك في البلقان.

أعطى هذا اللقاء إشارة الثورة للضباط الأتراك الفتيان الذين تدربوا في الحرب المقدونية، ورأوا بحق أن في هذا التحالف نهاية الامبراطورية العثمانية التي لم تكن حتى ذلك الوقت إلا حارساً لمطامع الدولتين العظمتين المتخاصمتين.

حروب البلقان ١٩١٢-١٩١٣ (خريطة رقم -١٠-)

كان لثورة تركيا الفتاة وإقامة نظام دستوري في تركيا هدفان مباشران ومتممان: أن تبرهن للرأي العام الدولي أن تركيا المتجددة قادرة على حفظ النظام في مقدونيا لتحميها من مطامع الجوار، وعلى توجيه سياسة السلطان الموالية لألمانية، لمصالح بريطانيا العظمى، أدى تخلخل الوضع الداخلي إلى تراجع جديد في الحدود. فأعلنت النمسا-المجر ضم البوسنة والهرسك وضمت

اليونان كريت المستقلة منذ عام ١٨٩٨، بينما أعلنت بلغاريا استقلالها الشرعي.

رسخت الروابط المميزة القائمة بين دول البلقان وروسيا وبريطانيا الحليفة، مخاوف تركيا الفتاة في تقسيم الامبراطورية النهائي لصالح الدول القومية صديقة بريطانيا العظمى وروسيا. وكانت سياسة الدول الوسطى التي تهدف إلى اخضاع الامبراطورية كاملة، تبدو كشر صغير جداً، فتم التحالف التركي الألماني ثانية.

لا يمكن في هذه الظروف ابعاد الخطر النمساوي في البلقان نهائياً إلا بتقسيم ممتلكات الامبراطورية العثمانية الأوروبية بين دول البلقان، وكان يعتقد الأتراك أن تحالف دول شديدة العداء لبعضها تجاه هدف مشترك أمر مستحيل، ويفكر الروس والانكليز بأنهم يستطيعون السيطرة على البلقان من خلال نفوذهم على الدول المحلية ولكن التاريخ برهن غير ذلك.

كان عليهم إرضاء إيطاليا، قادمة جديدة على ساحة الدول العظمى، وحليفة الدول الوسطى، والقلقة من صربيا الكبيرة ويونان قوي. ولقد طالبت بحصتها من ممتلكات العثمانيين في شمال افريقيا بعد احتلال فرنسا لتونس، والانكليز لمصر، وكررت طلبها عند الأزمة المغربية فسمح لها عام ١٩١١ أن تحتل ليبيا الحالية. واستغلت الفرصة أيضاً واحتلت الدوديكانيس.

عندما أجبر الروس والانكليز، الدول البلقانية على الوحدة، هاجمت الأتراك في ١٨ تشرين الأول عام ١٩١٢. وأصبحت الجيوش البلغارية في أوائل عام ١٩١٣ على بعد ٤٠ كم من استنبول، واحتلت القسم الأكبر من مقدونيا. فكان ذلك حجة كافية حتى يتحالف ضدها جميع حلفاء بلغاريا ورومانيا. فخسرت القسم الأكبر من مقدونيا وجنوب دوبرودجا لصالح رومانيا واستعاد الأتراك تراس الشرقية مع ادرين، لكنها احتفظت بمنفذ إلى البحر في تراس الغربية.

البلقان في الحرب العالمية (١٩١٠-١٩١٤) (خريطة رقم ١١)

لقد خسر في حروب البلقان ثلاثة أطراف: الأتراك والنمساويون والبلغار. وأصبح من الطبيعي أن تنضم هذه الأطراف الثلاثة إلى حلف واحد. وخيبت الأحداث آمال الانكليز والروس بالسيطرة على البلقان بواسطة دول صديقة.

خرجت صربيا واليونان والجبل الأسود من تلك الحروب وقد تضاعفت مساحاتها وتنوعت مصالحها. فوجهت صربيا التي لم يبق لها حدود مشتركة مع الامبراطورية العثمانية مطالبها نحو النمسا، بينما استدار اليونان الذي ضم ساموس والجزر الاجية الأخرى، نحوالشاطئ الأناضولي أزمير وضواحيها. ولكي يتلافى الأتراك المطالب اليونانية الجديدة، طردوا السكان اليونانيين من تلك السواحل ومن سواحل تراس الشرقية وأسكنوا فيها المسلمين اللاجئين القادمين من البلقان. وفي ربيع عام ١٩١٤ كانت الحرب متوقعة بين تركيا واليونان مثلما كانت متوقعة بين صربيا والنمسا، عندما اغتيل الأرشيدوق فرانسوا فرديناند في ٢٨ حزيران في سيراييڤو. أعلنت النمسا-المجر الحرب ضد صربيا واستنفرت روسيا وانفجرت الحرب العالمية في ٢ آب.

لزمت رومانيا واليونان الحياد، الأولى بسبب ضعفها أمام النمسا التي تمتلك خط الكاربات، والثانية بسبب ميول الملك قسطنطين إلى جانب الألمان، فكان بحوزة بلغاريا الوضع الأمثل. لقد وقع اتفاق سري في ٤ آب بين الممالك الوسطى وتركيا ولكنها لا تملك أي اتصال أرضي بينها، وقاومت صربيا النمساويين.

قرر الانكليز في كانون الثاني ١٩١٥ القيام بعملية بحرية ليحتلوا الدردنيل وأشركوا فيها فرنسا فاذا لم تجبر المعركة تركيا على الاستسلام استطاعت على الأقل أن تخيف بلغاريا. ووعد الحلفاء في الوقت نفسه اليونان باسمرن ومقاطعتها شريطة أن تترك لبلغاريا مقدونيا الشرقية (كاڤالا) ومقاطعتها كثمن

لدخولها الحرب. فقبل رئيس الوزراء ڤينيزيلوس ولكن الملك رفض. ورفضت روسيا التي تفكر بأن تحتفظ بالقسطنطينية والمضائق لها وحدها، اقترح الانكليز باشتراك اليونان بعملية الدردنيل.

فشلت العملية البحرية ومعها محاولة انزال، وانسحب الحلفاء في تشرين الأول ١٩١٥ إلى سالونيك. ودخلت بلغاريا بعد أن تلقت كهدية، الممتلكات التركية في القرب من ماريتزا، الحرب إلى جانب الممالك الوسطى. وسحقت صربيا بين نارين وسقطت رومانيا في العام التالي واستقر محور برلين-استنبول عبر البلقان.

مكافأة الوفاء: معاهدات سان جرمان ١٩١٩ وسيبر ١٩٢٠ (خريطة رقم ١٣)

تحول الوضع لصالح الحلفاء في البلقان بفضل اليونان ورجلها ڤينزيلوس. لقد قام هذا الرجل بثورة ضد الملك، وشكل حكومة مؤقتة في سالونيك حيث جمع بقايا جيش الدردنيل. واحتلت أساطيل الحلفاء في حزيران ١٩١٧ أثينا وأسقطت الملك. ودخل اليونان بزعامة ڤينزيلوس في حرب ضد الممالك الوسطى. فبدأت الجيوش الحليفة تقدمها من سالونيك وعلى طول وادي فاردار لتجتاح مقدونيا. فاستسلمت بلغاريا أولاً في ٢٦ أيلول عام ١٩١٨ وكسر المحور، وتبعته تركيا في ٣٠ تشرين الأول. وانهارت الامبراطورية النمساوية المجرية في ٤ تشرين الثاني.

حان الوقت للدول البلقانية التي بقيت وفيّةً مع الحلفاء لكي تأخذ بثأرها فأصبحت مساحة صربيا «الشهيدة» والتي تضاعفت عام ١٩١٣، ثلاثة أضعاف بعدما ضمت البوسنة والهرسك وفوديودين في شمال الدانوب وسلافونيا في شمال الساڤ ودلماسيا على الأدرياتيك وكرواتيا مع زغريب (سابقاً اغرام) وسلوڤينيا مع لجويلجانا (ليباخ سابقاً). وابتلعت الجبل الأسود واستعادت من

بلغاريا مقاطعة ستروميتزا المقدونية. وأصبحت مملكة الصرب والكروات والسلوفين. فكانت بعد اعتراف الحلفاء بها مفضلة على ايطاليا. فأحدث ذلك التوسع خلافات حول فيوم (ريجيكا) وتريست التي احتفظت بهما ايطاليا .

إن مصير رومانيا معقد أكثر. لقد كانت محمية ألمانية منذ ١٩١٦. واحتلت بفضل حاميها الجديد، بيسرابيا في كانون الثاني ١٩١٨ بعد سقوط روسيا ولكنها أجبرت على التنازل عن دوبرودجا البلغارية. وقد حظيت باهتمام الحلفاء بعد الهدنة بفضل زعيمها براثيانو، ڤينزيلوس الرومان وتعهدت بسحق ثورة بيلاكون من المجر فاحتلت ترانسيلفانيا في ربيع ١٩١٩ ثم احتفظت بيسيرابيا وترانسيلڤانيا وبانات وبوكوڤين وعادت إلى حدودها عام ١٩١٣ مع بلغاريا .

اتجهت مطامع اليونان إلى القسطنطينية وأزمير. لقد استردت من بلغاريا تراس الغربية فأغلقت منفذ هذا البلد إلى بحر إيجة واحتلت تراس الشرقية التركية حتى أبواب القسطنطينية وبقيت مقاطعة المضائق تحت إشراف الحلفاء مع سيادة اسمية للسلطان. ومنحتها معاهدة سيڤر أزمير وضواحيها التي تحتلها جيوشها منذ عام ١٩١٩ عندما تابعت تقدمها إلى داخل الأناضول لتسحق الحركة الوطنية التركية التي يرأسها مصطفى كمال.

- ولادة الجمهورية التركية: معاهدة لوزان ١٩٢٣ (خريطة رقم -١٣-)

اكتشف اليونان لنفسه بتوقيع معاهدة سيڤر رسالة أسيوية ودور شرطي للغرب، ولكن بدا ذلك الدور أكبر من قدراته، وأبدى نظام البولشيفيك الذي تخلص مع كولتشاك من المحاولة الواسعة النطاق ضد الثورة، اهتماماً كبيراً للحركة الوطنية التركية. وتحولت القوى كلها لقلب النظام السوڤييتي، نستثني منها الهجوم البولوني فقط فتوجهت نحوالقرم أو عبر القوقاس وعبر البحر الأسود الذي كانت تسيطرعليه القسطنطينية والمضائق، ولقد اضمحل حلم

امتلاك هذا المكان الاستراتيجي الهام، الذي كاد أن يتحقق أثناء الحرب الكبرى وتبين أنه من الأفضل أن تسيطر على المضائق دولة تركية مستقلة ومعادية للغرب. ولم تكن موسكو مقتنعة بفكرة سيطرة دولة تركية ولكنها قدمت عوناً كبيراً من السلاح والمال للحركة الوطنية التركية وطالبت بأن تكون لتركيا السيطرة التامة على المضائق.

وجد ڤينزيلوس الذي دخل إلى أعماق أراضي الأناضول أن الشعب اليوناني لا يدعمه حق الدعم في تشرين الثاني عام ١٩٢٠، ولم تغير عودة الملك قسطنطين شيئاً كبيراً. لقد استمرت بريطانيا العظمى بضغطها على اليونان، منتظرة أن تحل مسألة انتدابها على ما بين النهرين ولكي تستولي على بترول الموصل الذي تطالب به تركيا. وتخلصت فرنسا من احتلال كيليكيا وتصالحت مع الحركة الكمالية وبدأت تقدم لها عوناً كبيراً.

كانت النتيجة متوقعة بعد توقف التقدم اليوناني في أيلول عام ١٩٢١ ولكن ما كان يعتبر انسحاباً بمفاوضات، تحول بعد عام إلى مأساة ولقد دفع اليونان وسكان آسيا الصغرى اليونانيين ثمن سياسة انكلترا في الشرق الأوسط. وبعد أن طُرد الجيش اليوناني بقوة من الأناضول في أيلول عام ١٩٢٢ أجبر على طلب هدنة، وأخلى تراس الشرقية في تشرين الأول.

رفض الأتراك الذين عادوا إلى لعبة التوازن بين الدول العظمى من مؤتمر لوزان، مخيبين آمال روسيا، بسط سلطتهم المطلقة على المضائق، وأصبحت هذه المضائق مجردة من السلاح يشرف عليها لجنة دولية. ووقعت تركيا واليونان اتفاق تبادل السكان الفريد من نوعه في المنطقة، استثني منه أتراك تراس الغربية وحدهم ويونانيو استنبول. واستغلت ألبانيا وضع اليونان الضعيف لتستعيد إيبير الشمالية.

- البلقان في الحرب العالمية الثانية (خريطة رقم -١٤-)

ساد هدوء ظاهر في البلقان وأوروبا الوسطى بعد عام ١٩٢٣ وحاول جميع الأطراف منتصراً كان أو مهزوماً أن يتكيفوا بأراضيهم الجديدة ويترك لفترة ما الاهتمام بأراضي جيرانهم وضعفت المطالبة القومية. وسقطت الدول القومية الواحدة تلو الأخرى في الدكتاتورية بعد أن تأسست على بقايا الامبراطوريتين، ولم تستطع أن تحل قضاياها القومية التي عقدتها مسائل اجتماعية، وكان المجر وبلغاريا أول من سقط منذ عام ١٩٢٠ بينما ثبت نظام مصطفى كمال الشخصي. واستولى الملوك على السلطة في يوغسلافيا عام ١٩٢٩ وفي رومانيا عام ١٩٣٠ حيث لم يتم المزج بين المقاطعات العثمانية القديمة والممتلكات النمساوية القديمة. وأعلن أحمد زوغو زعيم اقطاعي نفسه ملكاً على ألبانيا إذ كان يحكمها منذ عام ١٩٢٥ وسقطت اليونان أخيراً تحت دكتاتورية الجنرال ميتاكساس ١٩٣٦.

أعطت إيطاليا الشرارة الأولى لأنها إحدى الدول التي خاب أملها في الحرب الأولى، فاحتلت في آذار ١٩٣٩ ألبانيا. وبعد أن سقطت فرنسا حامية رومانيا، ضم الاتحاد السوڤييتي وقد أصبح قوياً بالميثاق الألماني الروسي في حزيران ١٩٤٠، بوكوفين في شمال بروت وبيسارابيا. واستعادت المجر في آب جزءاً من ترانسلڤانيا.

هاجمت إيطاليا في تشرين الأول عام ١٩٤٠ اليونان من الحدود الألبانية، وردت اليونان الهجوم في البدء واحتلت إيبير الشمال. ولكن دخلت القوى النازية المدمرة البلقان، في آذار ونيسان عام ١٩٤١. وضمت ايطاليا سلوڤينا الشمالية واحتل المجر فويوفودين. واحتلت إيطاليا ما تبقى من سلوڤينا والشواطئ الدلماتية وساعدت ألبانيا في ضم كوسوڤو. وضمت بلغاريا التي تلعب دور المحور، مقدونيا اليوغسلافية وتراس اليونانية وجنوب دوبرودجا. وأصبحت أخيراً كرواتيا

دولة مستقلة.

أعاد سقوط المحور الأمور إلى طبيعتها، فاحتفظ الاتحاد السوفييتي بـ بوكوفين الشمالية وبيسارابيا بينما احتفظت بلغاريا بجنوب دوبرودجا وبعد أن أعيد تكوين يوغسلافيا احتلت استريا ما عدا تريست وتنازلت إيطاليا عن دوديكانيزلليونان.

البلقان بعد الحرب (خريطة رقم -٤٥)

برهن الوضع أثناء الحرب العالمية الثانية بوضوح أنه عندما تطرح مسألة الحدود القومية يطرح معها كافة العناصر الملازمة لها فتسيء الأمور كلها، لقد أوقعت الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها من ضحايا أكثر بكثير من حروب البلقان والحرب العالمية الأولى فكانت ضحايا المقاومة النازية كثيرة وخاصة ضحايا الصراعات الداخلية بين الصرب والكروات وضحايا الحرب الأهلية اليونانية ولقد استمرت تلك الصراعات حتى عام ١٩٤٩ ومنذ ذلك التاريخ جُمدت المعسكرات في البلقان. ونقلت بريطانيا العظمى دور حامية اليونان الذي احتفظت به منذ البدء، إلى الولايات المتحدة التي أدخلت بدورها في فلك نفوذها تركيا، البلد الوحيد الذي استطاع أن يجتاز العاصفة بسهولة واستفاد الحليفان الجديدان من مشروع ماريشال منذ ١٩٤٧ واشتركا في حلف الناتو (NATO) منذ عام (١٩٥١-١٩٥٢). ولقد وجد الاتحاد السوفييتي الفرص التي خسرتها روسيا قبل قرن. فسيطر على رومانيا وبلغاريا ولم تكن بلغاريا تمتلك منفذاً إلى البحر، وبقي البلدان البلقانيان اللذان يمتلكان سواحل الأدرياتيك معاديان للنفوذ السوفييتي رغم أنهما ينتميان للشيوعية. ويبدو واضحاً لو أن الروس استطاعوا استخدام القاعدة البحرية الألبانية باستمرار في فلورا لكان قد تغير توازن القوى في البحر المتوسط.

عادت ثانية بعد الحرب الباردة، عملية تعديل الحدود البلقانية فلم تكتمل عملية ترسيم حدود الدول القومية لأن الحرب جمدتها. وبدأت هذه العملية في يوغسلافيا لأنها البلد الوحيد الذي حاول تجربة دولة غير قومية. ولكن هنا أيضاً ليست القضايا المطروحة في الشمال هي نفسها مطروحة في الجنوب. إذ تزداد الأمور تعقيداً بقدر ما نقترب من عقدة البلقان الجغرافية السياسية «مقدونيا». إن الهوية القومية محددة في الشمال وبارزة، وإن المسألة المطروحة هي مسألة الحدود والأقليات: مسألة كرواتيا وأقليتها الصربية، والأقلية المجرية في ڤويڤودين، بينما يطرح في الجنوب مباشرة مسألة الهوية القومية، هوية مسلمي البوسنةوالهرسك أو هوية مقدونيا. أدى عدم تبلور هذه الهويةإلى جعل المطالبات الاقليمية المجاورة مشروعة: صربيون وكروات في البوسنة والهرسك. ونتج عنه فراغ جغرافي سياسي جاهز للتفجير مثل عدم اعتراف الدول الثلاثة المجاورة، صربيا وبلغاريا واليونان بهوية مقدونية خاصة.

وأضف إلى ذلك كله عملية التكوين القومي التي اعتبرها أصحاب العلاقة مجمدة أو غيرمكتملة كما هي الحال في وضع ألبانيا حيث تمتد المنطقة الألبانية المأهولة إلى ما بعد حدود الدولة الحالية في الغرب من مقدونيا وإلى كوسوڤو، ويطالب الصربيون بها وكانت رومانيا في الشمال الشرقي تفكر أن تنضم إلى ملداڤيا فإنها عملية معقدة جداً لأن الشمال (بيكوڤين) والجنوب (بيجاك) من مولداڤيا القديمة ملك أوكرانيا اليوم، بينما شرق مولدافيا الحالية (تراتنستري) مفصول عنها. وتمتد حدود المجر في الشمال إلى داخل منطقة التوسع التركي. هي أيضاً لم يكتمل تكوينها القومي لأن لها أقلية مجرية في ترانسيلڤانيا، وفي ڤويڤودين وسلوڤاكي، فيبدو واضحاً أن خريطة هذا الأطلس الصغيرالأتراك بحاجة إلى ترسيم.

٤-البلقان : حدود اليوم والأمس وغداً ؟

يستغرب السائح الذي فاجأه في جزيرة يونانية في شهر آب ١٩٩١ انقلاب موسكو (ويتكلم اليونانية قليلاً) ويريد أن يطلع على نشرة أخبار أثينا المتلفزة عندما لا يرى صور الصفحات الروسية بل صور عشرات من المهووسين يحاصرون بطريركية استنبول اليونانية ويشرح المذيع بتعليقات منذرة أن هذا العمل الخطير الذي لا تستطيع حتى الحكومة التركية أن تتجاهله، هوجواب على تعيين الحكومة اليونانية مفتي جديد لمسلمي تراس الغربية، ويحتج هؤلاء المهووسون على شرعيته. فيشعر سائحنا بنفسه أنه في كوكب آخر، كوكب البلقان.

قبل أن نتقدم أكثر علينا أن نعطي إيضاحاً حول استعمال نقاط الاتجاه في الجغرافية السياسية. عندما نضيف إلى اسم مقاطعة صفة تدل على الاتجاه الجغرافي شمال، شرق... يعني ذلك أنها موضوع مطالبة، لأنه يلمح على أن هذه المقاطعة التي قسم منها تحت سيطرة الآخرين، هي امتداد للقسم الرئيسي الذي نمتلك ويجب أن يعود إلينا يوماً ما «تراس الغربية» موجودة فقط بنظر الأتراك وتعني لهم تراس اليونانية نسبة لتراس التركية التي يسمونها فقط تراس خاصتهم. ولا يوجد بنظر اليونانيين إلا إيبير الشمال -جنوب ألبانيا- فلا وجود لإيبير الجنوب أبداً، وبنظر مقدوني سكوبيج يوجد مقدونيا الجنوب، مقدونيا اليونان التي بدورها لا تعترف إلا بمقدونيا واحدة، مقدونيتها. ليست هذه التسمية الدقيقة خاصة بالبلقان وحده، يصبح «تيرول الجنوب» بنظر طالبي الاستقلال إذا شوهدت من روما «أديج العالية». ونستطيع أن نفكر حول موضوع «بلاد الباسك الاسبانية» مقابل «بيرينه الأطلنطية».

مسألة تراس (خريطة رقم -١٦-)

تأوي محافظات تراس اليونانية الثلاث ما يقارب ١١٠٠٠٠ آلاف مسلماً. يعيش الثلثان منهم في محافظة الوسط، محافظة «رودهوب». وثلث أو ربع المجموع بوماك يتكلمون البلغارية وقد أسلموا، وتجهد الدول الثلاثة المجاورة أن تصنع لهم أجداداً لكي تضمهم قومياً. ويعتبرون الباقون أتراكاً لأنهم يعرفون بحالهم هكذا حتى ولو أن اليونان لا تعترف إلا بأقلية مسلمة .

إن هذا الاعتراف نتيجة قرار دولي كانت قد وقعته مع تركيا، وأقرت أيضاً معاهدة لوزان بعد أن أنهت الحرب اليونانية التركية في ٢٤ تموز عام ١٩٢٣، اعتراف المجموعة الدولية بالدولة التركية. ويشبه وضع أتراك تراس في هذه المعاهدة أحد مصراعي نافذة. لقد حصل تنازل متبادل بين تركيا واليونان ، فيخص المصراع الأول يونان استنبول إذ تبادل البلدان في الحقيقة، باتفاق وقع في كانون الثاني ١٩٢٣ على هامش مؤتمر لوزان، أقليتهما اليونانية والتركية، التي تألمت كثيراً أثناء الحرب في البلقان وأثناء الحملة اليونانية في آسيا الصغرى. وأعفيت جماعة تراس وجماعة استنبول من هذا التبادل بفضل اتفاق سمح بمواجهة مطلبين : المطالبة باستفتاء في تراس الغربية حيث يشكل المسلمون الأكثرية، والرغبة بطرد البطريركية اليونانية من استنبول. سهّل التوازن الحسابي الحل للمجموعتين إذ تعد كل مجموعة ١٢٠٠٠٠ ألف نسمة .

لم يقاوم هذا التوازن الزمن. لقد كانت جماعة استنبول اليونانية والمدنية، والقادرة على التحرك لأنها غنية، ضعيفة جداً أمام سياسة القمع التركية، إذ قد تابع الأتراك اهتمامهم في هذا المجال أكثر من اليونانيين. وكانت النتيجة الحاصلة كالتالي: لم يبق اليوم إلا ثلاثة آلاف يوناني في استنبول بينما بقي عدد الأتراك كما كان عام ١٩٢٣ في تراس اليونانية إذ قد عوضت نسبة الولادة العالية الهجرة إلى تركيا.

انشل التوازن لأن كل جماعة كانت رهينة تضمن بقاء المجموعةالأخرى، وتعقدت العلاقات التركية اليونانية تدريجياً بسبب نزاعات جديدة، ولا بد أن تتفجر الأزمة. فتشعر اليونان اليوم أنها مهددة من مطالبة قومية في تراس. ويضيف الأتراك إلى مطاليبهم ضد اليونانيين المعاملة السيئة التي يتحملها أبناء جنسهم. وتعاني العلاقات التركية البلغارية من القضايا المماثلة الخاصة بالأقلية التركية في هذا البلد. فنجم عنها تقارب يوناني بلغاري يعود إلى ما قبل سقوط النظام الشيوعي في بلغاريا. (قد أغضب ذلك الحلف الأطلسي). وترتبط المسائل الجغرافية التي تخص المنطقة أكثر بالعلاقات اليونانية البلغارية، رغم وجود مسألة قومية يونانية تركية في تراس.

كانت تراس بنظر اليونانيين المقيمين في معسكر المنتصرين في نهاية الحرب العالمية الأولى، الممر الذي يوصل إلى استنبول. وقد أعطت معاهدة سيفر التي رسخت انهدام الامبراطورية العثمانية، إلى اليونان، جنوب تراس حتى البحر الأسود، فأوصلتها إلى أبواب العاصمة العثمانية. فاعتبر الأتراك ذلك تجاوزاً لا يحتمل. وحرم البلغار من حلمهم القديم، حصولهم على منفذ إلى البحار الدافئة، إلى ما وراء مدخل المضائق. وإذا ما كانت الارتباطات الروسية البلغارية دائماً متينة أليس لأنها كانت تشترك في الحلم نفسه، إذ كان الروس يأملون تحقيقه بواسطة بلغاريا. لقدكانت مسألة تراس قبل كل شيء جغرافية سياسية وكانت القضية القومية تابعة لها غالباً.

كانت مقاطعة أدرين العثمانية (اندرينوبل) مصدر نكبة لتراس تاريخياً. يشكل المسلمون فيها عام ١٨٧٠، ٣٧٪ من مجموع السكان، ولكنهم أقل عدداً في تراس التركية الحالية حيث يسيطر العنصر اليوناني. وكانت المقاطعة الوحيدة التي فيها يشكلون أكثرية عالية (٧٦٪) مقاطعة «غومولسين»، محافظة كوموتيني اليونانية الحالية. وأصبحت الأقلية التركية فيها الأقوى. ويعود ذلك إلى خصائص الاستعمار العثماني في البلقان في القرن الرابع عشر والخامس عشر، ويبرر ذلك المطالبات اليونانية في تراس الشرقية والمطالبات التركية في تراس الغربية.

أوصلت رغبة روسيا بالنزول باتجاه البحر المتوسط عبر بلاد سلافية وسيطة إلى الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٧-١٨٧٨ . وعندما وصل الروس إلى أبواب استنبول فرضوا بمعاهدة سان ستيفانو «بلغاريا الكبرى». واحتلت بلغاريا كل مقدونيا اليوغسلافيةواليونانية الحالية مع تراس الشمالية -تراس البلغارية الحالية- وتركت للأتراك تراس الغربية والشرقية الحالية. امتاز هذا الوضع بأن قدم لبلغاريا -ولحاميتها روسيا- المرفأين الرئيسيين على الشاطئ الشمالي لبحر إيجة سالونيك وكافالا، لقد كان شاطئ إيجة في تراس محروماً من المرافيء.

ألغي هذا المشروع العظيم في العام التالي في مؤتمر برلين. لقد فقدت بلغاريا مقدونيا وتراس معاً. وتحول شمال مقاطعة أدرين إلى مقاطعة مستقلة تحت اسم روميلي الشرقية. لكن ضمتها بلغاريا عام ١٨٨٥ وسبب تقسيم تراس الأول، وبقي بحر إيجة بعيداً عن البلغار، ولكن ستصلها عام ١٩١٢ أثناء حرب البلقان الأولى. وبما أن اليونانيين احتلوا مقدونيا ومرافئها كان على بلغاريا أن ترضى بتراس التي احتلتها في مرحلة أولى عام ١٩١٢. وعندما جابه الصربيون واليونانيون والرومانيون، البلغاريين على أثر خلافهم حول تقسيم الغنائم العثمانية أثناء الحرب البلقانية الثانية في حزيران – تموز ١٩١٣، استغل الأتراك الفرصة لكي يستعيدوا تراس الشرقية، ودفعوا بقوى غير نظامية لتحتل تراس الغربية. وبعد ثلاثة أيام من التنازل عن تراس الغربية لبلغاريا بمعاهدة القسطنطينية في ٢٩ أيلول ١٩١٣، أعلن أتراك هذه المنطقة حكومة مستقلة في تراس الغربية بتآمر مع اليونان التي أعطتهم مرفأ تراس «ديديغات» (الكسندروبوليس الحالية) مدينة جديدة أسست قبل بضع سنوات. واختفت تلك الحكومة التي توصلت أن تصدر طوابع بريدية وصحيفة (الاندباندان-المستقل) بعد شهر من إعلانها إ ذ استعاد البلغار سيطرتهم عليها.

لم يدم الاحتلال أكثر من خمس سنوات. بعد أن عُزلت بلغاريا على الساحة الدبلوماسية من قبل حلفائها القدماء الذين يحظون برضى الحلفاء، وقعت في أحضان

ألمانيا وأصبحت حليفة تركيا في الحرب العالمية الأولى. وقبلت تركيا أن تتخلى لها في معاهدة صوفيا في ٦ أيلول ١٩١٥ عن قسم صغير من المقاطعة التي لا تزال تمتلكها على ضفاف «الماريتزا» الغربية.

عندما طلبت بلغاريا الهدنة في أيلول ١٩١٨ كان الحلفاء يحتلون تراس الغربية. وتردد مؤتمر السلام طويلاً حول مصيرها، وفكر عدد كبير من المبعوثين وخاصة الأمريكان بأنه يجب أن يترك لبلغاريا منفذاً إلى بحر إيجة لتلافي مداخلاتها السيئة في المستقبل. وتركت معاهدة «نولي» في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩ بين الحلفاء وبلغاريا، المسألة معلقة وقد أحدثت مقاطعة احتلال سميت «تراس الحلفاء» بقيادة الجنرال الفرنسي شاربي. كانت اليونان تحتاج لمر تراس لكي تحقق مخططاتها باتجاه القسطنطينية وكان الحلفاء بحاجة إلى اليونان لإلزام الأتراك على قبول معاهدة سيڤر. فمنح مؤتمر سان ريمون الذي كان يحضّر المعاهدة المذكورة، تراس الغربية لليونان مقابل تعهدها بأن تؤمن لبلغاريا منفذاً إلى البحر.

ليس مدهشاً أن يكون الوعد الأساسي الذي قطعته ألمانيا على نفسها لبلغاريا لتجذبها إلى صفوفها عام ١٩٤٠. إعطائها منفذاً إلى بحر إيجة، وعندما احتلت اليونان في نيسان ١٩٤١، حصلت بلغاريا ليس على تراس الغربية فقط بل أيضاً على مقدونيا الشرقية مع مرفأ كاڤالا.

أعيدت تلك المقاطعات إلى اليونان بعد الحرب ولكن وجد البلدان نفسيهما في معسكرين عدوين: الحلف الأطلسي وحلف وارسو. وكانت المنطقة الضعيفة في الجانب الجنوبي الشرقي للحلف الأطلسي مكونة من مقاطعة تراس إذ يسهل اجتيازها في حال خلاف بين القوى المتعادية. فكان على القوات التركية واليونانية متعاونة أن تؤمن حمايتها. وتشكلت بعد قبول هذين البلدين في الحلف الأطلسي عام ١٩٥٢ إدارة عليا مشتركة في سالونيك لحماية شريط منطقة تراس. وعندما تأزمت القضية القبرصية عام ١٩٥٥، أصبح خطر منطقة تراس محتمل، إذ يلحق الضرر بالحلف الأطلسي.

ولكن أثناء الحرب الباردة بقي الخطر الشيوعي مرتبطاً في الرأي اليوناني بالخطر البلغاري، وليس الخطر الشيوعي ضد اليونان. عن طريق بلغاريا إلا تحول دون أهمية لمطلب بلغاري تدعمه دائماً روسيا وانتظرت الحكومة الاشتراكية في أثينا حتى أواسط الثمانينات لكي تقدم شعار «الخطر قادماً من الشرق» على شعار «الخطر قادماً من الشمال». وتعتقد أن المطلب التركي القومي يستطيع أن يكون لُحمة تحالف يوناني بلغاري جديد وقد أبرز تغير النظام في بلغاريا منذ عام ١٩٨٩ ذلك الميل.

تحولت الحرب الباردة إلى حرب قوميات هنا مثل أي مكان آخر بعد ما كان غير ممكن إلا في إطار صراع كوكبي، وأصبح الصراع صراع مقاطعة يرتبط بموازين متنوعة يصعب ضبطها مثل قدرة المعتقدات القومية المذهلة على استخراج روايات قديمة أو مثل إشاعات التضليل أمام ظروف داخلية سيئة. فلا تستطيع العلاقات البلغارية اليونانية أن تتجاهل لأجل ذلك الصراع، مسألة تراس ومثلها مسألة مقدونيا.

المسألة المقدونية (خريطة رقم -١٧)

لنعد إلى سائحنا الذي ذكرناه في بداية هذا المقال، دعنا نزور الآن في متحف سالونيك الكنز العظيم المكتشف في قبر فيليب الثاني المقدوني (٣٨٢-٣٣٦ قبل المسيح) والد الاسكندر الأكبر. ينذهل سائحنا بدون شك أكثر إذا علِم أن الحكومة اليونانية مولت بسخاء حملات التنقيب، وفعلت ذلك لتبرهن على يونانية ملوك مقدونيا ضد مطالبة حكومة سكوبج. ويصعب علينا أن نصدق أن السلطات اليونانية (أو المقدونية) استطاعت لحظة أن تتصور أنه من الممكن وجود كتابات باللغة السريالية في مدفن فيليب الثاني. ولكن من المعروف في هذا الجدل القومي البدائي أنه عندما يقدم أحد الأطراف حججاً يصعب إثباتها - ينحدر سلاف الجنوب المتكلمون باللغة

السلافية مباشرة من أجداد مقدونيين- يجبر الطرف الآخر أن يقدم حججاً من المستوى نفسه.

عندما أعلنت مقدونيا اليوغسلافية في ١٠ أيلول ١٩٩١، استقلالها، صرحت اليونان أنها لا تعترف بدولة تحمل هذا الاسم، فيعني ذلك من جهة أنها تريد أن تبقى وحدها مالكة الاسم الرمز التاريخي (مقدونيا) ومن جهة أخرى أنها تستطيع في الوقت الراهن أن تعترف بدولة تحتفظ بالحدود نفسها ولكن ليس بالاسم نفسه حسب المبدأ القائل أن جاراً ضعيفاً أفضل دائماً من جار قوي. وأعلنت بلغاريا بالمقابل أنها تعترف بمقدونيا الجديدة، فكانت ردود الفعل تلك كافية لتعيد المسألة المقدونية إلى الازدهار.

ولدت هذه المسألة من تطابق قضية قومية اقليمية وقضية جغرافية سياسية خارج المقاطعة. فتتعلق الأولى بتقسيم المقاطعة الوسطى التي لا تمتلك الطابع القومي الذي يسمح لها بتحديد هوية واضحة حسب المقاييس القومية بين دول محاددة ثلاث (بلغاريا- اليونان- صربيا). وترتبط الثانية برغبة الدول الوسطى- امبراطورية النمسا المجر (التي تمتلك منذ ١٨٧٦ البوسنة والهرسك) وخلفها ألمانيا- بالسيطرة على ممر ڤاردار (الاكسيوس اليوناني) حتى سالونيك المرفأ الذي منه تستطيع بضائع أوروبا الوسطى أن تنافس في المقاطعة العثمانية والشرق أوسطية المنتجات البريطانية.

ترتبط المسألة العرقية باختلاط السكان أقل من ارتباطها بصعوبة تميزهم - ونتيجة لذلك المطالبة بهم - حسب الموازين العادية. أولاً الدين : إذا فصلنا المسلمين (مستثنين أقلية ناطقة بالألبانية) الذين يعتبرون أنفسهم أتراكاً وتركنا اليهود الذين لا يطالب بهم أحد يبقى جميع الأرثوذكس. ولكن هؤلاء الذين يكونون لب الخصومة. وإذا نظرنا إلى اللغة، ولكن أية لغة! اللغة التي نتعلمها في المدرسة التابعة لبطريركية القسطنطينية الأرثوذكسية وحيث المعلمون يونانيون، أو اللغة التي نتكلمها في المنزل، لهجات متنوعة نتيجة انقطاع طويل في التقليد الكتابي وبعيدة جداً عن اللغات الرسمية

التي تكونت ثانية في بلغراد وصوفيا وأثينا!

لكن ليس ذلك هو السبب ! فاذا كان الواقع الاجتماعي لا يطابق الموازين فوجب تبديله حتى يستطيع كل واحد أن يتعرف على جماعته. فأصبح ذلك التبديل أساس المسألة المقدونية. وقد بدأت العملية بمناسبة تكوين الدولة القومية البلغارية بمبادرة روسية. ولكن كيف نغرس ضميراً قومياً عند شعب كان محروماً من كل بنية سياسية ودينية واجتماعية، ومن كل ثقافة كتابية طيلة خمسة قرون إذا كان يرزح تحت سيطرة الدولة العثمانية وبطريركية القسطنطينية اليونانية ؟ فبدأت المبادرة الروسية باقامة سلطة دينية منفصلة. فنجم انشقاق عام ١٨٧٠. فتكونت سلطة دينية بلغارية، ومدارس مع معلمين بلغار، فأدت تلك العملية إلى إقامة إمارة بلغارية عام ١٨٧٧. لقد برمجت روسيا وموّلت ونفذت كل المراحل. وعندما فرضت بلغاريتها هذه على الأتراك ضمت إليها مقدونيا بكاملها. فلم ترضى بذلك امبراطورية النمسا- المجر التي قد احتلت البوسنة والهرسك، ورسخت رسالتها البلقانية، ولم تكن الدول الغربية هي أيضاً راضية، لقد أفزعتها المطامع الروسية. وأعيدت مقدونيا إلى الامبراطورية العثمانية في مؤتمر برلين عام ١٨٧٨.

كان ذلك «الأمر مؤجلاً» بنظر بلغاريا الجديدة. وعليها وهي تنتظر أن تربط أكبر عدد من الأشخاص إلى الكنيسة البلغارية بواسطة التعليم لكي تستطيع أن تطالب بهم فيما بعد كبلغار. وعارضها اليونان عندما حاولت أن تحفظ رعايا البطريركية. وفعلت مثلها صربيا التي كانت تتألم من حرمانها من سلطة دينية صربية في أرض عثمانية في أواخر القرن، لأن الكنيسة تأتي بالمدرسة، والمدرسة تثبت اللغة، الطابع الأساسي في الهوية القومية. فأسس البلغار منذ عام ١٨٨٤ مؤسسة «سيريل وميتود» وتبعهم الصربيون بعد عامين فأسسوا مؤسسة «سان سافا». وأسس اليونانيون عام ١٨٨٩ «الايتنيكي ايتيرا».

ولكن لا تكفي الدعاية وحدها حتى ولو استخدمت المنح الدراسية، لقد كان من

الضروري استخدام التوبيخ والارهاب لكي تجبر قرى بكاملها على أن تصبح تابعة للبطريركية أو «الاكسارخوس» (الرئيس الديني المحلي). وتأسس التنظيم الثوري المقدوني الداخلي عام ١٨٩٣، وكان شعاره «مقدونيا للمقدونيين» فإن ذلك الشعار عطاء بلغاري واضح، ولكنه يسمح لنا أن نشعر بتقارب المقدونيين أي السكان المسيحيين في مقدونيا العثمانية الذين لا يعرفون أنفسهم كيونانيين أو صربيين، مع البلغار. إنه تقارب قومي ولغوي.

أثار ظهور هوية مقدونية اهتمام الدول الوسطى، لأنها ليست إلا مقدونيا مستقلة عن البلاد الثلاث المحاددة لها، ولكنها تابعة للنمسا، وتستطيع أن تؤمن ممر ڤاردار نحو سالونيك .فلجأ الجغرافيون الألمان إلى التلاعب بالأرقام الاحصائية لأنها السلاح القومي في الصراعات العرفية حسبما توضح اللوحة التالية:

قوميات	إحصائيات صربية (١٨٨٩)	إحصائيات بلغارية (١٩٠٠)	إحصائيات يونانية x (١٩٠٤)	إحصائيات ألمانية (١٩٠٥)	إحصائيات تركية (١٩٠٦)
أتراك	٢٣١٠٠٠	٤٩٩٢٠٠	٦٣٤٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	١١٤٥٠٠٠ xxx
ألبان	١٦٥٠٠٠	١٢٨٧٠٠	—	٣٠٠٠٠٠	
بلغار	٥٧٦٠٠	١١٨١٠٠٠	٣٣٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠ xx	٦٢٦٠٠٠
صربيين	٢٠٤٨٠٠٠	٧٠٠	—		
يونان	٢٠١١٠٠	٢٢٨٧٠٠	٦٥٢٧٠٠	٢٠٠٠٠٠	٦٢٣٠٠٠
فلاك	٦٩٦٠٠	٨٠٧٠٠	٢٥١٠٠	١٠٠٠٠٠	
يهود	٦٤٦٠٠	٦٧٨٠٠	٥٣١٠٠		
تسيغان	٢٨٧٠٠	٥٤٥٠٠	٨٩٠٠		
مختلف	٣٥٠٠	١٦٥٠٠	١٨٦٠٠		
مجموع	٢٨٧٠٠٠	٢٢٥٨٠٠٠	١٧٢٤٠٠٠		

ملاحظات x بدون كوسوفو xxx مسلمون
xx مقدونيون سلاف.

يبدو أن هذه اللوحة تبرر شيء واحد وهو ادخال كلمة مقدوني إلى مكاتب الدوائر الأوروبية ويكشف عدم تناسب الأرقام الواضح، دوافع الأطراف كلها، فإن جميع المسيحيون الذين لا يتكلمون اليونانية هم بنظر البلغار «بلغار». ولا يكتفي اليونانيون باعتبار جميع التابعين للبطريركية يونانيين، بل يضيفون إليهم رعايا السلطات المحدثة، ولكن هناك مجموعة يصعب تصنيفها فاضطروا لكي يصغروا مجموع عدد السكان إلى تصغير عدد أفراد الفئات الأخرى ويعتبر كل من يتكلم اللغة السلافية سلافياً بنظر السلافيين بما فيهم المسلمون. وتتفق هذه الدول الثلاث على تخفيض عدد الأتراك لكي يظهروا لأوروبا أنه ليس هناك مبرر لإبقاء هذه المقاطعة خاضعة للسلطة العثمانية. وتضخم الاحصائيات التركية للغاية نفسها، عدد المسلمين. ولقد سرّ الألمان من اكتشافهم قومية مقدونية.

يسمح لنا تطابق الأرقام إبراز بعض الميول، نسبة للملاحظات السابقة، يجب أن يكوّن النصف من أصل ٦٠٠٠٠٠ من رعايا السلطة (موالين لبلغاريا) الذين أحصتهم السلطة العثمانية (والمعترف بهم كبلغار من قبل الاحصائية اليونانية) «النواة الأصلية» لأنهم يمتلكون الحس القومي المقدوني أو البلغاري بينما النصف الآخر لا يزال يكون ذلك الحس بارادته أو بالقوة. ويمتلك مئتي ألف (٢٠٠٠٠٠) من التابعين للبطريركية (الموالون لليونان) لغة وثقافة يونانية (لقد قدم البلغار الأرقام) بينما يرتبط ٤٠٠٠٠٠ ألف بمؤسسات دينية وثقافية يونانية، يجب أن نضيف إليهم مئتي ألف ألباني بأغلبية مسلمة ولكنهم يعرفون بلغتهم، وربما سبعين ألف من الفالاك (يسمون أيضاً ارومان أو كوتزوفالاك) يميزون أيضاً بلغتهم وتطالب بهم رومانيا أما الصربيون فإنهم غير مرتبطين بالأرض لأنهم لا يملكون بنية سلطة كنسية خاصة بهم يعترف بها العثمانيون وتظهر الاحصائيات المقدونية على العكس كمشروع قومي أكثر من اثبات حالة.

يحاول التنظيم الثوري المقدوني أن يبدأ العمل حسب مخطط اختبر سابقاً في

أرض عثمانية. فاندلعت ثورة غير محضرة جيداً وكانت موجهة ضد السكان المسلمين المدنيين أكثر من أن تكون ضد السلطات العثمانية. وكان هدفها أن تحدث سحقاً عنيفاً مضاداً، لتجذب عطف الرأي العالمي الغربي وتحمل الدول على التدخل. وكانت تلك هي المسرحية البلغارية عام ١٨٧٦ (وقد فشلت تلك الطريقة في أرمينيا عام ١٨٩٤) وتكررت في مقدونيا ١٩٠٣. فلم ينتج عنها إلا تدويل القضية، وقد كانت تتشكل الأحلاف بهدف الحرب العالمية الأولى وتتوضح وجهات النظر. وكانت وجهات نظر النمساويين والبلغاريين متفقة حول مقدونيا مستقلة أو تتمتع بحكم ذاتي، ويأمل كل واحد أن يسيطر عليها. وكانت فرنسا وبريطانيا العظمى وتنضم إليهما روسيا تسعى لكي لا تصبح مقدونيا محوراً نمساوياً. فتبين أنه الأفضل في البدء أن تبقى تحت سيطرة عثمانية. ولكن عندما أصبح ذلك مستحيلاً وخاصة عندما ظهر أن الامبراطورية العثمانية نفسها كانت بخطر أن تنحاز إلى جانب القوى الوسطى، فاختارت التقسيم. واندلعت هكذا الحروب البلقانية بتأييد من الحلفاء. ومتنت جهودهم تحالف البلقان الذي اعتبر مستحيلاً بهدف تقاسم غنائم العثمانيين في أوروبا.

جعل تقارب بلغاريا التدريجي مع الدول الوسطى والعداء المتنامي بين صربيا والنمسا، من مملكة صربيا، محمية الحلفاء. ونتيجة لحربي البلقان، احتلت صربيا فيما بعد شمال مقدونيا المنطقة التي تطمع بها بلغاريا. ولم يصلح تحالف بلغاريا مع الدول الوسطى أثناء الحرب العالمية الأمور أبداً. وبعد الحرب تم تعديل الحدود. فأعطي قضاء ستروميتزا لصربيا وزالت أهمية مقدونيا الجغرافية السياسية مع تقسيم الامبراطورية النمساوية المجرية وإقامة مملكة الصربيين والكروات والسلوفين التي تمتلك ساحل الأدرياتيك الشرقي وسميت مقدونيا صربيا الجنوبية. ولا نجد اسم مقدونيين في الاحصائيات اليوغسلافية.

أعادت الحرب العالمية النظر في كل شيء لأن هدف ألمانيا الأساسي في المنطقة هو تقسيم يوغسلافيا التي أسسها الحلفاء لتكون سداً أمام النفوذ الألماني

في البلقان. وفي هذا التقسيم استعادت بلغاريا مقدونيا . واتبعت سياسة الاعتراف بالقومية المقدونية التي تتعارض مع سياسة الاندماج الصربي بي الحربين. واهتم «تيتو» بالحكم الذاتي الذي منح بعد الحرب إلى مقدونيا في اطار الاتحاد اليوغسلافي، فحاول أن يضعف السلطة الصربية لأنه كان من المستحيل العودة إلى سياسة الماضي دون ردود فعل كبيرة... وقد فسر الجانب اليوناني هذا القرار في أجواء الحرب الباردة والحرب الأهلية في اليونان، كمطالبة قومية بمقدونيا اليونانية.

كان بالواقع حلم مقدونيا الكبرى مع سالونيك كمرفأ حيث يعيش أبناء الاسكندر الأكبر بنظر قادة سوكبج أداة تحول سهلة لخلافات الدول الاتحادية، ولم ترض اليونان من جانبها أبداً أن تعترف بوجود أقلية مقدونية فوق أرضها لأنه ترفض الاعتراف بأية قومية مقدونية. وطبقت نتيجة لذلك سياسة دمج كاملة للناطقين باللغة السلافية. وسيكشف المستقبل القريب درجة نجاحها.

مهمايكن، فإن مقدونيا قيد التكوين ولقد رفضت اليونان أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار بحجة أنها كيان مصطنع «مصطنع بكل أجزائه» فلا يكفي كنظام سياسي. مقابل هذا الموقف المتصلب هناك مواقف أكثر فعالية تشجع على تكوين صربيا الكبرى التي عندما تتدبر أمرها داخلياً ستقضي ثانية على المسألة المقدونية بكلفة قليلة لليونان. والسياسة الثالثة هي محاولة حل هذه القضية بالتعاون مع بلغاريا نظراً للعلاقات القائمة لكي تقاوم مطاليب الأقليات التركية في البلدين. ولكن لا يبدو الوضع المقدوني مناسباً لتقدم حوار يوناني بلغاري، لأن المواقف المبدئية متعارضة جداً. زد على ذلك فقد قامت تركيا بالاتصال بالمقدونيين، وما تخشاه اليونان هو عودة تركية إلى البلقان.

بادرت حكومة اليونان في نهاية أيلول إلى دعوة الصربيين والرومان والبلغار إلى المؤتمر. يعيدنا ذلك إلى عام ١٩١٢. لقد فشلت المبادرة بفضل ضغوط ألمانيا وقد أيدتها إيطاليا، إن همسات التاريخ تعتلي وتتضخم.

مسالة إيبير الشمال (خريطة رقم-١٨)

تمر بصفوف متراصة على طرقات ايبير متجهة نحو الجنوب، السيارات والقوافل الايطالية التي أنزلت في إيغو مينيتزا . وتطالب كتابات بالأزرق قد شوهتها الشمس، بحرية إيبير الشمال، بينما تسير مجموعات من الشباب بملابس فقيرة وبرتل أحادي بالاتجاه نفسه : إنهم ألبانيون يبحثون عن عمل.

وعندما وصلنا إلى مارغاريتي، شاهدنا منازل فخمة من الحجر مهجورة وسط حقول شاسعة من الزيتون ومئذنة وحيدة ترتفع في الوسط. وكان بعض الألبان يقومون بالحفريات تحت إشراف رجل فأخبرنا قائلاً: «لقد طلب مني العمدة أن أطعمهم، فاستغليت ذلك لأبني جدار المنزل.» وتابع حديثه شارحاً كيف على أثر الصراع عام ١٩٤٤ قد طردوا جميع الأتراك الذين كانوا يقطنون هذه البيوت الحجرية . وسألت : أتراك هنا؟ عام ١٩٤٤؟ فأجاب: «إنهم مسلمون تساميد».

بدأنا ندرك : أن إيبير الشمال هي اليوم مقاطعة ألبانية.«جيروكاستر» (ارغيروكاسترو) وكورسيه (كوريتسا) وتطالب بها اليونان ويطالب الألبان بمقاطعة «بساميريا» أي مقاطعة ايبير الحالية في اليونان. إنها مسألة قديمة ودائماً جاهزة للاشتعال. أثناء الانتفاضات الأخيرة لنظام انفيرهوكسا، اندفع اليمين اليوناني لقتل يونان ايبير الشمال، ولكن تدفق المهاجرين الألبان نحو إيطاليا حمل حكومة اليونان أن تكون حذرة جداً. واستقبل الألبان الذين استمروا باجتياز الحدود أفراداً وجماعات صغيرة في القرى والمدن واستخدموا في الأعمال الزراعية والبناء وفي الأعمال التي لا تتطلب مهارات.

لم يسبب الألبان الذين ثلاثة أرباعهم من المسلمين ويتميزون لغوياً، مسائل قومية مثل المقدونيين. ولأنهم مرتبكون في بنياتهم القبلية التي يرتبط رأسها بالسلطة العثمانية استمروا زمناً طويلاً أكثر من مسيحيي البلقان ليكونوا حركة قومية.

واهتمت امبراطورية النمسا-المجر بهم بعد احتلال البوسنة والهرسك لأن الألبان كانوا في طريقها نحو سالونيك في ولاية كوسوفو العثمانية في شمال مقدونيا. وقد ولدت هنا في بريزرين «الحركة الوطنية الألبانية» عام ١٨٧٨ وهنا أيضاً اندلعت أول ثورة ألبانية كبرى في ربيع ١٩١٢، فاتحة الحروب البلقانية.

عندما أعلن مجلس وطني ألباني في تشرين الثاني ١٩١٢ في فلوري (فالونة) اعتبر مؤامرة نمساوية وإيطالية لأنهما بلدان قد حرما في تقسيم البلقان الجديد. ولقد حمل غياب كل سلطة عثمانية بعد ايدرين، الدول العظمى إلى الاعتراف بمبدأ ألبانيا مستقلة ويجب أن ترسم لها حدودها الآن. وكانت تضم الحدود المقترحة في مؤتمر لندن والتي تقارب الحدود الحالية، النصف من أصل المليون والنصف الألبان الذين أحصوا في البلقان. وقد اعترض عليها رغم ذلك، في الشمال سكان الجبل الأسود الذين كانوا يحتلون مقاطعة شكودرا (سكوتاري) ، وفي الجنوب، اليونانيون.

لقد حاول علي باشا المشهور، والي جانينا، أن يؤسس دولة ألبانية في ايبير اليونانية الحالية ولكن في عام ١٨٧٥ نبه ايلزيه ريكلوس إلى التحول اليوناني السريع لهذه المقاطعة. وكان سبب ذلك تناقص السكان الألبان المسلمين ودمج متزايد للسكان الأرثوذكس بواسطة الطرق التربوية والدينية اليونانية الأرثوذكسية. واستمرت هذه الطريقة الأخيرة الموجهة إلى ٢٠٪ من السكان الألبان الأرثوذكس بالتقدم نحو الشمال. وعندما أسس الوطنيون الألبان أول مدرسة ألبانية في كورسيه، حرمت الكنيسة الأرثوذكسية الأولاد الذين يذهبون إليها.

عندما دقت ساعة الحساب عام ١٩١٣، طالبت اليونان بالألبان الأرثوذكس، وحسم مؤتمر لندن الخلاف إذ أعطى مقاطعة جيروكاستر وهيرماس وكورسيه مع ما يقارب ٣٥٠٠٠٠ من الناطقين باليونانية إلى ألبانيا. بينما بقي ما يعادلهم من الناطقين بالألبانية السام (تساميد) في ايبير.

رفضت اليونان في البدء أن تقبل هذا الحل، ولكنها أُلزمت على الاشتراك

باتفاق فلورنسا الموقع في ١٧ تشرين الأول عام ١٩١٣ والذي ثبت الحدود اليونانية الألبانية. واستوحت الحكومة اليونانية من أساليب تركيا الفتاة في تراس الغربية البلغارية فسحبت قواتها تاركة في المكان رجال وأسلحة كافية لتأسس (حكومة مؤقتة) في ايبير الشمال بمساعدة قسم من السكان المحليين يرأسها وزير خارجية سابق يوناني.

فوضعت في هذه الأثناء الدول المحافظة على التقليد البلقاني ملكاً لألبانيا. كونت ألماني «ويهلم فون ڤيد» الذي قدم مع حاشيته إلى «دوريس» (دورازو) في ٧ آذار ١٩١٤. إنه شخص ضعيف جداً وفي وضع قريب من الهستريا. لقد أرسل قبل بضعة شهور من الحرب العالمية الأولى وفداً إلى كورفو ليفاوض حكومة ايبير الشمال المؤقتة. وقد وقع بالأحرف الأولى اتفاقاً يعترف بحكم ذاتي نسبي وبلغتين، فلم يرض به الوطنيون الألبان. ورأت حكومة دوريس نفسها مجبرة على تصديقها رغم ذلك في آخر حزيران ولكن قد ثار الفلاحون الألبان ضد «هويد» وبلاطه. فاستغلت اليونان الفوضى لترفض اتفاق كورفو وأخذ كل طرف يبحث عن أكثرية بالسلاح.

عندما اندلعت الحرب العالمية في آب عام ١٩١٤ أعلن «وايد» حياد ألبانيا. قطعت مملكة النمسا المجر التي تمول البلاط، الإعانات، وأبحر وايد في ٣ أيلول، وكانت تلك نهاية مملكة ألبانيا الأولى. واحتل الجيش اليوناني النظامي ايبير الشمال في تشرين الأول. وتبعهم الإيطاليون فنزلوا في فلورا في كانون الأول. وقد تمت هذه الاحتلالات بموافقة دول الحلفاء التي كانت تأمل أن تجذب هذين البلدين إلى حلفها. وانخرطت إيطاليا عندما أعلنت الحرب على النمسا عام ١٩١٥ بينما استمر الملك قسطنطين ملك اليونان، صهر القيصر، بحياد بدا مشبوهاً بنظر الحلفاء. وأتى زمن العقوبات ليخلف زمن الجزاء، لقد سمح للإيطاليين بأن يحتلوا مقاطعة جيروكاستر ومقاطعة جانينا في ايبير ونزلت القوات الفرنسية الشرقية في سالونيك بعد قضية الدردنيل وتقدمت نحو الشمال. وصل الجنرال سيراي إلى كورسيه في تشرين الأول

١٩١٦. وفي هذه الآونة كانت النمسا المجر تحتل شمال ألبانيا حتى دوريس وتحتل إيطاليا الجنوب وفرنسا كورسيه. وأعلن سيراي في كانون الأول كورسيه وضواحيها مقاطعة تتمتع بحكم ذاتي تحت حماية فرنسية. وفعل النمساويين في كانون الثاني ١٩١٦ مثل ذلك في شكودرا وتبعهم الإيطاليون في جيروكاستر في حزيران. وكان الحلفاء في هذا الوقت يحتلون أثينا قد طردوا الملك قسطنطين لصالح فينزيلوس. ودخلت اليونان الحرب إلى جانب الحلفاء وعاد فينزيلوس إلى مطالبته فيما يخص ايبيرالشمال ولم يتغير الوضع في المنطقة حتى نهاية الحرب.

يتعارض مخطط اليونان الكبير وأنانية إيطاليا المقدسة فيما يخص آسيا الصغرى وألبانيا . لقد وقع رؤساء وزراء البلدين في تموز عام ١٩١٩ تيتوني وفينزيلوس اتفاق سري تعترف إيطاليا بموجب البنود المتعلقة بألبانيا، بحقوق اليونان في كورسيه وجيروكاستر مقابل رضى اليونان بسيادة إيطاليا على فلوري وانتدابها على باقي البلاد. عندما أعاد الحلفاء النظر بهذه الاتفاقيات باعلانهم في ٩ كانون الأول ١٩١٩ اعترفوا بالمطاليب الإيطالية ولكنهم حدوا من مطاليب اليونان حول مقاطعة جيروكاستر مستثنين كورسيه. وفي أيار عام١٩٢٠ أخلت الجيوش الفرنسية كورسيه لصالح الحكومة الألبانية رغم محاولات اليونان لاستعادة المنطقة. وعندما هاجمت القوات الألبانية في الشهر التالي الإيطاليين قبل هؤلاء اخلاء جنوب البلاد. قُبلت ألبانيا في عصبة الأمم في كانون الأول عام ١٩٢٠ وصوتت فرنسا ضدها لكي تدعم المقترحات اليونانية الصربية. ولكن عودة الملك قسطنطين ونفي فينزيلوس جمدت كثيراً العلاقات اليونانية الفرنسية، وفي عام ١٩٢١ أعلن الحلفاء تأييدهم العودة إلى حدود ١٩١٣. وجعلت معارضة اليونان ويوغسلافيا القضية تتباطأ في الجمعية العمومية وفي بلاط لاهي ولم تحل إلا في آب ١٩٢٥. أخلت اليونان المقاطعات الأخيرة المختلف عليها حول كورسيه.

بعد أن احتل موسوليني ألبانيا عام ١٩٣٩ باتفاق مع يوغوسلافيا أصبح بطل

المطالبة القومية الألبانية فكان يعدها بكوسوفو وساميريا وايبير اليونانية. واعتبر المطلب الأخير حجة للهجوم ضد اليونان في ٢٨ تشرين الأول ١٩٤٠. وعندماطرد الجيش اليوناني الإيطاليين بعد بضعة أسابيع وجد نفسه يمتلك جيروكاستر وكورسيه. ورفض الطاغية اليوناني ميتاكساس أن يتفاوض مع زوغ ملك الألبان المنفي في لندن ومع المقاومة الألبانية. ولم يكن لدى اليونان شيء تطالب به ولكن عليها أن تبقى بما أنها وجدت.

بقيت اليونان هناك حتى شهر نيسان عندما اجتاح «ويهرماخت» اليونان بعد يوغوسلافيا وأصبح موسوليني حراً بتكوين ألبانيا الكبرى تحت سيادة إيطاليا فاحتلت الجيوش الألمانية بعد الاستسلام الإيطالي المنطقة حتى تشرين الثاني عام ١٩٤٤ إذ طردتها المقاومة الشيوعية التي نظمت من الجنود بالتعاون مع المقاومة اليونانية الموجودة في ايبير.

إن المقاومات في البلقان مزدوجة: شيوعية وملكية. كانت المقاومة الملكية المتورطة مع المحتل تحاول أن تستعيد نزاهتها مستميلة رضى الحلفاء ومتبنية القضايا الوطنية. وقضت المقاومة الشيوعية الألبانية منذ عام ١٩٤٤ على الملكيين ولكن قويت المقاومة الملكية في اليونان التابعة للجنرال زيرفاس عند عودة الملك إلى أثينا. فاستغلتها لترتب أمرها في ايبير. وأرسل حينذاك ٢٥٠٠٠ ألف سام «اليد العسكرية» إلى ألبانيا بحجة التعاون مع الألمان. واحتج النظام الألباني الجديد وقدم قواعد خلفية للجيوش الشيوعية أثناء الحرب الأهلية اليونانية، رفضت اليونان أن تنهي حالة الحرب مع ألبانيا. وعارضت قبولها في المحافل الدولية إذ أعادت مجدداً قضية ايبير الشمال. وساءت الأمور في نهاية الحرب الأهلية اليونانية (١٩٤٨-١٩٤٩) عندما دخلت القوى الحكومية إلى الأراضي الألبانية مستخدمين حقهم بالملاحقة ولم تنته حالة الحرب إلا في أواخر الثمانينات.

اعترى وسائل الاعلام في روما خوف في أوائل تموز ١٩٩١ كأنها حمة ثالثة من بقايا مرض استعماري قديم. لقد أعلنت سلوفينيا وكرواتيا استقلالهما فماذا سنقول منذ الآن زغريب-زاغابريا أو أغرام، ولجوبلجيان أو ليباخ؟ كان ذلك حديث الأمين العام للحلف الأطلسي في الصفحة الأولى فإنه يبرر اهتمام إيطاليا بجارتها لأنها البلد الوحيد في الحلف الأطلسي الذي يمتلك حدوداً مشتركة مع يوغوسلافيا.

لا أحد يدرك ما يجري في المنطقة. ها هي أوروبا تتوقف على نهر الساف، وبعد الساف بلقان شرقية قلقة: صربيون أرثوذكس (شيوعيون) وبوسنيون وألبان مسلمون وخلفهم مقدونيين، وما وراء ذلك...وها هم اليونانيون عضو في الحلف الأطلسي حتى يثبت العكس وزيادة على ذلك عضو في المجموعة الأوروبية إلا إذا كنا نريد أن نربطهم في قطار المجموعة بواسطة الطرق الحديدية في انكون وبرانديزي. اليونان: هل هي طرف البلقان أو امتداد لميزوجيرنو؟ فهل سيكون لأوروبا بموجب «معاهدة روما» حدود الامبراطورية الرومانية الغربية التي تنتهي في دلماسيا وليس ما وراءها إلا هرطقة ومؤامرات بيزنطية؟.

شاهدت اليونان وهي تنتظر بأمل يمزجه القلق. التاريخ الحاسم لعام ١٩٩٢، يرتسم ظل عام ١٩١٢ وانغلقت على نفسها بحركة آلية انتحارية في منعكسات عام ١٩١٢، إنه منعكس مزيج وتشنج قومي شديد وهجمة قومية عنيدة. هذا هو الواقع رغم التقلبات الكثيرة. فاليونان هو بلد الجنوب الشرقي من أوروبا. وقد تطورت كثيراً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً منذ عام ١٩١٢ وكان انتماؤها إلى المجموعة الأوروبية أقل مكاسبها. وإن مقدراتها الاقتصادية والثقافية وبنياتها التحتية أكبر من معطيات جيرانها. ويجب أن يعتبر اندلاع الصراع السياسي والاقتصادي في هذه الشروط عند جيرانها في الشمال هبة، مثلما أصبح تطور متشابه عند جوارها سبب فرح في

ألمانيا. فبدل من أن نبحث عن مقدونيين مزيفين وألبان حقيقيين ويونانيين مخيفين وأتراك مزيفين، أي بدل من أن نخيف الناس بعبارات دمج أو ابعاد وتغيير المنطقة ضمن هالة ربح أو خسارة، مقاطعات حسب التقليد البلقاني الكبير، فإن على المجتمع اليوناني الحالي أن يمتلك الوسائل لينظر حوله بمنظار علاقات وتبادل أسواق تجارية.

إن تقارباً مثل ذلك قادر وحده أن يخمد الصراعات القديمة، فمطلب منفذ إلى بحر إيجة من قبل بلغاريا ومقدونيا ينبغي أن يتم باتفاق ينظم التبادل الحرّ والتنقل المفيد للجميع بدلاً من اتباع طرق أخرى.

في الوقت الذي تسمح فيه العقول المفكرة جيداً بانتشار حرب دينية على القارة القديمة، تستطيع اليونان القومية بعظمة اسطورة ماضيها والتي توصلت أن تجعل أوروبا تقبل خلافها، أن تكون محور تهدئة ودمج للبلقان خوفاً من أن ترسل إلى الظلمات الخارجية من قبل أوروبا ممزقة وخائفة.

II الشرق الأوسط

ـ أقليات قومية ودينية في الشرق الأوسط

يتكون الشرق الأوسط الجغرافي السياسي من ثلاثة بلدان محيطية كبيرة: مصر، ايران، وتركيا. بلغ عدد سكان كل بلد من هذه البلدان ستين مليون نسمة في عام ١٩٩٣. ويضم كل بلد الأكثرية من القوميات الكبيرة في المنطقة: عرب وفرس وأتراك. ويتألف أيضاً من بلاد الهلال الخصيب في الوسط (العراق –فلسطين المحتلة– الأردن – سورية) ومن دول شبه الجزيرة العربية (العربية السعودية – البحرين– الإمارات العربية المتحدة– الكويت – عمان – قطر– اليمن). ومن المحتمل أن تدخل إليه الأحداث المستقبلية في إطار المسألة الجغرافية السياسية نفسها القفقاس، تمتلك هذه المنطقة مهد الحضارات الأولى للكتابة، التي تركت آثاراً عميقة في الانسانية. ومهد ثلاث ديانات موحدة، عمقاً تاريخياً يستطيع أن يغذي روايات متناقضة أكثر من أي مكان آخر في العالم.

ـ ثلاثة شعوب وديانة واحدة سائدة

إحدى الروايات الأكثر شيوعاً رواية الفردوس الأرضي الأصلي المسلوب بسبب تهاون الوارثين الجهلة واهمالهم. ويعتبر كل وارث خصمه مسؤولاً. إن الحضارات الكبيرة التي تأسست على أرض ذلك الفردوس في هذه المنطقة المروية والصغيرة انحصرت في المكان والزمان. واحاطتها دائماً صحارى حيث استمرت البداوة برغم من كل شيء، وهضاب حيث استطاعت أن تبقى حضارات عمرت طويلاً لأنها أقل إلزاماً. ويحيط بها جبال، ملجأ لشعوب أو ديانات مضطهدة. إذا استثنينا ما بين

النهرين ووادي النيل نجد فيها الصحارى الوسطى: صحراء إيران الكبيرة والصحراء العربية التي تربط صحراء النفوذ في الشمال بالربع الخالي في الجنوب وصحراء الأناضول المالحة التي صغرت اليوم بفضل الري. يحيط هذه الصحاري هضاب فارس وهمذان وأذربيجان مهد حضارة المديين والفرس في الغرب، وهضاب خراسان وسيستان في شرقي الصحراء الإيرانية، وهضاب نجد والحجاز واليمن مهد الوهابيين والاسلام ومهد حضارات عربية قبل الاسلام، والهضبة الأناضولية التي شاهدت حضارات تمر منذ العصر النيوليتي والحثيين وحتى الأتراك السلاجقة. ترتفع الجبال غالباً على طرف هضبة وتسيطر على ساحل صغير لبحر داخلي: جبال البورز في إيران التي حمت زمناً طويلاً شعوب المازيديران من الاسلام، والسلسلة التي تحاذي المتوسط من الأمانوس حتى تلال الجليل مارة بجبل النصيرية وجبل لبنان ملجأ الأقليات والهراطقة، الأرمن والنصيريين والعلويين والموارنة ودروز الشمال والجنوب. وحمت سلسلة البونتيك بين هضبة الأناضول والبحر الأسود زمناً طويلاً شعوباً من أصل يوناني أو جورجي. وحمت جبال عمان العباديين وكانت جبال اليمن ملجأ الإمامية الزيدية. وكانت أيضاً جبال طوروس وزغروس تفصل بين ثلاثة شعوب عرب وفرس وأتراك وجزء من شعب رابع بدون دولة الأكراد. وتربط جبال القفقاس بين بحرين تختبيء بين تضاريسها ما يقارب أربعين مجموعة قومية لغوية.

يبقى هذا التنوع في حالة الدفاع أمام إرادة وحدة جعلت من الشرق الأوسط الأرض المفضلة للامبراطوريات الكبيرة والديانات الموحدة. يسودها اليوم ديانة واحدة وثلاثة شعوب. الشعب الأول العرب من أصل سامي إنهم سكان المنطقة الأصليين. يكوّن العرب اثنتا عشرة دولة (١٢) من أصل الخمس عشرة دولة الموجودة فيه، سكانها عرب أو بأكثرية عربية مطلقة (العراق) وتعد مئة وأحد عشر مليون عربي. إذا أضفنا إليهم الناطقين بالعربية في إيران وتركيا وفلسطين نصل إلى مجموع مئة وثلاثة عشر مليون، منهم ٦٨ مليون في شرق السويس. نجد بالمقابل ٥٤ مليون من

الأتراك (خاصة في تركيا وإيران) والذين يصبحون واحد وستون مليون إذا أضفنا لهم أتراك القفقاس، ويكون ٢٨ مليوناً من الفرس مندمجين (لورس وبختياريس) نصف سكان إيران. ينتمي أربعة أخماس سكان المنطقة (١٩٥ مليون من أصل ٢٤٥ مليون) إلى القوميات الثلاث الأساسية. والآخرون أكراد يقارب عددهم ٢١ مليون منتشرين في بلاد أربعة، يتواجد أكثر من نصفهم في تركيا. ويتجمع أربعة ملايين من اليهود في فلسطين ونجد جاليات أرمنية (٥٠٠ ألف نسمة تسكن أغلبيتهم في سورية ولبنان)، وآشورية (١٥٠ ألف في العراق) ومليون من البالوتش في جنوب إيران الشرقي. ونجد أيضاً بين ثمانية ملايين أو عشرة ملايين من الأقباط – لكن هل هم أقلية قومية أو أقلية دينية؟

تنوع ديني.

هل التنوع ديني أكثر مما هو قومي؟ يشكل المسلمون ٩٢٪ من مجموع سكان المنطقة البالغ ٢٢٧ مليون مقابل ٥ر١٢٪ مسيحيين (الذين يتواجد ثلثيهم في مصر) ومقابل أربعة ملايين من اليهود، ولا يؤمن الجميع بذات الاسلام. يشكل السنّة الثلثين من مجموعات الاسلام الثلاث الكبيرة والمتنابذة، ويكوّن الشيعة الثلث الباقي. ثلثي الشيعة في إيران ويكّونون أكثر من نصف السكان في العراق وثلث سكان لبنان وستين بالمئة (٦٠٪) من سكان البحرين واليمن الشمالي. فإذا كان معظمهم بما فيهم شيعة إيران والعراق ولبنان والخليج، شيعة يؤمنون بالاثني عشر إمام، فشيعة اليمن زيديون في الوسط بين السنة والشيعة. ولا نجد من الفئة الثالثة في الاسلام والتي تشكل أقلية قليلة جداً منذ القديم، الخوارج في المنطقة إلا عبادي عمان وقد انتهت إمامتهم عام ١٩٥٥.

إن المسيحيين الأقل عدداً منقسمون أكثر وتنتمي مجموعاتهم تحت اسم

الكنائس الشرقية، وتنقسم إلى ثلاث مجموعات، تنتمي المجموعة الأولى إلى البطريركيات الأرثوذكسية: بطريركية القسطنطية، وبطريركية انطاكية (مركزها حلب) وبطريركية القدس وبطريركية الاسكندرية. ويعرفون باسم يونان أرثوذكس (أو ملكيين)، حتى ولو أن الجالية اليونانية اختفت اليوم، يكون العرب الأكثرية المطلقة لأنهم كانوا يعتبرون في العهد العثماني كجزء من «الملة» اليونانية، يعرفون استناداً إلى الدين الأرثوذكسي، ويتمتعون بفضل ذلك بمزايا كثيرة نسبة للمسيحيين الشرقيين الآخرين. كونوا في سورية ولبنان أو فلسطين حيث هم الأكثر عدداً، الطليعة المسيحية أثناء العهد العثماني. وقد دللتهم منذ الحرب العالمية الثانية بطريركية موسكو في إطار الحرب الباردة، وعددهم اليوم ٧٠٠ ألف نسمة. وتحتل المجموعة الثانية الأكثر عدداً والأكثر تنوعاً، الكنائس المنفصلة عن الكنيسة الأرثوذكسية أثناء الأزمات الدينية الكبيرة في القرن الرابع والخامس. أشهرها الكنيسة الأرمنية الغريغورية لدينا هنا ازدواجية، أقلية قومية وأقلية دينية -والكنيسة القبطية المصرية أكثر عدداً. أما الكنيسة النسطورية لا تضم إلا قسماً صغيراً من آشوريّ العراق (ما يقارب خمسة عشر ألف نسمة «١٥»)، بينما تعد الكنيسة السريانية الملقبة باليعقوبية من ١٥٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف. إنها تتراجع بسرعة من حيث العدد في الجنوب الشرقي من تركيا وبالتأكيد في شمال العراق وفي لبنان، ولاتزال ثابتة في سورية حيث يقيم بطريركها (دمشق). وتعد الكنيسة المارونية التي نستطيع أن نعتبرها الانتقال إلى المجموعة الثالثة (لأنها أسست في القرن السابع وترتبط بروما منذ القرن الثاني عشر) تاركين الهجرة الحديثة بسبب الحروب الأهلية، ٦٥٠ ألف عضو في لبنان.

وتتكون المجموعة الثالثة من الكنائس التي نستطيع أن نسميها بالوحدوية يكونها مؤمنون من كل الكنائس السابقة مرتبطين بروما. فلدينا إذاً: الكنيسة الملكية (أو اليونانية) ، الكاثوليكية وقد تأسست عام (١٩٢٧) وتضم ثلاثمائة ألف مؤمن في سورية ولبنان والأردن وفلسطين، الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية (١٧٤٢) لا تعد إلا

بضعة عشرة آلاف شخص في الشرق الأوسط، والكنيسة القبطية الكاثوليكية (١٧٩٥) تعد مئة ألف شخص، وتعد الكنيسة الكلدانية المنفصلة عام (١٥٥١) عن الكنيسة النسطورية ٢٥٠ ألف مؤمن في العراق، والكنيسة السريانية الكاثوليكية ارتبطت بروما عام ١٧٦٣ تعد مئة ألف مؤمن منتشرين في الشرق الأوسط. استفادت هذه الكنائس من الإرساليات ومن ثم من عهد الانتداب. وتغلبت الطليعة المسيحية الكاثوليكية المحلية غالباً على الأرثوذكس، والمثال الواضح الموارنة في لبنان.

لا ينتهي هذا التعداد التنوع الديني في المنطقة لأنها تترك جانباً المجموعات المنفصلة عن الديانة هذه أو الديانة الأخرى، حتى أنها طورت معتقداً مستقلاً استقلالاً تاماً. فمنها النصيريون، إنهم ينحدرون من الاسماعيلية، شيعة يؤمنون بالأئمة السبع، ولا يزالوا يتطورون نحو عبادة موحدة توفيقية لمذاهب عدة، ويقطنون جبل النصيريين أو جبل العلويين في سورية، ويكوّن وجودهم في الجيش نواة السلطة الحالية. يقدر عددهم ربما مع الشيعة الآخرين السوريين بـ ١٢٠ ألف؟. ومن هذه المجموعات أيضاً الدروز. ينحدرون من الاسماعيليين عبر الفاطميين ويؤلفون في لبنان طائفة مستقلة من مئتي ألف شخص وموجودون في سورية (٢٠٠ ألف في جبل الدروز) وفي فلسطين ٥٠ ألف. وتنحدر مجموعة أخرى من الديانة اليهودية والمسيحية ويسمون «بالمندبين» أو مسيحيي القديس (يوحنا المعمدان) ومجموعهم أربعون ألف شخص يعيشون في مستنقعات جنوب العراق. بقي بقايا ديانات أكثر قدماً: اليزيدية الذين يوفقون بين معتقدات منشقة من الزردشتية ومن النسطورية ومن اليهودية ويعيش منهم في شمال العراق ١٥٠ ألف وأربعون ألف في الجنوب الشرقي من تركيا وغالباً يختلطون مع الأكراد والزرداشت «البارسيس» ولا يزال يعيش خمسون ألف منهم في إيران.

٦-كيف رسمت الحدود الحالية في الشرق الأوسط.

كانت تجتاز الشرق الأوسط حتى أوائل القرن التاسع عشر حد واحدة فقط تمتد من البحر الأسود إلى الخليج العربي وتفصل بين الامبراطورية العثمانية والامبراطورية الإيرانية. وقد رسمتها حروب استمرت قروناً بين الدولتين وثبتتها عام ١٦٣٩ معاهدة قصر شيرين وترسخت عام ١٧٤٦ بعد الحروب التي تلت زوال السلالة الصفوية (Safevide) في بلاد الفرس. إنها تطابق تقريباً الحدود الإيرانية العراقية والحدود التركية الإيرانية الحالية، والقسم الشمالي من الحدود التركية السوفييتية. إنها أقدم حدود المنطقة بدون جدال حتى ولو أنها موضع خلاف عنيف.

كانت روسيا القيصرية تتقدم تدريجياً في أقصى الشمال بين الأراكس والبحر الأسود ونحو الجنوب الشرقي فاتحته المحور الأول لدخول قوة كبيرة نحو الشرق الأوسط. وبعد أن ابتلعت في أوائل القرن التاسع عشر الإمارات الجورجية التي كانت في السابق تحت سيطرة تركية أو إيرانية، حصلت عام ١٨٢٩ في معاهدة أندرينوبل على حدود مطابقة للحدود التركية السوفييتية الحالية. بينما فتحت معاهدة برلين ١٨٧٨ الثغرة أكبر بقليل إذ أعادت الحدود إلى أبواب أرضروم.

كانت الطرقات في جنوب الشرق الأوسط التي توصل إلى البحار الدافئة مطمعاً للدول الغربية التي كانت تؤمن التناوب في الاشراف على تجارة الهند: البرتغاليون في القرن السادس عشر والهولنديون في السابع عشر وأخيراً البريطانيون منذ القرن الثامن عشر. ودخلت نهائياً في نطاق النفوذ البريطاني عندما سلكت طرق الهند قناة السويس. وأصبحت مصر العدوة للأتراك منذ عام ١٨٣٣ في عهد محمد علي باشا وأبنائه تحت حماية بريطانيا .وظهرت حدود أخرى قديمة جداً قد أزيلت من الخريطة منذ أكثر من ثلاثة قرون في الشرق من سيناء بين غزة والعقبة. وضمت بريطانيا العظمى مصر رسمياً عام ١٩١٤.

حدد جيداً ظهور الدولتين المستعمرتين في القرن التاسع عشر الامبراطورية الروسية والامبراطورية البريطانية المخاطر في هذا الجزء من العالم الذي خصص لكي يكون من البلقان إلى أفغانستان دريئة لتقدم الامبراطوريتين المستعمرتين نحو الشرق وستنقسم المنطقة بكاملها تحت هذا المنظار إلى مناطق نفوذ محافظة على بنياتها السياسية الخاصة.

لا تكفي الخصومة الروسية البريطانية وحدها لتفسر عودة المطامع في الشرق الأوسط التي ظهرت منذ أوائل القرن العشرين ويجب أن نضيف إليها أولاً الدخول الألماني ومحاولاته في استعمار آسيا الصغرى وما بين النهرين. وثانياً عنصراً جديداً من داخل المنطقة «البترول. وبسبب محور برلين بغداد الذي تحقق بطريق سكة حديدية تربط البوسفور بالخليج العربي، سيطرة ألمانيا القوية على هذه المقاطعات حيث يعمل بحذر منذ قرن ساسة لندن وسان بيترسبورغ. وانتهت هذه المحاولة بتحالف روسي بريطاني الذي أعلن الحرب العالمية الأولى وكانت نتائجه قرار مبدئي بتقسيم هذه المنطقة بين الحلفاء. أما البترول فإنه الحبر الذي سيكتب به تاريخ الشرق الأوسط المعاصر.

الامتيازات البترولية الأولى في ما بين النهرين

لم يبق سراً أن الشرق الأوسط يمتلئ بترولاً. ولكن يجب أن يستخدم هذا البترول لشيء آخر غير تصنيع المراهم وإشعال المصابيح. وحصل ذلك عام ١٩١١ عندما وصل إلى سدة الحكم رجلان مقتنعان بأنه يجب التغلب على ألمانيا في البحر بعد تطوير الأسطول البريطاني وهما «وينستن تشرشل» والأميرال «فيشر». لقد أصبح البترول كمادة وقود مخصصة لدعم القوة البريطانية، عصب الحرب وقضية دولة.

اشتد الاهتمام بالبترول في الشرق الأوسط قبل ذلك بكثير. اعتبر مستقبله هاماً

جداً عام ١٨٨٨ حتى أن عبد الحميد الثاني، السلطان العثماني **اتخذ اجراءات** تهدف استملاك عائدات حقول البترول في ولايات الموصل وبغداد إذ وضعها ضمن الأملاك الخاصة للتاج. وقد حصلت في العام نفسه شركة السكك الحديدية الأناضولية التي أسسها البنك الألماني على أول موافقة لبناء طريق سكة حديدية باتجاه الخليج العربي وكان الاتفاق المجدد عام ١٩٠٣، يهدف هذه المرة طريق بغداد الحديدي نفسه ويتوقع أيضاً حقوق استثمار معادن على جانبي الخط الحديدي.

كانت الحكومة البريطانية عام ١٩٠١ تدعم بشدة مواطن انكليزي كان قد اغتنى في مناجم الذهب الاسترالية، ويدعى «وليم كنوكس دارسي» **بهدف أن يحصل** على امتياز بترولي من شاه إيران. وعندما استنفذ دارسي رأس ماله **في التنقيب** غير المجدي أقنعت القيادة البحرية عام ١٩٠٥ «البرما اويل كومباني» بأن تقدم له العون. وكانت النتيجة تأسيس شركة الزيوت الانكليزية الفارسية (A.P.O.C) (انكلو برسيان اويل كومباني) عام ١٩٠٧ مخصصة لتصبح (انكلو ايرانيان اويل كومباني) ثم بريتش بتروليوم (B.P) ، زهرة القوة البترولية البريطانية. وكان هدف هذه الاحداث هو معارضة دمج أخر حصل في العام نفسه، دمج شيل ترانسبورت وشركة ترادنغ كومباني، شركة انكليزية مختصة أصلاً في نقل الأصداف في البحار الدافئة، وشركة رويال دوتش بتروليوم كومباني (شركة البترول الملكية الألمانية) ذات جنسية نيرلندية والتي تستثمر البترول الأندنوسي. فيجعل توجه رويال دوتش الموالية لألمانيا والتي تمتلك ٦٠٪ من الشركة الجديدة بعد الدمج من (A.P.O.C) محمية وأداة السياسة البترولية للحكومة البريطانية.

كانت الأمور واقفة عند هذا الحد عندما أتى اكتشاف بترول مسجدي السليمان لشركة (A.P.O.C) وثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ التي تعلن تراجع التأثير الألماني على القسطنطينية ليشجع المشاريع البريطانية. ولكن عادت السياسة العثمانية إلى اجراءاتها المماطلة إذ لم تجد إلا وسيلة واحدة لتتحاشى غضب المطالبين: فطردت

الجميع، ويبقى سباق الامتيازات في وزارات القسطنطينية بدون جدوى حتى عام ١٩١٢ . وكانت في هذا التاريخ وزارة الخارجية تهتم كثيراً لتثبت تحالف دول البلقان التي ستأخذ بالقوة من الامبراطورية العثمانية ممتلكاتها الأوروبية الأخيرة، وكان الأميرال فيشر يتنبأ عن بدء الحرب العالمية في تموز ١٩١٤ . فأصبح من الضروري تقرير مصير المقاطعات الآسيوية في الامبراطورية التركية وتأمين الامتيازات البترولية.

علمت وزارة الخارجية في هذه الآونة في آب ١٩١٢ بواسطة سفيرها في القسطنطينية أن «ناسيونال بانك أوف تركي» شركة ذات رؤوس أموال انكليزية ولكنها مشبوهة بنظر الحكومة البريطانية لميولها الموالية لألمانيا واهتمامها بتركيا الفتاة قد أسست شركة تسمى شركة البترول التركية (T.P.C) (تركش بتروليوم كومباني) بارتباط مع «دوتش بنك» و «شيل» وكانت تملك كل واحدة من هاتين الشركتين ٢٥٪ من رأس المال. وكان دوتش بانك مستعداً أن ينقل إلى الشركة الجديدة الحقوق التي كانت تمتلكها شركة الطرق الحديدية الأناضولية الفرعية في استثمار بترول ما بين النهرين. وكانت تظهر (T.P.C) بمكانة جيدة لتحصل على امتياز نهائي من الحكومة العثمانية.

قاومت الحكومة البريطانية هذا التهديد في اتجاهات كثيرة، وضعت أولاً كل ثقلها لتمنع تحقيق مشاريع (T.P.C) ثم ساندت جيداً (A.P.O.C) وحاولت أخيراً أن تضع لنفسها خطاً تسلكه. في تموز ١٩١٢ عين تشرشل لأنه الأميرال الأول في الأمرية، لجنة ملكية لتدرس المسائل الناجمة عن استعمال البترول كوقود سائل في البحرية البريطانية. قُدمت نتائج اللجنة إلى الوزارة التي أعلنت في ٩-١١ تموز ١٩١٣ أنها مقتنعة من «الضرورة الحيوية بأن تتزود البحرية بشكل مستمر ومستقل من البترول في المستقبل» وقررت أنه يجب أن تحصل على هذا الهدف بامتلاك الحكومة «حصة كبيرة في منابع تزويد آمنة في الداخل والخارج». فاشترت الحكومة البريطانية

نتيجة لهذا القرار، وبعد كشف على أرض الامتياز الإيراني للشركة باتفاق وقع في ٢٠ أيار ١٩١٤ بمبلغ قدره مليونين ومئتي ألف ليرة استرلينية، ٥١٪ من أسهم الشركة (A.P.O.C) .

اقترح الوزير الأول غاضباً من ضغوط الألمان والبريطانيين أثناء ذلك في القسطنطينية، بأن يتفق الخصوم فيما بينهم ويقيموا شركة يمنحها الأتراك الامتياز وبما أن ابراهيم حقي باشا «وزير أول سابق» قد بدأ وريشار فون كولمان ملحق بالسفارة الألمانية، مباحثات في لندن مع الحكومة البريطانية حول طريق بغداد الحديدي وتأثيراته على مناطق النفوذ في ما بين النهرين، استغلت الفرصة بسرعة واختممت في العاصمة البريطانية مباحثات شاملة حول مستقبل الشرق الأوسط ومصادره.

وقع الانكليز بالأحرف الأولى في ٨ أيار ١٩١٣ مع ابراهيم حقي باشا اتفاقاً من أربعة بنود. يعدل البند الأول الحدود التركية الإيرانية باتجاه يناسب امتيازات (A.P.O.C) وينظم البند الثاني مناطق نفوذ فيما يخص خطوط السكة الحديدية. يجب أن يبنى خط بغداد البصرة تحت اشراف رؤوس أموال انكليزية. ويقبل البند الثالث حماية الانكليز على إمارات الكويت والمحمرا (قسم من خوزستان الحالية) ويؤمن البند الرابع لرؤوس الأموال الانكليزية الملاحة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة ويسمح مقابل ذلك للحكومة العثمانية بأن تزيد رسومها الجمركية من ١١٪ إلى ١٥٪ من سعر البضائع المستوردة.

كان هذا الاتفاق فاتحة باب لاتفاقات كثيرة. وجرت مباحثات بين تركيا وفرنسا حول الطرق الحديدية في سورية وشمال الأناضول وبين روسيا وتركيا حول المسألة الأرمنية التي سنعود إليها فيما بعد، وبين ألمانيا وفرنسا حول مساهمة فرنسا في بناء طريق بغداد الحديدي وبين روسيا وفرنسا لتحديد مناطق النفوذ في شمال الأناضول، وأخيراً بين انكلترا وألمانيا حول تقسيم ما بين النهرين ومصادرها البترولية.

كانت ترتكز المباحثات البترولية والانكليزية على قهر ناسيونال بنك أوف تركي رغم أنها شركة بريطانية لكي يحل مكانها شركة (A.P.O.C) التي كانت تتحول إلى محمية حكومة لندن الرسمية وذلك بمساعدة الألمان . لقد تم التحول حتى ولو ظهر بأن الثلث، ٥٠٪ الذي يمتلكه البنك الوطني ضمن (T.P.C) يعود بشكل شخصي لشريف من أصل أرمني وجنسية بريطانية، اسمه «كالوست غولبيكيان»، وكان يهدد بالتنازل عن حقوقه لصالح شيل.

وقع أخيراً اتفاقاً في ١٩ آذار ١٩١٤ أخذت شركة (A.P.O.C) حصة البنك الوطني ٥٠٪ واحتفظ الشريكان الآخران شيل ودوتش بنك بحصتيهما ٢٥٪ لكل واحد. واضطرت الشركتان على ترك كل واحدة منهما ٥ر٢٪ لكالوست غولبنكيان الذي أصبح السيد المشهور ٥٪.

اشتركت الحكومة البريطانية بحجة تقارب ألماني مع ناسيونال بنك أوف تركي بحصص متساوية، المطامع الألمانية في T.P.C. وأعطت الحكومة البريطانية موافقتها في اتفاق وقع في لندن في ١٥ حزيران ١٩١٤ أي خمسين يوماً قبل إعلان الحرب العالمية الأولى لكي يبني الألمان طريق بغداد الحديدي مقابل الوعد باشراك مواطنين بريطانيين في مجلس إدارة الشركة واعتراف الألمان بالحقوق الممنوحة من تركيا في ولاية البصرة والخليج العربي. وكان حساب وزارة الخارجية واضحاً. فكان كل اتفاق موقع مع ألمانيا تحت رحمة الحرب القديمة ورحمة المنتصر في الحرب. ولكن يمكن أن يستخدم كل امتياز حاصل على الأرض بفضل هذه الاتفاقات، كحق مكتسب ضد كل طامع في المستقبل، وذلك دون استمرارية الامبراطورية العثمانية. وإذا كان من المحتمل أن تزول الدول أو تفقد حقوقها نتيجة الانكسار، تبقى الشركات الخاصة وتستطيع أن تصبح حصان طروادة في المطامع غير المرغوبة وهكذا عندما تقوي بريطانيا العظمى نفسها لتتغلب على ألمانيا في المستقبل القريب، تستطيع الآن أن تتحالف معها لتبعد الذين لا ترضى بهم عندها.

وبقي أن تحصل على الامتياز. اندفع السفراء البريطانيون والألمان في القسطنطينية بهجوم مشترك وفي ١٨ حزيران منح الوزير الأول بالكتاب نفسه للسفيرين موافقته الرسمية على امتياز بترولي إلى شركة T.P.C في ما بين النهرين.

الحكم الذاتي الأرمني

إنه لمن المعروف أن روسيا لا تمتلك رؤوس أموال وإنما رجال. فكانت تفضل احتلالاً مباشراً لمناطق النفوذ. وكان يسكن المناطق التي تطمع بها في شرق الأناضول كممرات نحو المناطق الدافئة، شعب يظهر بدون خصومة، الشعورالوطني المتطرف والضيق في ذلك العصر، وهوالشعب الأرمني. فظهرت المطامع الروسية في المقاطعات العثمانية من خلال المسألة الأرمنية.

كانت الاصلاحات في الولايات التي يسكنها الأرمن والمذكورة في معاهدة برلين عام ١٨٧٨ من بين المخاطر الخفية والعادية في المسألة الشرقية. وظهرت مجدداً عندما بدت هزيمة البلقان تدق ناقوس موت الامبراطورية العثمانية، فجعلت تحديد مناطق النفوذ في أراضيها الآسيوية ضرورة ملحة. ووجه في أثناء ذلك في تشرين الثاني ١٩١٢ رئيس الأرمن الديني (الكاثوليكوس) المقيم في اشمدزين، وفي الأراضي الروسية نداءً إلى روسيا يطلب الحماية الروسية لأرمن تركيا. وعندما علق سفير روسيا في القسطنطينية على هذا النداء بيّن «الميول المتزايدة عند الشعب الأرمني والموالية لروسيا». وعندما ناقش «الشكل الذي يمكن أن تتخذه حمايتنا للأرمن الأتراك» أعلن «أن احتلالنا للولايات الأرمنية الذي يحلم به كثير من الأرمن يبدو لي سابقاً لأوانه في الحاضر» ولكن إذا «لم تأتِ الاصلاحات بالهدوء المرغوب يجب أن نكون مهيئين إذ يصبح دخول قواتنا في هذه المقاطعة ضرورياً».

بدأ الباب العالي مباحثات مع الأرمن حول مشروع اصلاح، بضغط من الحكومة الروسية التي أعلنت أنه «إذا لم تبدأ باصلاحات هامة في أرمينيا التركية فستلاقي الحكومة التركية المسألة الأرمنية بوضع متأزم جداً حتى أن ذلك يدفع إلى تدخل الدول الأوروبية». لكن السفارة الروسية التي كانت تطالب بحكام أوروبيين وروس للولايات الشرقية، رفضت المشروع لأنه غير كافي.

لجأت الحكومة العثمانية إلى أسلوبها التقليدي أمام هذا الوضع وأمام الضغط المتصاعد في المقاطعة خلال ربيع ١٩١٣، فاشركت الدولة الكبيرة التي لا تهمها هذه القضية. فاقترح السفير التركي في لندن بايعاز وصل إلى وزارة الخارجية في ٢٤ نيسان ١٩١٣ إقامة شرطة في الولايات الشرقية الست بقيادة انكليزية، وتعيين مفتشين بريطانيين ليساعدوا الحكام. ولكن لم تدرك السياسة العثمانية تطور التوازن بقدرما تقترب الحرب. وسُرت انكلترا بأن تترك هذه القضية الصعبة إلى روسيا، وأوحت أنها تقدم لها هدية مقابل مطامعها الخاصة في ما بين النهرين. فنقل الاقتراح التركي إلى سان بترسبورغ وصرح «غري» (وزير خارجية بريطانيا) أنه راضٍ بأن يرى زميله الروسي يتبنى الأمر.

يرتكز هذا الأمر على اجتماع مؤتمر مكون من سفراء الدول العظمى في القسطنطينية، وعندما طالبت الحكومة الألمانية والحكومة النمساوية باشتراك الحكومة العثمانية في المؤتمر المنعقد على شواطيء البوسفور عارضت بشدة لأن «خبر اشتراك ممثل تركي سيغضب الأوساط الأرمنية».

انعقد المؤتمر في ٣ تموز وأسفر عن مشروع مشترك ألماني روسي يطلب تسمية مراقبين أوروبيين للولايات الشرقية ونسبة مشاركة ٥٠٪ للأرمن في مجالس الولايات. قبل الباب العالي بعد نقاش وتردد هذا النص في ٨ شباط ١٩١٤ وبعد بضعة شهور عُيّن نرويجي وهولندي مراقبين عامين لما سيكون تدريجياً أرمينية الجديدة. وكان موقف الحكومة التركية شبيهاً بموقف الحكومة الانكليزية في مسألة

- البترول. فانتظرت الحرب لتعيد النظر باتفاقاتها. وكانت اعادة نظر جذرية لأنها انتهت بالقضاء على الأرمن قضاءً تاماً.

الدخول في الحرب

في أوائل صيف عام ١٩١٤ أنهت مجموعة من الاتفاقات الدولية الكثيفة والمعقدة قرناً للمسألة الشرقية: فلم يكن يتمنى المشتركون بلعبة الشطرنج السياسية والشاملة إلا حل عقدة العقد التي بها يرتبط الجميع. فلا يبقى حياد، لأن البقاء حيادياً يعني الالتزام «بالميثاق القديم» فلم تتفق الامبراطورية العثمانية وحلفاؤها الجدد، ألمانيا والنمسا وأعداؤها في المستقبل انكلترا وروسيا وفرنسا وإيطاليا فيما بعد، إلا حول نقطة واحدة: القيام بالحرب.

تؤكد الأحداث التي سبقت الحرب في الشرق الأوسط هذه الرغبة الجماعية. واعتبر الهرب المشهور في عام ١٩١٤ للبوارج الألمانية «غوبين وبريسلو» عبر الدردنيل وشراء الأتراك لها، الذي وثق بنظر الرأي العام التحالف التركي الألماني زمناً طويلاً، خدعة ألمانية لتجبر تركيا على الحرب. نظن أننا نعرف اليوم حتى وإن لم توجد براهين صريحة (ومن المحتمل أن لا توجد البراهين) أنه قد تركت الحكومة الانكليزية هذه السفن تهرب، من جهة أولى، لكي تدفع تركيا إلى دخول الحرب، ومن جهة أخرى لتضمن تفوق أسطولها في البحر الأسود. ربما قد سمح ذلك لبريطانيا العظمى أن تعد روسيا بالقسطنطينية عالمة بأنها هذه الأخيرة لا تملك الوسائل لاجتياحها.

لقد تم اقرار العمليات التي أدت إلى اجتياح البصرة. وبدأ احتلال العراق من قبل القوات القادمة من الهند منذ الثاني من تشرين الأول قبل شهر من إعلان الحرب بين تركيا وانكلترا. وانتهت هذه الاجراءات التي اعتبرت احتياطية في سبيل حماية مصفاة عبدان بالاجتياح العسكري لحقول البترول في ما بين النهرين.

الاتصال الأول بالعرب

برهنت المسألة الأرمنية على أهمية وضرورة اعتبار ردود الفعل عند السكان القاطنين في المقاطعات المطموع بها. وسيعطي ظهور القومية العربية وسيلة ثانية.

مهما كان وزن هذه القومية التي كانت تنمو في أوساط العالم العربي الفكرية، فالقوى التي تشد اهتمام بريطانيا العظمى هي القوى التقليدية، شريف مكة وأبنائه. لا يرتاح هؤلاء الذين يملكون سلطة محلية كبيرة جداً لمحاولات سلطة تركيا الفتاة المركزية في القسطنطينية. بتجسد هذه المحاولات بطرق الحجاز الحديدية التي تربط بين سورية والمدينة المنورة ومخصصة لتمتد حتى مكة.

وكان عدم الاهتمام «بأصحاب الجمال» حجة أو عذراً مثبتة للغضب المحلي. فقرر الشريف حسين أن يختبر الانكليز. فالتقى ابنه عبدالله في طريقه إلى القسطنطينية حيث كان نائباً في البرلمان العثماني، في الخامس من شباط ١٩١٤، في القاهرة، باللورد كيتشينر المفوض السامي الانكليزي وسأله إذا كان يستطيع أن يأمل بمساعدة أو على الأقل بحياد بريطانيا العظمى في حال خلاف صريح بين الشريف وبين الباب العالي. فاحتمى كيتشينر في موقف رسمي حذر، ولكن بدا أمين سره رونالد ستورس مشجعاً أكثر. فالتقى عبدالله عند عودته في ١٨ نيسان هذه المرة بستورس وحده وطلب منه إذا كان يرضى الانكليزي باهداء الشريف اثنا عشر رشاشاً. فاستبعد ستورس هذه الامكانية وتوقفت الاتصالات عند هذا الحد.

كان ذلك أمر مؤجل وكانت الأوساط البريطانية في القاهرة تفكر بتقديم المساعدة عندما تسنح لها الفرصة. وأوصل تعيين اللورد كيتشينر في وزارة الدفاع في آب ١٩١٤ منذ أوائل الحرب أحد المدافعين عن «الحق العربي» الأشد حماساً، إلى إحدى المناصب الهامة في الامبراطورية البريطانية، لقد استطاع ستورس منذ أيلول ١٩١٤ وقبل دخول تركيا في الحرب، أن يحصل على تقرير من المخابرات في القاهرة

يطلب الاتصال بالشريف. فكتب كيتشينر في الحال جواباً يأمر بارسال مبعوث سري إلى مكة لكي يسأل الأمير عبدالله هل يكون الشريف في حال دخول تركيا الحرب إلى جانب الألمان مع أو ضد الانكليز، وتبنت وزارة الخارجية هذا الكتاب.

غادر المبعوث السري بهاء إيرانيان فوراً إلى مكة حاملاً رسالة من ستورس، ولم نحصل على أي أثر لها. وعاد في ٣٠ تشرين الأول قبل بضعة أيام من إعلان الحرب ضد تركيا حاملاً رسالة من الأميرعبدالله يصرح فيها: «إن شعب الحجاز يقبل ويكون راضي من اتحاد أقوى مع بريطانيا العظمى وحكومتها».... «تحتل بريطانيا العظمى المكانة الأولى طالما تحمي حقوق بلادنا وحقوق سمو الأمير السيد الحالي وحقوق إمارته واستقلالها».

أرسل محتوى الرسالة برقياً إلى لندن. وكتب كيتشينر في اليوم نفسه الرد إلى الأمير عبدالله : «إذا تعاونت الأمة العربية مع بريطانيا في هذه الحرب التي تلزمنا عليها تركيا، تحفظ انكلترا الجزيرة العربية من كل تدخل داخلي وتقدم كل مساعدة للعرب ضد اعتداء خارجي غريب». ويتمنى المقطع الأخير أن يكون شخصاً من أصل عربي صافي خليفة في مكة أو المدينة. وأعاد ستورس الرسالة وأضاف إليها التبجيل وأنهاها بهذا المقطع الحماسي: «من المستحسن أن يخبر صاحب السمو أتباعه ورعاياه في العالم وفي كل البلاد العربية باخبار الحرية للعرب، وأن شمس الحرية ستشرق على الجزيرة العربية».

وجد الشريف نفسه الذي لم يكن يطمح إلا لتدعيم مركزه في الحجاز معين زعيم لكل العرب في العالم بفضل الجلالة البريطانية.

استمرت الإدارة السياسية والعسكرية للسلطة البريطانية في القاهرة تساندها إدارة السودان، تعد بالهدايا إلى العرب بموافقة كيتشينر ولكن بدون أي قرار حتى بدون أي سماح صريح من الحكومة البريطانية. فكانت تصريحاتها مثل تصريح ٤ كانون الأول ١٩١٤ الموجه: «إلى سكان الجزيرة العربية وفلسطين وسورية وبلاد ما

بين النهرين – البلاد التي بين البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي وحدود بلاد الفرس والأناضول والبحر المتوسط» – يحدد هذا التصريح منطقة السيادة العربية أو النفوذ البريطاني.

كان أصحاب هذه السياسة بدون شك وهم الذين قدموا إلى خيال الجمهور عبر شخصية الكولونيل لورنس، أقل حلماً وأكثر واقعية. «وأين السوء في كل ذلك؟» وكتب سير روجينال فنغات حاكم السودان. «فاذا لم ينجح مشروع دولة عربية فاننا متحررون من كل وعودنا، وإذا تحقق فلدينا الوسائل للاشراف عليه».

القسطنطينية وسورية

لم يكن يصدر توزيع هذه الوعود على الحلفاء أو على قوات بريطانيا العظمى إلا من خلال دائرة ضباط طموحين في المملكة. وكان جورج الخامس نفسه في قمة هذه السلطة. وعندما استقبل سفير روسيا في لندن في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٤ صرح له : «أما فيما يخص القسطنطينية يجب أن تكون هذه المدينة لكم» تهدف هذه الجملة التي كانت تقدم لروسيا الامبراطورية ما هو هدف أحلامها منذ قرون، إلى تعطيل التيارات الموالية لألمانيا والسائدة في الأوساط المحافظة في بلاط بتروغراد. ونستطيع الاعتقاد بأنه قد احتاط الانكليز لأمرهم ضد كل تنفيذ محتمل بحماس غوبين وبريسلو اللذين كانا يدعمان الأسطول التركي.

أقلق الروس شن هجوم الأتراك الكبير في الشتاء في كانون الأول والذي انتهى بمأساة بعد شهر في ثلج القفقاس. فطالب الدوق الكبير حاكم القفقاس بفتح جبهة ثانية للحلفاء. وصل الخبر إلى لندن في ٢ كانون الثاني عام ١٩١٥ عندما كانت بعض الشخصيات السياسية ومن بينها تشرشل وليواد جورج المرشح لرئاسة الوزراء، توصي بعمل حربي في الشرق لكي يخفف عن الجبهة الغربية. فالتقط الاقتراح

بسرعة. وتفاجأ الروس كثيراً عندما خبروا في ٢٠ كانون الثاني بعد انتصارهم على الأتراك، الذي أبعد خطر القفقاس، أنه جواباً لطلب روسيا «قررت القيادة البحرية اجتياح الدردنيل بعملية بحرية».

ردت روسيا باجابة لطيفة على هذا العرض لأنها أدركت عجزها عن الاشتراك بهذه العملية بفعالية لضعف قدرتها البحرية في البحر الأسود، فاضعفت مطالبتها بتملك القسطنطينية في المستقبل. ولم يمنع ذلك الرد الحلفاء من تقديم كافة التجهيزات ومن الدخول في المفاوضات حول مستقبل العاصمة العثمانية، فقد خرجت من نطاق السفارات واحتلت مجالس النواب. أثارت جلسة «الدوما» (مجلس النواب الروسي) الصاخبة حول تقدم روسيا تجاه البحار الدافئة، الجدل في مجلس العموم، واضطر «غري» أن يجيب بغموض فأقلق الدبلوماسية الروسية التي فرضت تعهدات واضحة بقصد احتلال القسطنطينية الذي كان يبدو قريباً.

بدأ السفراء الروس حينذاك الاتصالات في العواصم الأوروبية. وعلم بينكندروف من «غري» بأنه ليس لانكلترا أهداف سوى بعض المواقع في الخليج العربي، وإن عليهم أن يلتفتوا نحو فرنسا. وصرح ديلكاسي وزير خارجية فرنسا، إلى أزفولسكي سفير روسيا بأن مسألة المضائق ترتبط بتقسيم المقاطعات الآسيوية التركية. وووجه سازونوف في اليوم ذاته في بيتروغراد إلى سفراء فرنسا وبريطانيا العظمى مذكرة يطلب فيها لروسيا «مدينة القسطنطينية وشاطئ البوسفور الغربي وشاطئ بحر مرمرا والدردنيل وتراس الجنوبية».

ناقش مجلس الوزراء البريطاني المذكرة الروسية في ٩ آذار وفي ١٢ آذار، أعطى بوكانان السفير البريطاني في بتروغراد، إلى سازونوف مذكرة يقبلون فيها برغبات روسيا تحت شرط «أن تبقى الأماكن المقدسة المسلمة والجزيرة العربية في جميع الأحوال تحت سيادة مسلمة». أبرق ديلكاسه في اليوم الثاني إلى باليولوغ سفيره في بيتروغراد: «أرجو أن تذكر للسيد سازونوف أنه منذ الآن بين مطامع

فرنسا في الشرق، سوريا مع مقاطعة خليج الكسندريت والمقاطعات الكيليكية حتى سلاسل جبال طوروس». فطلب الروس من باليولوغ نتيجة لهذا الطلب أن يوضح حدود هذه المطالب: «فذكرت بشكل شخصي، مانافغات وسلسلة جبال طوروس ومرافئ كيليكية وسلسلة جبال طوروس الغربية وخط يمر شمال زيتون وماراش ومجرى نهر الفرات حتى شرق مسكنة، وخطاً آخر تاركة تدمر في الغرب وتصل إلى الحدود المصرية».

كررت بريطانيا المتحفظة والحذرة لمن يود أن يسمعها أنه ليس لديها إلا مطمع واحد وهو الاشراف على الخليج العربي وإن الجدل حول تقسيم الامبراطورية العثمانية سابق لأوانه. وكانت سابقة لأوانها أيضاً الحملة الفرنسية-الانكليزية في ١٨ آذار ١٩١٥ في سبيل اجتياح الدردنيل، التي فشلت فألغت بفشلها أمل استسلام تركيا السريع. وبقي سير ادوار غري يوجه سياسة بريطانيا الخارجية، رغم ذلك، لقد كان مبدع التوازن الكوكبي الكبير الذي أظهرت الحرب فشله، بينما بدا في مسار كيتشينر وتشرشل أو ليواد جورج نور مطامع جديدة.

تحديد أهداف الحرب البريطانية في الشرق الأوسط (خريطة رقم -١٩-)

عندما طلبت فرنسا في ٢٣ آذار من بريطانيا العظمى بدء مفاوضات حول مستقبل الامبراطورية العثمانية، شعرت الحكومة البريطانية بالحاجة بأن تحدد مسبقاً سياستها الخاصة. عين رئيس الوزراء في ٨ نيسان لجنة «مكلفة بدراسة طبيعة الرغبات البريطانية في تركيا الآسيوية»، وكان يرأسها السفير السابق في فيينا، موريس ده بونس، وتضم ممثلين عن الوزرات المختصة: الدفاع والبحرية والخارجية ووزارة الهند وغرفة التجارة. وانضم إليها ممثل شخصي لكيتشينر، سير مارك سايكس، الذي ستظهر وظيفته فيما بعد تأثير توجيهات كيتشينر الامبريالية المتطرفة

حول مستقبل الشرق الأوسط.

قدمت لجنة بونس تقريرها في ٣٠ حزيران ١٩١٥: «تنقسم تركيا الآسيوية نسبة للتقرير، قومياً وتاريخياً (باستثناء الجزيرة العربية) إلى خمسة أقاليم: الأناضول- أرمينية- سورية- فلسطين- العراق- ما بين النهرين». ويجب أن تشمل منطقة النفوذ البريطاني في كل الحالات فلسطين والعراق- ما بين النهرين في شريط مستمر يمتد من بيمونت الكردستان الشمالي في الشمال الشرقي حتى العقبة في الجنوب الغربي شاملة حيفا وعكا وتدمر ودير الزور. ويجب أن تعطى المناطق الموجودة في الشمال الغربي من الهلال الخصيب إلى فرنسا. ويعتبر هذا المخطط على عكس الاقتراحات الفرنسية، فلسطين وحدة منعزلة، ويمنحها للنفوذ البريطاني. بقيت مسألة الأماكن المقدسة التي تطالب بها الكثلكة الفرنسية والأرثوذكسية الروسية. ولكن كان تقرير بونس غامضاً كثيراً حول هذه المسألة. فبديهي أن تتطلب فلسطين حلاً بارعاً. أما الجزيرة العربية فيجب أن تبقى «تحت سيطرة إسلامية مستقلة» يحدها من الشمال خط مستقيم يمتد من العقبة إلى معان وخط منحني يربط معان بحدود الكويت.

المراسلة مع الشريف

أرسلت الحركة الوطنية العربية «الفتاة» التي مركزها دمشق مبعوثاً إلى الشريف حسين فأرسل بدوره ابنه فيصل إلى دمشق. توقف فيصل فيها في طريقه إلى القسطنطينية في ٢٦ آذارعام ١٩١٥ ومر أيضاً فيها في ٢٣ أيار عند عودته إلى مكة. وأسفر هذا اللقاء مع التنظيم الثوري العربي عن اتفاق يرسم حدود المنطقة العربية. يحدها في الشمال خط مرسين – أضنا- بيرسيك- أورفا- ماردين- سيزره- أمادية- الحدود الفارسية، وفي الشرق الحدود الفارسية نفسها وفي الجنوب

الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر ما عدا عدن التي يجب أن تبقى تحت السيطرة البريطانية، وفي الغرب البحر المتوسط حتى مرسين.

وصل فيصل إلى مكة في ٢٠ حزيران. فأرسل حسين في ١٤ تموز رسالته الأولى إلى مكماهون، المفوض السامي البريطاني في القاهرة مطالباً باعتراف بريطانيا باستقلال «البلاد العربية» الموجودة ضمن الحدود المشار إليها في اتفاق دمشق «وباعلان خليفة عربي للاسلام».

هزت هذه الرسالة المكاتب البريطانية في القاهرة التي بذلت كل جهد لتقنع لندن بفائدة التحالف مع الشريف. فكانت جميع الدوائر الحكومية في لندن غير متحمسة لذلك. تعتبر وزارة الهند خاصة، الشريف حسين، سلطان محلي بدون نفوذ كبير، وتفضل أن تراهن على خصمه ابن سعود زعيم الوهابيين. ولكن قد فشلت كل نصائح الحذر لموظفي وزارة الخارجية ووزارة الهند أمام إلحاح كيتشينر وضعف غري وحماس رجال القاهرة. فأجاب مكماهون في ٣٠ آب «بأن الحكومة البريطانية تتقبل بالرضى عودة الخلافة إلى عربي من أصل عربي حقيقي». وعدلت ترجمة النص العربية المرسلة إلى حسين، المقطع الأخير من الجملة هذه «عربي أصيل ينحدر من سلالة النبي المباركة» فجعلت التلميح على الشريف حسين واضحاً أكثر، واكتفت الرسالة فيما يخص الحدود بالقول أن المباحثات حولها سابقة لأوانها.

أجاب الشريف في ٩ أيلول وتذمر من «تردد» رسالة مكماهون وأكد على مسالة الحدود. أعادت مكاتب التجسس البريطانية قبل وصول هذه الرسالة إلى القاهرة، من غاليبولي، ضابطاً عربياً هارياً من الجيش التركي، إنه شريف الفاروقي، لقد كان يدعي أنه ينتمي إلى تنظيم ثوري عربي يجمع ٩٠٪ من ضباط هذه القومية في الجيش التركي، ويستعد هذا التنظيم إلى انتفاضة عامة. فكان لهذا الخبر وقع كبير جداً في أوساط المخابرات البريطانية في القاهرة. أثار التخوف من تحالف هذا التنظيم مع الالمان والأتراك في حال رفض المساعدة البريطانية، إضافة إلى تهديد

الرسالة الشريفية، الرعب في القاهرة. وأعطى مجالاً للضغط على لندن لتقبل مطالب حسين.

اقترحت الدوائر الانكليزية في القاهرة إلى لندن، إذ كانت تعلم أن فرنسا وُعدت بحق الحصول على سورية حسب الاتفاق بين باليولوغ وسازونوف الذي ثبتته انكلترا، وتعلم أيضاً أن الإدارة الهندية تفكر بالاحتفاظ بولاية البصرة التي احتلتها باهتمامها الخاص، أن تستثنى ولاية البصرة من هذه المطاليب. «وتدخل دمشق وحلب وحماة وحمص في الاتحاد العربي». ولا نعلم أبداً هل هذه المدن الأربع ستكون خطاً، وقد يجسدها طريق الحجاز الحديدي، الذي يفصل بين المنطقة الفرنسية من الغرب وبين المنطقة العربية. أو هل ستكون نواة المنطقة العربية؟!.

نستطيع أن نقرأ رغم ذلك في رسالة مكماهون الجديدة إلى حسين، مؤرخة في ٢٤ تشرين أول، أن «يجب أن لا تعتبر قضاء مرسين والاسكندرون وأجزاء سورية الموجودة في غرب أقضية دمشق وحماة وحمص وحلب، عربية ويجب اخراجها من الحدود المقترحة». ليس لكلمة «قضاء» هنا معنى واضح لأن دمشق وحلب كانتا عاصمتي ولايات (محافظات) عثمانية وتكون مجموعة سورية الكبرى بدون الشاطئ اللبناني، بينما لم تكن حماة وحمص إلا أقضية في داخل ولاية دمشق، وقد ترجم (district) (قضاء) في الترجمة العربية بكلمة (ولاية) فزاد ذلك الغموض والبلبلة.

ولكي نفهم تفكير مفاوضي القاهرة الذين كانوا يرسمون خريطة الشرق الأوسط علينا أن نرجع إلى رسالة مكماهون التبريرية إلى اللورد هاردنغ نائب الملك في الهند الذي كان يزداد غضباً بقدر ما تتطور الأمور. «لم أتوصل أبداً إلى التصور أن المفاوضات الحالية ستنتهي باعطاء شكل لمستقبل الجزيرة العربية، وتثبت حقوقنا أوتكبل أيدينا في هذا البلد. فالوضع ومعطياته غامضاً. وعلينا الآن أن نوجه الشعب العربي نحو الطريق المستقيم ونفصله عن العدو ونعيده إلى جانبنا. أما فيما يخصنا في هذه الآونة فما علينا إلا أن نقدم كلاماً فقط ولكي نصل إلى هدفنا يجب أن

نستخدم التعابير المقنعة».

لم يصلح الشريف الأمور عندما أجاب في ٥ تشرين الثاني: «نستنكف عن التأكيد بادخال ولايات مرسين وأضنة في المملكة العربية. وأما ولايتا حلب وبيروت وسواحلهما ولايات عربية صافية». فلم تكن مرسين إلا قضاء لولاية أضنة وكلمة ولاية تعني أيضاً مدينة في اللغة العربية السائدة فأصبح الغموض كاملاً.

أجبر مكماهون هذه المرة بعد توبيخ لندن له أن يرد بشدة بأن مصالح حليفتنا فرنسا داخلة ضمن ولايتي حلب وبيروت ويجب أن تحل المسألة فيما بعد فأجاب الحسين بعنف ورفض أن يعطي لفرنسا أو لأية دولة «بوصة واحدة من هذه المقاطعات». أرسل مكماهون رسالة غامضة ومهدئة. وبقيت هذه المراسلة الشهيرة عند هذا الحد فيما يخص المباحثات حول المقاطعات. وصرح الشريف في رسالته الثالثة في ١٨ شباط ١٩١٦ «أنه سعيد جداً وراضي كثيراً من تنفيذ الاتفاق المنتظر». بينما طالب رسوله بثلاثة آلاف ليرة استرلينية للتحضير الأول للثورة.

<u>اتفاق سايكس بيكو (خريطة رقم ٢)</u>

أعلنت لندن توقف المفاوضات حول الحدود لأنها كانت تجري في هذه الآونة مفاوضات حول الموضوع نفسه في العاصمة البريطانية، بين الممثلين الفرنسيين والانكليز.

عندما كانت المساومات في أوجها مع الشريف في ٢١ تشرين الأول عام ١٩١٥ ولم تنسَ أن تثبت شائعات قد نقلت بأمانة إلى باريس بواسطة الممثل الفرنسي في القاهرة، شعر السير ادوار غري أنه مجبرٌ أن يستشير كامبون السفير الفرنسي في لندن. وكان من الضروري حسب رأي غري قبل أن نعطيَ إجابة نهائية للشريف، أن نتباحث بين الحلفاء. فلم يتردد كامبون أن يوصي بالمبادرة إلى باريس واقترح

كممثل لفرنسا فرنسوا جورج بيكو، انه ملحق في السفارة في لندن وقنصل سابق في بيروت، وكان يهم باريس التي ترتاب من خلافة محتملة تحت سيطرة بريطانية، خاصة أن تستغل الفرصة لتثبت مطاليبها السورية.

يرتكز مبدأ التعليمات التي أعطاها برياند إلى جورج بيكو على حجة رئيسة. تمتلك فرنسا أكثر من أية دولة مصالح في الامبراطورية العثمانية وستتضرر أكثر من الجميع لاندثارها، ويجب أن تحصل نتيجة لذلك على تعويضات مناسبة. تلخص هذه التعويضات بسورية الكبرى التي تمتد حتى حدود مصر في الجنوب، ويجب أن يضاف إليها في الشمال «مقاطعة ولاية أضنة الواقعة في جنوب طوروس»، «وتتبع الحدود في الشرق من هذه المقاطعة خط قمم طوروس من ولايات أو متصرفيات مامورية العزيز (الفريغ اليوم) ودياربكر وڤان ثم تهبط في الجنوب لتتبع الجبال التي تحيط حوض دجلة، وتقطع هذا النهر بعد الموصل وتصل إلى الفرات عند حدود ولاية دير الزور التي تبقى حصتنا». وكانت تطالب فرنسا بسورية الكبرى – أي سورية ولبنان وفلسطين وكيليكية والكردستان العثماني مع مقاطعة الموصل البترولية. فكان يطلب من المحادثات أن تهتم فقط بترسيم الحدود للمنطقة الفرنسية، بدون أن تتعهد باحداث محتمل لدولة عربية مستقلة.

عقد الاجتماع الأول في لندن ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٥، وعندما عرض جورج بيكو رغباته، أجاب الانكليز أنه كان من الضروري لكي يجذبوا العرب أن يقدموا لهم عروضاً مرضية. فلا تسمح مطالب فرنسا بارضاء مطالب الشريف، إذ أن امتلاك مناطق حمص وحماة ودمشق وحلب شرط لا غنى عنه بنظر الشريف. توقفت المحادثات حينذاك لكي يستطيع المبعوث الفرنسي أن يستشير حكومته. وأجاب برياند في ١٤ كانون الأول أنه قبلَ أن نميز بين منطقة سيطرة مباشرة ومنطقة نفوذ موضوعة تحت سيادة عربية. وكان بين المناطق الأولى كيليكية ولبنان ومتصرفية القدس أي الساحل من مرسين حتى غزة. فقبل أن يعطي العرب حلب وحماة وحمص

ودمشق. وطالب مقابل ذلك «بتملك حوض كركوك البترولي».

انعقد اجتماع ثاني استناداً لتلك الأسس في ٢١ كانون الأول. ولكنه اصطدم بتصلب البريطانيين الذين بعد أن ضمنوا سيطرة العرب على المدن الأربع، رفضوا سيطرة الفرنسيين المباشرة على لبنان واستمروا بمطالبتهم بفلسطين وحاولوا تأجيل المباحثات حول الموصل. ولكي يتحاشوا الانقطاع، تقرر أن يجتمع جورج بيكو مع سير مارك سايكس لكي يحاولا التوصل إلى اتفاق. استمرت تلك الاجتماعات اليومية حتى ٣ كانون الثاني ١٩١٦. فتم الاتفاق على النقاط الرئيسية في ذلك التاريخ.

اتفق أن تمتد المنطقة الفرنسية نحو الجنوب على الساحل حتى المنفذ إلى البحر إلى الحدود اللبنانية الاسرائيلية الحالية وترتبط من هنا ببحيرة طبرية، مبقيةً جبال الجليل في المنطقة الفرنسية. واتخذت الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الفرنسية شكل الحدود السورية الحالية بين بحيرة طبرية ونهر الفرات، بينما تصل بعد ذلك إلى نهر دجلة عند التقائه بالزاب الصغير، وتحاذي هذا النهر لتتصل بالحدود الفارسية. وتقسم منطقة الكركوك البترولية بين فرنسا وبريطانيا العظمى. أما فلسطين «يأخذ الانكليز حيفا وخليجها مع عكة وتصبح فلسطين الممتدة من الساحل بعمق ١٥ ميلاً من شمال حيفا وحتى بحيرة طبرية ونهر الأردن والبحر الميت وغزة منطقة حيادية بإدارة دولية تضم ممثلين عن فرنسا وانكلترا وروسيا وإيطاليا وعن المسلمين». قبلت الوزارة البريطانية الاتفاق بعد أن أكمل بالتفصيل في ٤ شباط عام ١٩١٦ ووافق عليه مجلس الوزراء الفرنسي في ٨ شباط مشترطاً الموافقة الروسية.

انتظر غري حتى ٣٠ كانون الأول لكي يطلع بنكنيدورف، السفير الروسي، على المباحثات مع الشريف، بينما أخبرت باريس بالاتفاق المنعقد مع لندن، ازفولسكي، سفير روسيا في باريس في ٩ شباط ١٩١٦. وذهب سايكس وبيكو حالاً إلى بتروغراد، بينما أعطي نص الاتفاق الكامل إلى الروس.

ظهر حالاً أنه لم يكن لدى الروس اعتراضات أساسية حول المشروع. أسفرت

المفاوضات الأولية عن نقل المنطقة الفرنسية إلى المنطقة الروسية في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا الحالية، القائمة شرق خط موس سيزره وحتى بحيرة أورمية. وتمتد المنطقة الفرنسية بالمقابل، نحو الشمال فتضم سيفاس. وشرح سايكس للسفير البريطاني في بتروغراد، أن ذلك مفيد لأنه يقطع المناطق التي يطالب الأرمن بها إلى قسمين، فتستطيع الدولتان أن يتهما بعضهما في عملية تكوين دولة أرمنية.

أما منطقة السيطرة الروسية بالذات كانت تشمل – لم يكن هناك مناطق نفوذ – تقريباً المقاطعات التي اغتصبها الروس من تركيا أثناء الحرب. فكان يقلقهم ، صعوبة واحدة، الحدود الغربية لهذه المنطقة على البحر الأسود. وتقرر أخيراً أن يذكر في التصريح النهائي «يجب أن تحدد نقطة في الغرب من تريبيزوند» وترك هذا الاختيار للسلاح وعندما تم تبادل الوثائق في ٢٦ نيسان ١٩١٦ اعتبر أنه قد تم تقسيم تركيا بين الدول الثلاث.

اعلان وعد بلفور

لم يدلِ أحد برأيه الأخير حول فلسطين. وكان يعرف الجميع أن «التدويل» أسوء حل دبلوماسي مؤقت. بينما يقترح جورج بيكو بلجيكا كمنتدبة، قررت بريطانيا أن تلعب بالبطاقة اليهودية.

يعود تاريخ إدخال المسألة اليهودية بالحماية البريطانية في فلسطين إلى أوائل عام ١٩١٥، عندما قدم السير هربرت صاموئيل، عضو يهودي في الحكومة البريطانية، إلى مجلس الوزراء مذكرة حول فلسطين يبرر فيها الحماية ويطلب أن تعطى «تحت السيطرة البريطانية تسهيلات للمنظمات اليهودية لكي تشتري أراضي، وتؤسس مستعمرات». لم يلقَ هذا النص ترحيباً في تلك الآونة. ولكن أعادت المطالبات التي عرضها جورج بيكو، القضية إلى بساط البحث. فحضّر لوسيان ولوف المسؤول

عن «لجنة الارتباط الخارجية»، تنظيم يهودي غير صهيوني، وعلى اتصال بوزارة الخارجية، «كتاباً»، يعبر فيه عن رغبات اليهود يقول فيه: «عندما تصبح فلسطين ضمن دائرة نفوذ بريطانيا العظمى أو فرنسا، في نهاية الحرب، سوف لا تنسى حكومات هذه الدول أن تأخذ بعين الاعتبار الأهمية التاريخية التي يمتلكها هذا البلد بنظر الطائفة اليهودية. سيحصل السكان اليهود على التمتع بالحرية المدنية والدينية وبحقوق سياسية أسوة بباقي السكان، وعلى تسهيلات مناسبة للهجرة ولبناء المستعمرات، وعلى امتيازات في البلديات في المدن والمستعمرات التي تسكنها، بقدر المستطاع».

أرسل غري في ١١ آذار الكتاب إلى سفرائه في باريس وبيتروغراد، وطلب إليهم أن يقدموا إلى الحكومات حيث هم معتمدون وكانت الحجة التي يجب نشرها لدى هذه الحكومات هي ضرورة جذب رأي اليهود الدولي الموالي للألمان لصالح الحلفاء ولم يكتفِ غري بكتاب ولف بل أضاف : «نعتبر أن هذا المشروع قادر على جذب الأغلبية اليهودية، إذ يوحي لها أنه عندما يصبح المستعمرون اليهود أقوياء بما فيه الكفاية ليجابهوا السكان العرب سيسمح لهم باستلام إدارة الأمور الداخلية في فلسطين باستثناء القدس والأماكن المقدسة».

أجاب الروس بعد بضعة أيام أنهم لا يهتمون بكل ما يجري في جنوب خط أضنة ديار بكر-أمادية شريطة أن يحافظ على حرية المؤسسات الأرثوذكسية في فلسطين. ولم يكن هكذا الرأي الفرنسي. لقد كتب سايكس يقول: «ما إن بدأ الكلام عن هذا الموضوع مع جورج بيكو، حتى أخرج كل المظلمات الفرنسية منذ جاندرك وحتى ماشودا». ولكن كان سايكس نفسه حائراً فإنه مشدود بين حلمه العربي وضرورة المحافظة على فلسطين للانكليز. فبدا تقديم هذا المشروع غير ملائم قبل اندلاع الثورة العربية وكان هذا رأي لندن المفضل.

لم يحدث أي شيء جديد في هذا المجال حتى نهاية ١٩١٦. واتصل سايكس منذ عودته من بيتروغراد بممثلي المنظمات الصهيونية وبدأ معهم مباحثات غير

رسمية، ولم تحرز تقدماً حتى كانون الأول. وتشكلت في هذا التاريخ حكومة بريطانية جديدة برئاسة ليود جورج وأصبح بلفور وزير خارجيته. كان ليود جورج يؤيد «إقامة دولة يهودية كدريئة منذ إعلان كتاب صموئيل، وكان مدافعاً حماسياً عن كل مبادرة كبيرة في الشرق الأوسط. ولكن فشلت ثورة الشريف أثناء ذلك وفقدت اتفاقات سايكس بيكو سبب وجودها .

بدأ سايكس، الذي عينه الفريق الجديد أمين سر مجلس «وزارة الحرب» الثاني (مجلس الحرب البريطاني المصغر) مباحثات مع الزعماء الصهيونيين، وايزمان واللورد روتشلد، ولكنها كانت غير رسمية، لأن وزارة الخارجية المحافظة على الدبلوماسية القديمة، كانت متمسكة باتفاق سايكس بيكو وكان بلفور يتمنى أن يعطي إدارة فلسطين للأمريكيين.

كان هدف سايكس الأول اقناع الفرنسيين، ودائماً بواسطة جورج بيكو، أن تتحول المنطقة الدولية في فلسطين إلى منطقة انكليزية وكان عليه أن يقنع الصهاينة أولاً أن يتركوا هضاب الجليل للفرنسيين ويدول القدس دون أن يكشف لهم عن اتفاق سايكس بيكو. وقد تم ذلك في ٧ شباط عام ١٩١٧ فمنذ اليوم الثاني كان ممثل الصهيونية يتباحث مع جورج بيكو ولكن بقي هذا الأخير ثابت العزم لا يلين. واستمرت المباحثات في باريس بالاشتراك مع روتشلد من فرنسا وصهاينة روس.واعترفت أخيراً الحكومة الفرنسية بمذكرة في ٤ حزيران ١٩١٧ «بحق إحياء قومية يهودية بحماية الحلفاء» في فلسطين. فتح هذا التصريح، في غياب اتفاق انكليزي فرنسي محتمل، الطريق أمام تصريح انكليزي آخر: تصريح بلفور. وتجسد التصريح بعد تحضير طويل استمر طيلة صيف ١٩١٧ في الثاني من تشرين الثاني تحت شكل رسالة موجهة من بلفور إلى اللورد روتشلد يخبره فيها «أنه يسره كثيراً أن يرسل إليه باسم حكومة جلالتها اعلان ود مؤيد للمطامع الصهيونية اليهودية، وقد عرض ذلك الاعلان على مجلس الوزراء وصدقه» كان يقول النص : «إن حكومة

جلالتها تنظر برضى إلى إقامة موطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي». دون أن يحدد دستور هذه المنطقة وحدودها في المستقبل.

نهاية الحرب:

يكوّن وعد بلفور الوثيقة الأخيرة من مجموعة الاتفاقات التي تبحث بتقسيم الامبراطورية العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى. لقد حصل الإيطاليون باتفاقات سان جان دي مورين في ٨ نيسان ١٩١٧ على مقاطعة واسعة في الجنوب الشرقي من الأناضول تمتد من شمال أزميرحتى المقاطعة الفرنسية ولكن بدأ هذا البناء الذي بني بصعوبة كبيرة يتهدم بسرعة.

اندلعت في روسيا ثورة أكتوبر بعد بضعة أيام من وعد بلفور ورفضت حكومة السوفييت الثورية كل الاتفاقات السرية. وكانت النتيجة الثانية والهامة لانهيار النظام الامبراطوري الروسي، توقف الجيش الروسي في القفقاس ثم تراجعه.

ترجع تركيا بمعاهدة بريست ليتوفسك في ٣ آذار ١٩١٨ إلى حدود ١٨٧٧ التي تطابق للحدود الحالية بالإضافة إلى مقاطعة باطوم. وحاول «اتحاد ما وراء القفقاس» المؤلف من جورجين وأرمن وأزيريس والذي لا يعترف بهذه المعاهدة، أن يقاوم تقدم الاتراك فاستغل الأتراك بعد أن وصلوا إلى حدود ١٨٧٧، عدم اعتراف الاتحاد بالمعاهدة لكي يتابعوا تقدمهم ويفرضوا على سكان ما وراء القفقاس الاعتراف بمعاهدة باطوم التي تعيد الحدود التركية إلى حدود ١٨٢٨. ثم تابع الجيش التركي تقدمه نحو بحر كاسبين، إذ قد طلب منه الأذربيجان تحرير باكو حيث استقر السوفييت منذ شهر آذار، وعاد السباق إلى البترول في صيف ١٩١٨.

أعطت اتفاقية سايكس بيكو الموصل إلى فرنسا لكي تضعف من جهة مطالب الفرنسيين بفلسطين ولكي تقيم من جهة ثانية منطقة كدريئة بين الأراضي الروسية في

الشمال والممتلكات البريطانية. وزالت الامبراطورية القيصرية في عام ١٩١٨، واحتلت الجيوش البريطانية القدس وبغداد، لم يعد يأبه أحد باتفاق سايكس بيكو ولكن أصبح ممكناً السيطرة على الإرث الروسي من البترول القفقاسي. فكانت تحاول قوات بريطانية منذ أوائل العام أن تأخذ مكان الروس في شمال بلاد فارس، وذهب جيش في آب إلى باكو التي يحاصرها الأتراك.

سببت الاقتراحات المقدمة من الأوساط البترولية في تموز ١٩١٨ إلى قيادة الحربية البريطانية، اصدار مذكرة حول «وضع البترول في الامبراطورية البريطانية». تبين المذكرة أنه من الواضح أن تكون الدولة التي تشرف على الأراضي البترولية في بلاد فارس ومابين النهرين مشرفة على مصدر التزود بالقسم الأكبر من المحروقات في المستقبل «وكان على بريطانيا نتيجة لذلك» أن تحافظ مهما كان الثمن على سيطرتها على حقول البترول في بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين وعلى كل مصادر أخرى تتواجد في الامبراطورية البريطانية دون أن تسمح لتدخل أي منتفع غريب.

اتصلت الأوساط البترولية ذاتها بدون شك بالسير موريس هانكي أمين وزارة الحرب البريطانية. فكتب بدوره في ٣٠ تموز ١٩١٨ إلى القيادة البحرية يقول: « يجب أن يكون الاحتفاظ بمقاطعات بترولية في بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس وبالحدود الاستراتيجية الضرورية لحمايتها، هدفاً حربياً بريطانياً من النوع الأول » وأضاف في رسالة ثانية موجهة إلى بلفور «أنه سيحتل البترول في الحرب القادمة المكان الذي كان يحتله الفحم الحجري في هذه الحرب». وطلب من ليود جورج أن يعود إلى الهجوم العسكري ضد الموصل حتى ولو أن لا مبرر لها عسكرياً لكي يستطيع ضمان السيطرة على الحقول النفطية. وأعلن بلفور أمام الوزارة الملكية في ١٣ آب ١٩١٨، «أنه لا يعتقد أن توسع الامبراطورية البريطانية عمل مستحب نتيجة حرب مستثنياً بلاد ما بين النهرين». وصرح اللورد كورزون بعد يومين ببساطة أنه لا يوجد بلد في العالم قادر على أن يهتم ببلاد ما بين النهرين إلا بريطانيا العظمى. ولا يهمه أبداً أن

تتهم لندن في هذه المناسبة أنها «رأسمالية واحتكارية وامبريالية».

كان هذا التهجم موجهاً إلى الولايات المتحدة بدون شك التي كانت وهي متخفية خلف خطابات الرئيس ولسون الإنسانية، تدفع بسياستها جهاراً إذ كانت تسعى إلى الحصول على امتيازات لأجل شركاتها الخاصة في كل مكان في العالم، ولم يكن سراً على أحد اهتمام شركة استندار أويل بيترول الشرق الأوسط.

أعطيت الأوامر لمتابعة الهجوم نحو الموصل نتيجة لهذه المواقف وأجبر استسلام بلغاريا، تركيا على أن تطلب بدورها هدنة، ولما وقعت الهدنة في ٣٠ تشرين الأول ، كانت الجيوش البريطانية متواجدة في جنوب الاسكندرون وفي جنوب الموصل وقد احتلت فقط حلب، ولكن أمرت لندن بتقدم وحداتها العسكرية لكي تحتل الاسكندرون وأضنة والموصل، وتم ذلك في النصف الأول من شهر تشرين الثاني.

يجب تجديد الاتفاقيات

كانت تحتل انكلترا عسكرياً في نهاية الحرب، الشرق الأوسط العثماني كاملاً حتى مشارف هضبة الأناضول، علماً أنه قد وعدت فرنسا بمقاطعات كبيرة منها. وأسفرت المحادثات التي بدأت في لندن في أيلول ١٩١٨بين سايكس بيكو عن الاتفاق التالي حول الإدارة المؤقتة للمقاطعات المستولى عليها: تدار مقاطعة الممتلكات الفرنسية المعلن عنها في اتفاق عام ١٩١٦ (باستثناء كيليكية التي لم تكن محتلة بعد) من قبل الفرنسيين. وتدار فلسطين (المنطقة الدولية حسب اتفاق سايكس بيكو من قبل الانكليز، وتدار المقاطعة التي تحت النفوذ الفرنسي من قبل العرب، ويعني ذلك من قبل البريطانيين. وتخضع الإدارة الفرنسية بالإضافة إلى ذلك، إلى الجنرال الانكليزي «اللينبي» «Allenby»، وأصرت حكومة بريطانيا على أن توضح بعد ذلك حالاً في مذكرة موجهة إلى باريس، «أنه في ما يخص الحكومة المستقبلية للأراضي المذكورة

في الاتفاق الفرنسي الانكليزي ١٩١٦، تعتقد حكومة جلالتها أن من واجبها أن تنبه بأن الوضع العام قد تغير كثيراً منذ أن أصبح هذا الترتيب قيد التنفيذ، حتى أنه لا تبدو ترتيباتها القديمة مطابقة للشروط الحالية. ليس فقط قد تغير الوضع الحربي في بلاد ما بين النهرين وفي فلسطين وسورية، بل قد حصل تغيران هامان جداً: لقد دخلت الولايات المتحدة في الحرب وخرجت روسيا منها».

تأكدت الحكومة الفرنسية من هذه الحقيقة بعد أسبوعين فكان عليها إعادة النظر في كل شيء إذ واصلت المباحثات في مجالين إقليمي واقتصادي.

أكد بيرانجيه المفوض العام للمحروقات في تقرير موجه إلى بيكون وزير الخارجية، على أهمية بترول ما بين النهرين لفرنسا. وعندما أوفدته حكومته إلى لندن اتصل «بشل» التي – غير راضية عن اتفاقات ١٩١٤ حول شركة البترول التركية- كانت تسعى لتقوي مركزها بمساعدة الحكومة الفرنسية. اقترح «بيرانجيه» عند عودته الحل التالي: تباع ٢٥٪ من أسهم «دوتش بنك» في T.P.C التي حجزتها الحكومة البريطانية. ويملك المساهمون الآخرون، حسب القانون، حق الأولوية في الشراء فاشترت «شل» هذه الحصص لتتخلى عنها لشركة فرنسية، وأصبح من الضروري إذاً الحصول على موافقة الحكومة البريطانية لكي لا تدخل شركة «A.P.O.C» في هذه العملية.

كان «كليمنصو» في لندن في الرابع من كانون الأول ١٩١٨. وقد اجتمع «بليود جورج» في استقبال السفارة الفرنسية، «وعندما أصبحا لوحدهما قال كليمنصو: عما سنتكلم؟ – أجاب ليود جورج عن ما بين النهرين وفلسطين – أجاب كليمنصو قل ما تريد – رد ليود جورج أريد الموصل- أجاب كليمنصو: ستحصل عليها ولكن سيضع بيكو عقبات لقضية الموصل». بدأت المحادثات البترولية في باريس بعد بضعة أيام بين بيرانجية وسيرجون كادمان نظيره البريطاني.

كان الانكليز مستعدين للاسراع مثل الفرنسيين لأنهم كانوا يخافون العروض

التي يقدمها الأمريكان في شركة «استندر أويل» لفرنسا من جهة، ويأملون أن يقنعوا بهذا الحل شركة «شل» لكي تدخل في الفلك البريطاني من جهة أخرى، وأعلنت مذكرة من السفارة الفرنسية في لندن منذ ٦ كانون الأول ١٩١٩ أنه قد تم الاتفاق على الأسس التي اقترحها «بيرانجيه» في مذكرته المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني.

جرت المباحثات بسرعة رغم معارضة وزارة الخارجية التي كانت تريد أن تجعل فرنسا أن تقبل رسمياً بالغاء اتفاقيات سايكس بيكو، وانتهت في ١٣ آذار باتفاق يسمى «لونغ بيرانجيه». وكان ولتر لونغ وزير النفط في هذه الآونة الأميرال الأول في القيادة البحرية. وكان يحسب بترول ما بين النهرين ٢٥٪ باشتراك فرنسي في شركة (T.P.C) حسب اقتراح بيرانجيه، ٧٥٪ باشتراك انكليزي (شل + A.P.O.C) وسمحت فرنسا ببناء خط أنابيب باتجاه المتوسط عبر الأراضي التي ستحصل عليها في سورية.

كانت فرنسا بالمقابل مستعدة أن تتنازل عن مطالبتها بالموصل. وتذكر في مذكرة سلمها بيكون إلى ليود جورج في ٦ شباط أنها تقبل «بنقل الحدود الشرقية في منطقتها في حوض الخابور» أي الحدود الحالية بين سورية والعراق في شمال الفرات. ولكن رفض الانكليز في الاجتماع الذي تبع في ١١ شباط أن يعطوا إدارة سورية للفرنسيين قبل أن يتوصل هؤلاء إلى اتفاق مع فيصل ابن الشريف الذي كان في باريس.

استمر حوار خفي أثناء الاجتماعات ١٠ و ٢٠ آذار ١٩١٩، وكان الاجتماع الأخير مكون من مجلس الأربعة: كليمنصو- ليود جورج- ولسون رئيس الولايات المتحدة - أورلاندو رئيس وزراء إيطاليا. فاقترح ولسون أمام هذه الأزمة إرسال لجنة تحقيق لتحديد رغبات السكان.

كان كافياً ظهور طامع ثالث حتى يتفق الانكليز والفرنسيون إذ كانت الولايات المتحدة مشتبها بأنها تريد الانتداب لها. وأنهى اجتماع خبراء فرنسيين وانكليز من

وضع اللمسات الأخيرة في ٢٥ آذار لمشروع إقامة مملكة دستورية سورية ملكها فيصل ومجلس نواب سوري تحت انتداب فرنسي حسب النموذج المصري. واجتمع كليمنصو بفيصل نتيجة لهذا الاتفاق وأرسل له في ١٧ نيسان رسالة تعلن أن فرنسا تعترف بحق سوريا بالاستقلال «وأنها مستعدة أن تقدم له العون المادي والمعنوي» وكان على فيصل أن يعترف مقابل ذلك «أن فرنسا هي الدولة المؤهلة لتقدم إلى سورية هذا العون». وأعلن كليمنصو في ٢٢ في مجلس الأربعة أن فيصل أجاب بالإيجاب وتم الاتفاق إذ لم تبق ضرورة لإرسال لجنة إلى سورية.

ظهر بعد بضعة أيام أن فيصل لم يجب بالرضى على الأقل خطياً. فاكفهرت الآفاق مجدداً بين الفرنسيين والانكليز. وانفجرت العاصفة في ٢١ أيار عندما رفض كليمنصو أن يشترك في اللجنة قبل مغادرة القوات الانكليزية من سورية، ورفض الليود جورج أن يسحب القوات قبل إعادة النظر في الحدود الشمالية لفلسطين. فأجاب كليمنصو أنه في هذه الحال لا يسمح بمرور الطريق الحديدية أو خط الأنابيب بأراضيه. وسحب ليود جورج في النهار نفسه اتفاق «بيرانجيه لونغ» التي لم تكن قد صدقته بعد الحكومتان وهكذا عدنا إلى نقطة الصفر.

الأزمة الفرنسية الإنكليزية وحلها الخريطة -رقم ٢١-

كان صيف ١٩١٩ صيف الأزمة السورية في العلاقات الفرنسية الانكليزية ولكن كانت عناصر جديدة تنمو تدريجياً لتحضر حلاً. وكانت الأزمة الاقتصادية بعد الحرب تظهر من جهة أن الدولة البريطانية نفسها لها حدودها ولا تستطيع أن تحتفظ بقوات في كل مكان في العالم وإلى الأبد، ومن جهة ثانية لقد ظهرت الحركة الوطنية التركية.

عندما تطالب الحركة الوطنية كحدود للدولة الوطنية التركية الجديدة بحدود

معاهدة «بريست ليتوفسك» وحدود هدنة ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨ تجعل الاحتفاظ بالأراضي التي أعطيت إلى جمهورية أرمينية والدفاع عن كيليكية وشمال سورية والموصل صعب أكثر. وكانت الجيوش البريطانية تحتل مجموع هذه الأراضي. وإذا أرادت الاختيار فمن الواضح أنها تختار الموصل.

بناء عليه قرر الانكليز أن يبدأوا باخلاء المكان الأقل أهمية بنظرهم، أرمينية، وكان مقرراً أن تحل مكانهم قوات إيطالية ولكن رفضت إيطاليا بسرعة تلك الهدية المسمومة، لقد كان الموضوع موضوع الساعة في اجتماع رؤساء البعثات إلى مؤتمر السلام في باريس في ٢٥ آب ١٩١٩، فصرح كليمنصو أنه لا توجد أية وسيلة لانقاذ الأرمن بما أن انكلترا تريد أن تكون في كل مكان.

استغل بلفور الفرصة وأوضح أنه ليس لدى بريطانيا أي اعتراض على أن تحل فرنسا مكانها في أرمينية. فاستشار كليمنصو قيادته الحربية وقدم بعد أربعة أيام بين عشرة واثنا عشر ألف رجل ولكن بدل أن يرسلها إلى باطوم اقترح أن ينزلها في مرسين والاسكندرون ومن هنا تنطلق لتصل إلى أرمينية. فكان واضحاً للانكليز أنها خدعة لارسال قوات إلى كيليكية وأصبح التراجع صعباً. ودفع ذلك بليود جورج إلى حل القضية حلاً كاملاً. فدعا اللورد اللينبي القائد العسكري للأراضي المحتلة إلى دوفيل حيث كان يمضي عطلته. ووجه مذكرة بعد سلسلة من الاجتماعات في ٩ أيلول يعلن فيها قرار الحكومة البريطانية ببدء اخلاء كيليكية وسورية اعتباراً من أول تشرين الثاني وإنه مستعد للتفاوض في أي وقت حول الحدود بين فلسطين وسورية وبين سورية وبلاد ما بين النهرين. ويجب أن تسمح فرنسا مقابل ذلك بعبور طريق حديدية وخط أنابيب بترول في هذه الأرض. واكتفى كليمنصو في الاجتماع الثاني من المؤتمر في ١٥ أيلول أن يقبل العرض وطلب أن تترك المباحثات حتى تسوية السلام العامة مع تركيا.

وصل كليمنصو وفريقه إلى لندن في ١١ كانون الأول ١٩١٩ لكي يناقش

مقدمات هذا السلام. فقدم فيليب بيرتيلو ممثل وزارة الخارجية الفرنسية إلى اللورد كورزون مذكرة حول البترول في اجتماع عقد في النهار نفسه. وقرر الرجلان أن يلتقيا ليتباحثا حول الحدود السورية الفلسطينية إذ أوصت دراسة قامت بها وزارة الخارجية البريطانية بعد يومين بالعودة إلى المباحثات البترولية مستندة إلى اتفاق «لونغ بيرانجيه» الذي كان يبدو مرضياً. فذهب وزير البترول الانكليزي سير همار غرينوود، حالاً إلى باريس وتم اتفاق جديد، اتفاق كليمنصو بيرانجيه، وكان جاهزاً في ٢١ من الشهر. يتبنى هذا الاتفاق عناصر الاتفاق الماضي، ولكن وافق الفرنسيون هذه المرة على عبور خطي أنابيب بترول وخطين حديديين فوق أراضيهم. واختلف كورزون وبورتيلو من جهتهما حول مسألة استخدام مياه الأردن والسيطرة على هضبة الجليل الأعلى، واكتفى المؤتمر العام في ٢٣ كانون الأول بأن يتحقق من خلافهما.

استمر هذا التطور البطيء في أوائل ١٩٢٠. وألغى اجتماع وزاري بريطاني انعقد في ٢٣ كانون الثاني، الاتفاق النفطي الجديد وطلب «أن تأخذ الدولة الأرباح العائدة من استثمار الحقول النفطية في ما بين النهرين بدل من الشركات الخاصة». وكان ذلك نصراً لشركة (A.P.O.C) على «شل».

انحلت قضية الحدود السورية الفلسطينية أثناء كتابة معاهدة السلام مع تركيا إذاتنازلت فرنسا عن الجليل الأعلى واستنكفت بريطانيا عن مطالبتها بحوض نهر الليطاني.

وحد الخوف من رؤية «شل» والحكومة الفرنسية تتجه نحو «استندر أويل كومباني»، قيادة البحرية وغرفة التجارة ووزارة البترول البريطانية ضد «المتصلبين» في وزارة الخارجية. واجتمع ليود جورج بـ ميلليراند رئيس المجلس الفرنسي في ١٨ نيسان ١٩٢٠ في سان ريمو ليقررا العودة إلى المباحثات. فطالب ميلليراند هذه المرة بـ ٥٠٪ من حصص شركة (T.P.C)، وطلب إليه ليود جورج إذا كان يريد أن يأخذ إدارة الموصل. فرفض ميلليراند العرض سياسياً ووقع بالأحرف الأولى اتفاقاً ثالثاً

سمي اتفاق كادمان برتيللو نسبة لأسماء المفاوضين أو اتفاق سان ريمو في ٢٤ من الشهر نفسه وكان يشبه بخطوطه العريضة الاتفاق السابق فتبناه رؤساء وزارة البلدين في اليوم الثاني.

الحدود الأرمنية

اهتم مؤتمر سان ريمو أيضاً بمسألة مزعجة، مسألة الدولة الأرمنية المستقبلية، فقد حمل إبادة الأغلبية الكبيرة من الأرمن القاطنين في المقاطعات العثمانية أثناء التهجير عام ١٩١٥والمذابح التي رافقتها ديّناً أخلاقياً إذ كان الحلفاء قد استغلوا إلى أقصى حد بؤس هذا الشعب لكي يحولوا الرأي العام لصالحهم. فأصبحوا ميالين قليلاًلتكريمه.

احتلت الجمهورية الأرمنية المحدثة في ولاية يرڤان الروسية في أيار ١٩١٨، بموافقة العثمانيين بعد الحرب ولاية«كارس» التي كانت روسيةً منذ عام ١٨٧٧ وإلى عام ١٩١٨. ولكن كان الأرمن يطالبون بجميع الولايات العثمانية الست التي مُنحت حكماً ذاتياً عام ١٩١٤ مع كيليكيا. ولم تكن قوات الجمهورية الأرمنية كافية ليس فقط لتستعيد تلك المساحات الشاسعة بل أيضاً لتحافظ على ولاية كارس التي تطالب بها الحركة الوطنية التركية.

ما دامت انكلترا تحتل القفقاس كان أمن الجمهورية الأرمنية محفوظاً. ولكن غادر الانكليز الأرض ووجد الفرنسيين أنفسهم محاصرين في كيليكيا. فأراد الحلفاء الأوروبيون أن يتخلصوا من هذا العبء فقدموه إلى الولايات المتحدة. وكانت إنسانية رئيسها المعلنة ودعاية مراسليها الموالية للأرمن تحمل على تعيين هذه الدولة منتدبة لأرمينية. وقد أرسل الرئيس ولسون في آب ١٩١٩ لجنة تحقيق على الأرض. فقدمت اللجنة التي يرأسها هاربورد تقريرها في تشرين الثاني وكان يتضمن أربع عشرة بينة

تؤيد قبول انتداب الولايات المتحدة على أرمينية وثلاث عشرة بينة ترفض ذلك الانتداب. وكان في المجموعة الأولى البينات الإنسانية بينما تنقل المجموعة الثانية البينات الاقتصادية.

. بدأ الحلفاء المجتمعين في لندن في الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠ لكي يحضروا معاهدة السلام مع تركيا، يميلون أمام هذا الوضع نحو أرمينية مصغرة ضمن ثلاث ولايات في الشرق، ولاية بيتليس وڤان وأرضروم مع منفذ على البحر الأسود في ترابزون. واقترحت لجنة مكلفة بتثبيت حدود الدولة الأرمنية الجديدة على المؤتمر في ٢٧ شباط حدوداً لا تشمل ترابزون وايرزينكان. فقرر المؤتمر استناداً لهذه الأسس في ١٢ آذار أن يوجه نداء إلى هيئة الأمم ليطلب منها أن تتبنى الانتداب على أرمينية. ولكن رفضت هيئة الأمم الطلب لأنها لا تملك الوسائل العسكرية والاقتصادية.

وجد المشتركون في مؤتمر سان ريمو أنفسهم مجبرين أمام رد هيئة الأمم السلبي والمفاجيء على أن تصغر الأراضي الأرمنية ثانية فأخذوا منها ارضروم. وتقرر أخيراً بعد سلسلة من المباحثات أن يطلبوا من الرئيس ولسون أن يقبل الانتداب أو يضع حدوداً لأرمينية. فطلب ولسون من المجلس الأمريكي، فرفض أن يتبنى الانتداب بـ ٥٢ صوت مقابل ٢٣ صوت في ١٤ أيار.

أعلنت خريطة أرمينية الجديدة التي وضعها ولسون في ٢٢ تشرين الثاني. فكانت تعطي أرمينية ليس فقط ارضروم بل أيضاً ايرزانكان و ترابزون وساحل البحر الأسود حتى مشارف كيرسون. وعندما بدأ جيش مصطفى كمال الهجوم في هذا التاريخ استعاد كارس واحتل أيضاً الكسندروبول (لينينكان) وهدد حتى وجود الجمهورية الأرمنية. وعندما ظهر الجيش الأحمر على حدودها بعد أسبوع من ذلك، أقام جمهورية أرمينية السوڤييتية الاشتراكية وحافظت تركيا على حدودها عام ١٨٧٧.

الاتفاقات الأخيرة

وجد أسياد الشرق الأوسط أنفسهم مرتبكين في ممتلكاتهم. لقد أعلن «مؤتمر سوري» في ٨ آذار ١٩٢٠ فيصل ملكاً على سورية، ووضع فيصل نفسه تدريجياً في خلاف مع فرنسا. واندلعت أيضاً ثورة في بلاد ما بين النهرين في تموز. ولكن بدا أن حركة مصطفى كمال الوطنية التركية أشد خطراً. فلم تستطع القوات الفرنسية التي هوجمت منذ أوائل الاحتلال في كيليكية أن تصمد إلا في بعض مدن كبيرة في السهل في أوائل صيف ١٩٢٠. ولم تغير الهدنة التي فاوض بها، الفرنسيون الوضع، وبدأت فرنسا منذ أواخر العام تبحث عن تسوية مع حكومة أنقرة التركية. فتم أول اتفاق في لندن في ١١ آذار ١٩٢١ أثناء المؤتمر المكلف باعادة النظر في معاهدة السلام مع تركيا الذي كان يضع حداً بين تركيا وسوريا يمتد من شمال الاسكندرون ويلتقي بالحدود التركية السورية الحالية عند نقطة التقاء طريق بغداد الحديدي. لقد رفضت أنقرة هذا الاتفاق بسبب الامتيازات الاقتصادية التي منحها للفرنسيين في المقاطعات التي يطالبون بها. فتحددت المباحثات بعد فشل الهجوم اليوناني في أيلول ١٩٢١ وأسفرت عن اتفاق أنقرة في ٢٠ تشرين الأول يشبه الاتفاق السابق فيما يخص الحدود. تطابق هذه الحدود، الحدود التي تطالب بها الحركة الوطنية التركية أي خط حدود هدنة عام ١٩١٨ باستثناء مقاطعة اسكندرونة وتنازلت فرنسا المنتدبة على سورية عن لواء اسكندرون لتركيا في عام ١٩٣٩، لكي تصالحها في حال عمل محتمل ضد الاتحاد السوفييتي.

كان الانكليز بالمقابل يتمسكون بتوحيد مقاطعاتهم في بلاد ما بين النهرين في مملكة العراق فأقاموا عليها فيصل الذي طرده الفرنسيون من سوريا. ووقعت المعاهدة المؤسسة للملكة في ١٠ تشرين الأول ١٩٢٢، وفي اليوم نفسه، أنهت هدنة مودانيا بعد هزيمة اليونان، الحرب ضد حكومة أنقرة التركية. ولكن لم يكن بين تركيا والعراق

حدود مشتركة إذ لا زالت أنقرة تطالب بالموصل الذي احتله البريطانيون بعد هدنة ١٩١٨. لقد سوى مؤتمر لوزان المنعقد في تشرين الثاني ١٩٢٢ وحتى تموز عام ١٩٢٣ كل الخلافات حول الأراضي بين تركيا وأعدائها باستثناء خلاف الموصل الذي أحيل إلى تحكيم هيئة الأمم. فتشكلت لجنة دولية مكلفة بوضع الحدود . فرسمت أخيراً في عام ١٩٢٦ على خط الحدود بين الاحتلال التركي والبريطاني.

انتهت الأزمة مثلما بدأت بشركة البترول التركية إذ تقدمت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٢٠ بمبدأ «الباب المفتوح» فرفضت أن تعترف بمبدأ الاحتكار الذي وضعته الدول المستعمرة على المقاطعات التي تحت سيطرتها. وعادت مسألة ما بين النهرين ثانية إذ طلبت حكومة الولايات المتحدة مساهمة أمريكية في شركة البترول التركية (T.P.C). وطلب تشرشل المسؤول عن بلاد ما بين النهرين كونه وزير المستعمرات الأول في مذكرة إلى كورزون في أول شباط ١٩٢٢، أن يبدأ باتصالات مع شركة استندر أويل كومباني. وبدأت الاتصالات في صيف العام نفسه وتوقفت أثناء مؤتمر لوزان وعادت إلى المتابعة بعد سلسلة من المخاطر معقدة وغامضة.

أجبرت دولة العراق الجديدة المؤسسة تحت انتداب بريطاني على توقيع تنازل في ١٤ آذار ١٩٢٥ ينقل بموجبه حقوقه في بترول أراضيها إلى شركة البترول التركية (T.P.C). وقع الاتفاق النهائي في ٣١ تموز ١٩٢٨، تتنازل شركة (A.P.O.C) في هذا الاتفاق عن نصف أسهمها إلى شركة أمريكية يتألف نصفها الأول من شركة استندر أويل كومباني في نيوجرسي (ESSO الحالية) ومن استندر أويل كومباني في نيويورك (موبيل الحالية). فكان توزيع رأس المال الجديد اراك بتروليوم كومباني (شركة العراق البترولية) بنسبة ٢٣،٧٥٪ لكل واحد من المجموعات الكبيرة الأربع : (A.P.O.C) و (شل) والأمريكان و ٥٪ لفيلنينكيان.

لقد حان الوقت إذ تدفق البترول لأول مرة في تشرين الأول ١٩٢٧ في كركوك. ولم يصل الاستخراج إلى كمية تجارية إلا في أواخر الثلاثينات ١٩٣٠ ولم تتوصل

إلى الانتاج الكبير إلا في الخمسينات ١٩٥٠. وأممت الحكومة العراقية الشركة عام ١٩٧٢.

إن أول عنصر ثابت يبرز في التداخل المعقد في المطامع ونوه عنه بالايجاز في هذا المقال هو غياب استشارة سكان هذه الأرض عند وضع الحدود أو حتى في تكوين دول جديدة. وكانت تركيا تشكل حالة شاذة. إذ كانت الامبراطورية العثمانية هي الخاسر الأكبر في هذه المنطقة في العالم، ولقد توصل ورثة هذه الامبراطورية أن يحدثوا «الحركة الوطنية»، فاستطاعت بمهارة أن تستغل انقسام الحلفاء وبرهنت عن حبها للقتال على الأرض، ففرضت على الدول الاعتراف بالواقع التركي الوطني وبمعظم مطالبها بالأراضي.

والعنصر الثاني الثابت عنصر البترول. إذا استثنينا الإدارة العامة للقوة التي نستطيع أن نسميها الامبريالية والتي جسدها كيتشينر وفريقه في البدء ثم ليود جورج وحاشيته، ولكنه اضطر على التراجع أمام الواقع، وكان البترول يسير من البدء حتى النهاية، سياسة انكلترا وفرنسا في الشرق الأوسط، ولم تكن المداخلات التي بدت بعيدة مثل حملة اليونان في آسيا الصغرى الغربية أو توطين الصهيونية في فلسطين، بنظر لندن، إلا عناصر في الشطرنج كبيرة للعبة البترول. وقد استفادت العربية السعودية بتوسعها (استولى ابن سعود على مكة عام ١٩٢٤) ودمرت المشروع الانكليزي الذي كان يهدف إلى إقامة مملكة عربية هاشمية كبيرة، بدعم من شركات البترول الأمريكية التي أسست فيما بعد الشركة العربية للزيوت عام ١٩٣٣ التي أصبحت (ARAMCO-أرامكو) عام ١٩٤٦. فاذا كانت الحدود الحالية نتيجة سياسة خارجة عن نطاق نشاط هذه البلاد الداخلي فلا تزال هذه السياسة ترهق الشرق الأوسط.

٧-لواء الإسكندرون - تكوين مقاطعة وضمها

قضية لواء اسكندرون مسألة شاذة فانها مقاطعة وجدت من لا شيء، ورفعت إلى مصاف الدول المستقلة ثم ابتلعتها تركيا إنها مثل كل الحالات المتطرفة كاشف جيد لعملية تكوين اقليمي لدول الشرق الأوسط.

الوضع قبل ١٩١٨ (خريطة رقم -٢٢-)

كان لواء اسكندرون أو «الهاتايا» حسب التسمية التركية، ممراً قبل أن يكون مقاطعة: إنه ممر اجباري للطريق التي تربط الأناضول بسورية وتجتاز سلسلة الأمانوس عند ممر بيلان (بيلين)، وكانت مكان تبادل بضائع تجارة الشرق الكبيرة بين المتوسط والصحراء بواسطة مرافى باياس (باكاسيك اليوم) أو اسكندرون. ولكن تتضمن كلمة ممر عكسها أي الحدود. كانت حدود الأمانوس حامية الأناضول ضد سوريا أو العكس – ويجب أن لا ننسى أن في إيسوس بين باياس والاسكندرون وقعت المعركة في ٣٣١ ق.م – بين داريوس والاسكندر التي فتحت للأخير كل الشرق الأوسط – وكان الطرف الشمالي للحدود الجبلية الممتدة من الأمانوس إلى جبل لبنان مارة بجبل الأكراد والنصيرية تسهل السيطرة على البحر المتوسط إن اعتمد على المسيحيين المنشقين وغير العرب ضد العالم العربي السنّي. وحاول الصليبيون هذه المحاولة في القرن الحادي عشر– وسلف اللواء هي إمارة انطاكية– وتجددت المحاولة باتفاق سايكس بيكو عام ١٩١٦ إذ منحت المنطقة الساحلية نفسها لفرنسا، وكان ذكر الحملات الصليبية واضحا في المطالبة كما كان في السياسة الفرنسية في الشرق الأوسط في ذلك العصر.

يجب أن تكتمل هذه الصورة الجغرافية الاستراتيجية بصورة السكان. لا

تسهل الممرات الكبيرة في هذه المنطقة ازدهار السكان. فلم يكن الساحل غير الصحي مأهولاً كثيراً قبل عصرنا. وكان الجبل ذو الطابع الخاص ملجأ للمسيحيين الشرقيين والمسلمين المنشقين، وجعلها هذا الوضع تأخذ الاسم التركي (غاڤور داغ) أي (جبل الكافرين). وكان «سهل عميق» غير الصحي أيضاً في شرق الأمانوس في عهد العثمانيين أرض ممر ومشاتي للقبائل التركمانية.

وضعت الأسس الأولى للتكوين الاداري لتلك المجموعة المتنوعة عام ١٨٦٧، عندما نزل جيش عثماني في الاسكندرون لكي «يهدىء» ويحضر القبائل التركمانية. وقد تمت عملية مماثلة في الشمال في منطقة أضنة وفي بلاد الأكراد. تأسست حينذاك بواسطة هذه الحملة في الشمال وفي الجنوب من وادي كراسو رافد العاصي، قرى اصلاحية-حسا-ريحانية-عواصم الأقضية التي تحمل هذا الاسم والمخصصة لتسكن القبائل الحضرية. غيرت هذه العملية جذرياً خلال عشرات السنين الوضع الاجتماعي في السهل. فتحول زعماء القبائل التركمانية إلى ملاكي أراضي كبار بينما شكلت القاعدة طبقة فلاحين عمال، علويين ناطقين بالعربية. ووضعت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ وتبعتها الاضطرابات والاضطهادات ضد الأرمن عام ١٩٠٩، فوارق جديدة، لقد حلت طبقة جديدة من الأعيان الوحدويين مكان القدماء الذين لجأوا إلى داخل المعارضة الليبرالية، ونجد بين هؤلاء عدداً كبيراً من أعيان عرب انطاكية الذين جذبتهم مطاليب فيصل في أواخر الحرب الكبرى. ولم تسهم هذه التغيرات في اظهار كيان خاص. وكانت أقضية الاسكندرون وبيلان وانطاكية وريحانية تابعة لولاية حلب. بينما ترتبط بياس وحسا بولاية أضنة.

لقد تم فتح هذه المقاطعة إلى فرنسا في المباحثات السرية أثناء الحرب العالمية الأولى على ثلاث مراحل: طالبت فرنسا أولاً بسورية الكبرى التي تمتد من طوروس حتى غزة أثناء الاتفاق حول منح روسيا القسطنطينية عام ١٩١٥. وتحفظت بريطانيا أثناء المراسلة بين الشريف حسين وسير هنري مكماهون فقد طالبت مقابل المطالبة

العربية بجميع المقاطعات الموجودة إلى جنوب الخط مرسين-أضنة-أورفة-ماردين-جزيرة ابن عمر-أماديا، أن تبقى المناطق الموجودة في الغرب من الخط شمال جنوب أي حلب-حماة-حمص- مع فرنسا. وعندما حاولت اتفاقات سايكس بيكو أخيراً في شباط ١٩١٦ توحيد المرحلتين الأوليتين، منحت لفرنسا ساحل المتوسط في الغرب من الخط الذي ذكر سابقاً حتى حيفا في الجنوب، بينما أصبح ما تبقى من سورية الحالية دولة عربية تحت نفوذ فرنسي وكانت المقاطعة التي لم تأخذ بعد اسم لواء اسكندرون مفصولة حسب دستورها عن باقي سورية نظراً لتلك الترتيبات.

من الاحتلال الفرنسي حتى اتفاق أنقرة (١٩١٨-١٩٢١)

تهيأ أعيان انطاكية للانضمام إلى الحركة الوطنية في تشرين أول ١٩١٨ أمام تقدم القوى الانكليزية العربية نحو حلب. فخاف القائم مقام نفسه وقرر أن يتصل برؤسائه، فأبرق في ١٨ تشرين الأول إلى قائد الحامية (٤١) المتمركزفي بيلان ليطلب إليه خطة عمل. وجد القائد العملية ضرورية واعتقد أنه من «الأفضل اعلان حكومة عربية لكي يبعد الاحتلال الأجنبي» «لأن العرب مسلمون» وتمنى أن يجعل الله هذه العملية ناجحة. واجتمع وجهاء انطاكية في ٢٦ تشرين الثاني بعد يومين من سقوط حلب وأعلنوا حامية المدينة أسيرة «وأعلنوا الحكومة العربية الهاشمية القريشية» وارتفع علم فيصل. وأعلن عن وصول أوائل القوات الفيصلية في اليوم الثاني ولكن لم تكن تلك القوات في الحقيقة سوى بعض الفلاحين الذين سلحهم أعيان القيصر وجسر الشغور في المنطقة الجنوبية من انطاكية. وانضمت الريحانية أيضاً بعد بضعة أيام إلى الحركة.

انسحبت القوات التركية المسماة ايلدرين (الصاعقة) بعد سقوط حلب إلى

القطما (اليوم أرض سورية) حيث استطاعت أن توقف في ٢٦ تشرين الثاني مقدمة القوات البريطانية، بينما تمركزت القوات التركية في خط يمتد من رأس الخنزير- المدخل الشرقي لخليج اسكندرونة- إلى شمال نهر العاصي لكي تحمي ممر بيلان والاسكندرونة تاركة انطاكية. وتواجدت في هذه المراكز عندما دخلت هدنة ٣٠ تشرين الأول حيز التنفيذ في ٣١ تشرين الأول ظهراً.

إن تلك التفاصيل هامة جداً لأنها ستطالب الحركة الوطنية التركية بخط الهدنة إذ تعتبرها الحدود للجمهورية الجديدة، ويسمى ذلك الخط بالميثاق الوطني (الميثاق المحلي). واعتبر ضم هاتايا (لواء الاسكندرونة) عام ١٩٣٩ كتنفيذ لتلك الهدنة. وقد أسهم عنصر آخر باعطاء المكان والزمان قيمة عملية لابراز المطالب الوطنية التركية. لقد كان مصطفى كمال نفسه خليفة الجنرال ليمان فون سندرس المستقيل يوم الهدنة من قيادة فرقة الجيش ايلدرين (الصاعقة).

ظهر الخلاف حول تفسير الهدنة منذ اليوم الأول. فلم تكن الهدنة بنظر الحلفاء إلا ميثاق استسلام الجيوش التركية دون حكم مسبق حول تقدم قوات الحلفاء أو حول الحدود في المستقبل. فلا وجود بنظرهم لخط هدنة بينما بنظر الأتراك يعتبر مكان تمركز جيوشهم في ٣١ تشرين الأول عند الظهر خط حدود دولتهم في المستقبل. وحاول مصطفى كمال أن يملأ الفراغ بين الخطوط التركية والخطوط البريطانية. وأمر في ٣١ تشرين الأول باحتلال الريحانية وفي ٣ تشرين الثاني احتلال انطاكية وأرسل كتاب في اليوم نفسه إلى السلطات العسكرية والمدنية في المنطقة يشرح فيها بنود الهدنة ويشترط اخلاء سورية إذ يعتبر حدود سورية في الشمال خط يربط بين اللاذقية وخان شيخون ويمتد نحو الشرق أي على بعد مئة كم من جنوب حلب ويضيف: «يجب أن نتذكر دائماً بأن ضواحي الاسكندرونة وانطاكية وجبل سمعان (اليوم دارة غرة سورية) قطمة وكيليس، مسكن الأتراك. ويعتبر ثلاثة أرباع سكان حلب أتراك يتكلمون العربية وهذا أساس لكل مطلب.

لكن لم يبق الحلفاء مكتوفي الأيدي من جانبهم إذ وصلت ناسفة ألغام فرنسية (أرباليت) في ٣ تشرين الثاني صباحاً إلى خليج الاسكندرون وطلبت مساعدة السلطات التركية لتبدأ بازالة الألغام لكي تحتل المدينة. فقبل مصطفى كمال بازالة الألغام ولكنه رفض الاحتلال. وصرح قائد الموقع منفذاً لأوامره والذي أعلن قبل خمسة عشر يوماً تشكيل حكومة عربية في انطاكية، إلى ضابط الارتباط الانكليزي أنه يقاوم بالسلاح أي انزال. فأمرت قيادة الأركان في استنبول التي هددها الحلفاء وضغطوا عليها لأنهم كانوا يطالبون ليس فقط باحتلال الاسكندرون بل أيضاً بممر بيلان وبطريق حلب، مصطفى كمال بأن يمثل لأمرهم. وحل الجيش الصاعقة (ايلدرين) في اليوم الثاني واستدعي مصطفى كمال إلى استنبول. واحتلت الاسكندرونة في ٩ تشرين الثاني وانسحبت القوات التركيةإلى خط بياس لكيس حدود عام ١٩٢١.

ترك هذا الانسحاب فراغاً. فحاولت القوات المحلية أن تملأها حسب قدرتها ووجه وجهاء العرب نداء لشخصية من كفر كحاريم (اليوم في سورية) ابراهيم هنانو فاحتل المدينة في ٢٤ تشرين الثاني على رأس ٥٠٠ شخص مسلمين وينتمون إلى فيصل، وطرد الدرك التركي، بينما استلم «بيكوات» تركمان السلطة في الريحانية. فكان ذلك الوضع «مؤقت». واحتلت مفرزة بريطانية انطاكية في ٣ كانون الأول وحل مكانها قوات فرنسية قادمة من الاسكندرون في ٧ كانون الأول. واحتل الفرنسيون أيضاً في ١١ كانون الأول الريحانية ونقلوا مركز الإدارة إلى حارم موقع عربي (اليوم في سورية)، ولكن يتكون سكان الريحانية من أكثرية تركية.

سبب الاحتلال الفرنسي حركات مقاومة باسم الحركة الوطنية العربية، وأثار غياب السلطة التركية ثورات فلاحين علويين ضد البكوات التركمان الذين نظموا حركات دفاع عن النفس. ولكن عندما فقد هؤلاء الاتصال بالسلطات التركية التي انسحبت إلى ما وراء جبال طوروس منذ أوائل عام ١٩١٩، انضموا إلى الحركة

العربية.

قبل الانكليز بموجب اتفاق لندن في ١٥ أيلول ١٩١٩ أن يتركوا سورية وكيليكية للفرنسيين حسب اتفاقات سايكس بيكو. فنظم هؤلاء المقاطعات وضموا في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩ أقضية الاسكندرونة وانطاكية وحارم (الريحانية سابقاً) وبيلان، وكونوا فيها لواء الاسكندرون المتمتع بحكم ذاتي. إن هذا اللواء احداث فرنسي وإن التسمية الادارية وحدها تركية (سنجق)، وكان يستخدمها الأتراك لكي يديروا المقاطعات التي لديها مشاكل خاصة ومنفصلة.

لاقت السيطرة الفرنسية المباشرة على سورية وكيليكية مقاومة مسلحة من قبل الحركة الوطنية التركية والعربية. وكانت المقاومة كمالية (نسبة إلى مصطفى كمال) في كيليكية وفيصلية (نسبة إلى الملك فيصل) في اللواء حتى احتل الفرنسيون حلب في تموز ١٩٢٠. وكان يقود تلك المقاومة في اللواء وجهاء انطاكية الذين كانوا على اتصال مع الوطنيين في حلب حتى ولو كان بعض زعمائهم أتراك. ووصلت المقاومة إلى أوجها عند احتلال انطاكية في ٣ آذار ١٩٢٠ وعند حصار الفرنسيين للمدينة في أيار وحزيران من العام نفسه. ودافع البكوات التركمان من جانبهم خاصة عن مصالحهم الشخصية ولكنهم استغلوا البطاقة الفيصلية عندما قاموا بهجوم ضد حارم في ٢١ نيسان ١٩٢٠.

امتدت الحركة الكمالية أكثر فأكثر إلى كيليكية وظهرت في اللواء أيضاً بعد هزيمة القوات العربية وإقامة الادارة الفرنسية في سورية. واتصل طيفور مرسل عضو من أرقى عائلات البيكوات التركمانية، منذ شباط ١٩٢٠، بالقوات التركية التي احتلت ماراش بينما كان ابن عمه على اتصال مع حلب، ولكن بدأت الهجمات التركية على بيلان في ١٤ أيلول ١٩٢٠ وانتهت بهزيمة. وصمدت القوات التركية غير النظامية أمام الفرنسيين طيلة فصل الخريف. وعندما بدأ الفرنسيون هجومهم في الشتاء قضوا على المقاومة نهائياً.

حلت الادارة الفرنسية بعد سيطرتها على سورية ادارات المقاطعات الشرقية والغربية، بقايا اتفاق سايكس بيكو التي لم يبق لها سبب وجود. وشكلوا أربع حكومات: دمشق – حلب – جبال العلويين ولبنان الكبير. وكان لواء اسكندرون الذي بقي محافظاً على حكمه الذاتي خاضعاً لحكومة حلب، ولكنه كبر إذ أضيف له قضاء جسر الشغور ونواحي البوجاق وباير والجبل الأقرع، وجميعها في جنوب اللواء «هاتايا». وتميز هذه التقسيمات الفرنسية الجديدة من جهة داخل المنطقة الساحلية حيث تمتد من الشمال إلى الجنوب، لواء اسكندرون وأراضي العلويين ولبنان الكبير، ومن جهة أخرى، تزيد مساحة اللواء نحو الجنوب لتخفف نسبة سكان تركيا. وكان يبدو ذلك التهديد طبيعياً نظراً للمصاعب التي كانت تعانيها القوات الفرنسية من الكماليين في كيليكية.

تغيرت السياسة الفرنسسية تجاه تركيا الكمالية منذ أوائل عام ١٩٢١ عند قدوم حكومة «بريائد». وأدركت فرنسا أنه من المستحيل أن تحافظ على المقاطعات في كيليكية، فاقترحت أن تراجع حدودها السورية لكي تحتفظ بمكاسبها المالية والاقتصادية والثقافية في تركيا. ووقع أول اتفاق في هذا المضمار في ٩ آذار ١٩٢١ في لندن إذ كان أول مشاركة للكماليين في مؤتمر دولي. وعندما رسم مصطفى كمال الحدود بين باياس وكيليس وضع «نظاماً ادارياً خاصاً» لمقاطعة الاسكندرون واشترط بأن يتمتع «السكان الذين من أصل تركي والقاطنين في هذه المقاطعة بكل التسهيلات لكي يطوروا ثقافتهم».

رفضت أنقرة هذا الاتفاق لأنه يمنح فرنسا مكاسب اقتصادية في كيليكية واستبدل باتفاق أنقرة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٠ ولكن بقيت البنود المتعلقة بالحدود ودستور اللواء على حالها. نستطيع أن نتساءل لماذا قبلت فرنسا تعديل الاتفاق بدون صعوبات، لأننا لا نجد أي دليل على مباحثات حول هذا الموضوع، وسيعتبر هذا القبول فيما بعد كحق لتركيا بأن تتطلع إلى الانتداب على سورية. وحاولت حكومة

أنقرة حقيقة وبكل الوسائل لكي تحصل على المطاليب الموجودة في الميثاق الوطني- وكان اللواء جزءاً منها على الأقل حتى خط انطاكية الريحانية وقد حصل جدال عنيف حول هذا الموضوع عندما صدق مجلس انقرة الوطني الميثاق. وعندما اقتطعت القيادة الفرنسية العليا في الوقت نفسه، بقرارها في أول أيلول عام ١٩٢١، من اللواء، المقاطعات المضافة عام ١٩٢٠ مع حارم وبعد ضم الأجزاء الجنوبية من نواحي باياس وحسية الباقية في سورية، رفعت نسبة السكان الأتراك من ٢٨ ٪ إلى ٣٨٪، وكان ذلك ربما وسيلة لتبعد عن حق المراقبة لتركيا قسماً من هذه المقاطعات، وكانت أيضاً وسيلة لتوطد مطالبها وقد ظهر أن فرنسا تريد أن تبعد مطالبة سورية باللواء أكثر من الغاء المطالبة التركية إذ كانت تخشى القومية العربية أكثر من القومية التركية.

من إتفاق أنقرة إلى المعاهدة الفرنسية السورية (١٩٢١ ١٩٣٦)

لم يأت اتفاق أنقرة بالنتائج التي تمنتها الحكومة الفرنسية وأشارت معاهدة لوزان إلى بداية تصفية طويلة ومؤلمة للمصالح الفرنسية مع تركيا. وكانت العلاقات الفرنسية التركية متوترة طيلة العشرينات ولم تكن قضية اللواء غائبة عن المظلمات المختلفة التي وجهت من الطرفين:

زار مصطفى كمال للمرة الأولى أضنة المحررة أثناء فترة التوتر الواقعة بين توقف مؤتمر لوزان في ٤ شباط ١٩٢٣، واستئنافه في نيسان، وصرح في ١٥ آذار أمام فتاة ترتدي الأسود، رمز مقاطعات الاسكندرون وانطاكية المطالب بها" «لا يمكن أن تبقى أرض تركيا القديمة منذ أربعين قرناً في أيدي العدو». وأسس في أيار بعد بضعة أسابيع، طيفور مرسل وبعض البيكوات التركمان اللاجئين إلى أضنة «دار الاسكندرون وانطاكية» وكان هدفها أن تعمل، «من أجل ضم المقاطعتين إلى الوطن

الأم». ووجهت الحكومة التركية في ٥ تشرين الأول مذكرة إلى فرنسا تتذمر فيها من عدم تطبيق النظام الخاص المتفق عليه في اتفاق أنقرة. فأجابت الحكومة الفرنسية في العشرين منه أن لواء اسكندرون «قد حدد لكي يضم كافة المقاطعات التي فيها أقليات تركية، لأنها بالواقع أقليات. ولا تمتلك مقاطعة واحدة أكثرية تركية» ولم يكن التأكيد صحيحاً إذ تعطي الاحصائيات التي تمت عام ١٩٢٤ لقضاء كيرخان، القسم الموجود شرقي الأمانوس، ١٢٢٠٢ تركياً من أصل ٢٠١٠٠ مواطن. ينقسم السكان في اللواء على الشكل التالي:

اتراك	٤٧٤٤٥	٪٣٧,١٠
علويون	٣٦٩٦٨	٪٢٨,١٤
شيعة	٢٦٧٦٣	٪٢٠,٩٦
مختلفون	٢٢٢٨	٪١,٧٢
عرب	١٤٤٨٢	٪١١,٣١
المجموع	١٢٧٨٨٦	

إن هذه الأرقام غير قابلة للجدل ولكنها تدفع الفئات المختارة إلى بعض الملاحظات لأنها ترتكز على مقياسين مختلفين اللغة والدين. بينما عرف الشيعة والعلويين بدقة بالدين فقط، عرف العرب والأتراك باللغة والدين. وتضم الفئة الأولى أتراك سنّة يتكلمون التركية. والثانية، سنّة يتكلمون العربية. واحتفظت السلطات الفرنسية نتيجة لهذا التقسيم كاداة عمل لكي تنقص عدد المجموعات المطالب بها. فبقي العرب والأتراك أقلية. ولكن بقي المقياس الرئيسي للمطالبة، القومية طالما لا يستطيع العلويين أن يفرضوا هويتهم القومية الخاصة. يبقون عنصر مطالبة من قبل

الأتراك والعرب على السواء. فتحولت اللعبة الفرنسية إلى توازن ضعيف.

عندما علق ديريو المندوب المساعد المسؤول عن اللواء، على المطالب التركية منذ أيلول ١٩٢٥ أن «الحكم الذاتي المطالب به من قبلهم ليس له أي هدف سوى أن يدفعنا إلى إقامة دولة تركية صغيرة ترتبط بالوطن الأم مع الزمن». ولم يكن أحد مخدوع ولكن كان كل واحد يكتفي بتسيير الوضع. وكانت متاعب الفرنسيين قليلة من الجانب التركي لأن السكان الأتراك إذا استثنينا البيكوات الذين لجأوا إلى تركيا، قد تحرروا من متاعب الخدمة الالزامية التي كانت صعبة جداً في عهد العثمانيين، فلم يظهروا ميولاً للمطالبة. وانحصر التوتر تدريجياً رغم تصرفات اللاجئين الأتراك السيئة في أضنة ورغم الحملة الاعلامية التي قامت بها صحافة هذه المدينة خلال عام ١٩٢٤ ورغم زيارة مصطفى كمال المشهورة إلى موقع الحدود في دوريتول في كانون الثاني ١٩٢٥. ومنعت ثورة الأكراد المرتبطة بخلاف الموصل مع انكلترا المنتدبة على العراق، والعقبة الثانية في وجه الميثاق الوطني، الحكومة التركية بأن تقاتل على جبهتين. وتبنت فرنسا أثناء ذلك نظاماً جديداً مستقلاً في اللواء يضمن خاصة استقلاله المالي إذ تضع الدوائر المحلية الميزانية وتصوت عليها. وعندما وقع المفوض السامي هنري ده شوفنيل والحكومة التركية اتفاق الصداقة وحسن الجوار بين تركيا وسورية عام ١٩٢٦ في ٣٠ أيار، بقيت هذه صامتة فيما يخص اللواء وقد اكتفت مراسم التوقيع بذكر البند السابع من الاتفاق ١٩٢١ فيما يخص الحكم الذاتي.

كانت الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٢٦ وإلى ١٩٣٤ فترة هدوء فيما يخص اللواء. ووضع اتفاق عام ١٩٢٦ مسار عملية رسم الحدود التركية السورية وتحديدها ولم تنته إلا عام ١٩٣٠. ولا تتعلق التطورات الكثيرة إلا بالقسم الشرقي من الحدود بين نصيبين وجزيرة ابن عمر (سيزرا). وعندما انفجرت في عام ١٩٣٠ ثورة كردية جديدة في تركية، وتشاورت الأحزاب الكردية (خوابون) والارمنية (طاشناق) في سورية، طالبت الحكومة التركية بابعاد عن المنطقة الحدودية (ومنها اللواء) جميع

الأرمن الذين استوطنوا فيها. وتقدرهم هذه الحكومة بسبعين ألف مو' لن. ورفضت الحكومة الفرنسية طلبها رفضاً باتاً ولكن كرر الأتراك مطلبهم حتى عام ١٩٢٣ واستمر القادة المحليون في الجانب الفرنسي باستخدام سكان اللواء حسب مزاجهم محاولين الاحتفاظ بهم على بعد متساوي بين دمشق وأنقرة. فنتج عن ذلك الروايات الخيالية واللا معقولة إذ أعلن نواب اللواء الاستقلال عام ١٩٢٦ وقُدمت الرئاسة إلى ديريو، أو خطاب أحمد مرسل بتأييد من الفرنسيين لصالح استقلال اللواء في اللا ئة التركية وفي المجلس النيابي في دمشق ١٩٢٨.

تعود جذور الأزمة الختامية للواء التي تفجرت في أيلول ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٤، ولكن ليس من السهل أن نميز الجذور ويصعب أيضاً تحديد دور كل عنصر. يتميز عنصر واحد هو نشاط الحركة الوطنية السورية التي أدركت بعد استقلال العراق ١٩٣٢ أن عليها أن تسلك الطريق نفسها. فنتج عن ذلك مسلكان مسلك فرنسا وأعوانها المحليين الذين كانوا يمتدحون الحركة الانفصالية التركية في اللواء فحافظت عليه بعيداً عن القلاقل السورية. ومسلك تركيا التي كانت تعتبر هذه الأحداث سبباً في سبيل مطالبة مستقبلية.

عندما كان الوالي وقائد شرطة عنتاب (غازيا نتيب) في نيسان ١٩٣٤ في زيارة إلى حلب، دعاهما ديريو ليذهبا إلى انطاكية حيث نظمت الجماعة التركية استقبالاً فخماً مع اعلام تركيا باعداد كبيرة وصور لأتاتورك. فاضطرت قيادة المفوضية العليا أن تكذب نتيجة لذلك شائعات التنازل عن اللواء لتركيا. وبدأ في الفترة نفسها قسم من حزب الشعب، الحزب التركي الوحيد، يتنظم في انطاكية بينما كانت تقارير الملحق العسكري الفرنسي في أنقرة تشير إلى حملة اعلامية تركية من أجل استعادة اللواء. وعندما زار المفوض السامي الفرنسي دي مارتل، أنقرة، اكتفى البيان الختامي بذكر «المحافظة على استقلال اللواء واحترام الاتفاقات».

اضطربت سوريا من حركة كبيرة وعميقة في أوائل ١٩٣٦. لقد دعا ديريو في هذه الآونة بدون شك حسب رأي عبد الرحمن مالك رئيس وزارة اللواء (هاتايا)، أتراك اللواء على جمع تواقيع تطالب بالانفصال عن سوريا وإرسالها إلى هيئة الأمم على نفقة الادارة الفرنسية. وذهب مالك نظراً لهذا الوضع، ليطلب تعليمات من أنقرة. ولم تظهر السلطات التركية اهتماماً كبيراً لهذه المسألة حسب رأيه ولكن تطورت الأمور بسرعة. ووقع المفوض السامي في أول آذار ١٩٣٦ مع ممثلي الكتلة الوطنية السورية اتفاقاً يطلب إقامة معاهدة بين فرنسا وسورية تعترف بموجبها فرنسا بحقوق للسوريين مساوية للحقوق المعترف بها للعراقيين من قبل انكلترا أي الاستقلال، وبذهاب وفد إلى باريس..

احتل هتلر بعد بضعة أيام الريحانية، وكان يعني ذلك لتركيا أن عليها أن تطالب باللواء قبل الاعتراف باستقلال سورية. وجعلت الأحداث التي تتجمع في الأفق الأوروبي والتي تضعف فرنسا، من موقع تركيا الاستراتيجي موضوع مساومة مثالي. ولكن توجد في هذا الاطار أفضلية أخرى لتركيا أكثر أهمية من اللواء وهي المضائق. وقد فرضت معاهدة لوزان ١٩٢٣ تجريد المضائق من السلاح فحدت من السيادة التركية، فعليها أن تسعى الآن لاستعادتها، وبينما تنتظر حل هذه المسألة استدعت زعماء اللواء الأتراك إلى أنقرة وطلبت منهم الصبر.

وقع اتفاق مونترو الذي يعيد لتركيا سيادتها الكاملة على المضائق في ٢٠ تموز ١٩٣٦، فقال أتاتورك في اليوم نفسه كلمته: «الآن يجب أن نهتم باللواء»

عملية الضم ١٩٣٦ - ١٩٣٩:

قام بيير فينوه معاون وزير في وزارة الخارجية بمفاوضات المعاهدة السورية مع الجبهة الشعبية ووقعت بالأحرف الأولى في باريس في ١٩ أيلول ١٩٣٦. إنها

تتضمن استقلال سورية موحدة، تضم جبل الدروز ومقاطعة العلويين ولواء الاسكندرون الذي احتفظ بنظامه المستقل، واستثني لبنان. فاهتزت الأوساط التركية وبدأت تعمل ضمن هدفين: مطالبة فرنسا باستقلال اللواء مدعية أن اتفاقيات عام ١٩٢١ تثبت أن اللواء كيان مستقل عن سورية، والقيام بضغوط محلية لتحصل على أغلبية «تركية»، وعندما قدمت فرنسا في ٢٦ أيلول إلى مجلس هيئة الأمم المعاهدة الفرنسية السورية، طلب توفيق روستو آراس، وزير الخارجية التركي، الموافقة على منح تقرير المصير للشعب في مقاطعات الاسكندرون وانطاكية «ذات الأكثرية التركية» ووجهت مذكرة أولى في ٩ تشرين الأول إلى وزارة الخارجية الفرنسية تطالب فرنسا بأن توقع مع مقاطعات الاسكندرون وانطاكية معاهدة مماثلة للمعاهدة السورية.

أعلمت البعثة السورية في ٢٣ أيلول بأنقرة في طريق العودة، الأتراك عن رغبتها بتنظيم انتخابات عامة في سورية لكي تصدق المعاهدة من قبل مجلس منتخب جديد. فاستدعت الحكومة التركية إلى أنقرة طيفور مرسل لتناقش معه بضرورة مشاركة أتراك اللواء في الانتخابات إذ كان يعتقد موظفو وزارة الخارجية ربما بأكثرية تركية، ولكن توصل مرسل الذي يعرف جيداً الحقيقة إلى اقناعهم باعطاء الأوامر لمقاطعة الانتخابات. وبدأت الصحف بعد بضعة أيام حملة مركزّة على عبارة قالها أتاتورك عام ١٩٢٣: «اللواء أرض تركية قديمة منذ أربعين قرناً» فشاهدنا انتشار نظرية غريبة طيلة شهر تشرين الأول إذ تدعي أن أجداد سكان اللواء «حثيون» أو أفضل من ذلك «هيتايا» شعب تركي منغولي من شمال الصين وقد هاجر منذ زمن بعيد جداً والبرهان على ذلك اسم اللواء «هاتايا» علماً بأنه لا وجود لهذا الاسم على الخريطة. فسمي اللواء هاتايا وكان الهدف من ذلك كله استقطاب العلويين الذين هم الوسيلة الوحيدة للحصول على الأغلبية. وتعطي أرقام عام ١٩٣٦ من مجموع السكان البالغ ٢١٩٠٨٠ نسمة، ٣ر٣٩٪ أتراك، ٣ر٢٨٪ علويين، أي نسب عام ١٩٢٤ نفسها.

أكد أتاتورك في خطاب افتتاح دورة المجلس في ١ تشرين الثاني على أهمية اللواء كقضية وطنية وكقضية ذات وجهين فرنسي وتركي. واستدعى في اليوم الثاني طيفور مرسل وكلفه بتأسيس «لجنة سيادة اللواء هاتايا» أنه تنظيم سري برئاسة وزير الداخلية وكان أمين سره قائد الشرطة العام. فكان على هذا التنظيم أن يتغلغل في كافة المدن الحدودية القريبة من اللواء. ونظمت اللجنة الاضطرابات أثناء الانتخابات السورية في ٣٠ تشرين الثاني. فدفع ذلك الأتراك ليس فقط على مقاطعة الانتخابات بل أيضاً على اتهام السلطات الفرنسية بأنها تعمل على منع انتخاب النواب الأتراك.

اعتبرت الخارجية الفرنسية «الموقف التركي غير قانوني ولكنه مدعوم بوسائل ضغط يمتلكها الأتراك بفضل تفوقهم العسكري» وكان المتضرر الوحيد في هذا الوضع غير المنتظر «ڤينوه» الذي شاهد عمله، المعاهدة الفرنسية السورية، تعود إلى بساط البحث، ويبدو أن هذه الاعادة والأمل بالمحافظة على الانتداب على اللواء، منحت آفاق جديدة، فادعت باريس أن الانتداب الذي قدمته هيئة الأمم غير قابل للتقسيم ونصحت أنقرة بأن توجه طلبها إلى تلك الهيئة. تبنت الحكومة التركية هذا الاقتراح وطلبت اجتماعاً عاجلاً لمجلس الأمن ليتخذ إجراءات تحفظية في اللواء نتيجة لانتخابات ٣٠ تشرين الثاني. وقرر المجلس في اجتماعه في ١٦ كانون الأول إرسال مراقبين، بينما قبلت فرنسا بتأخير المصادقة على المعاهدة الفرنسية السورية حتى حل القضية.

وصل توفيق روستو آراس إلى باريس ليبدأ مباحثات مباشرة وأمام تعنت ڤينوه (Vienot)، تبنى ليون بلوم مباشرة القضية وقال للوزير التركي لو أن يتحول الخلاف إلى البحث عن كلمة معادلة ومقبولة لكلمة استقلال، واللغة الفرنسية غنية بالمرادفات، فوجه في ١٨ كانون الثاني رسالة إلى الحكومة التركية يقترح فيها بأن يعتبر اللواء «كوحدة متميزة» عن سوريا ويقترح «أنه نستطيع حتى بعد دخول المعاهدة الفرنسية السورية حيز التنفيذ أن نعتبر اللواء واللواء وحده نوع من بقايا الانتداب».

وأسفرت المباحثات التي استئنفت تحت رعاية مجلس الأمن في ٢٩ أيار عن اتفاق فرنسي تركي يعتبر اللواء وحدة متميزة، يتمتع باستقلال تام في شؤونه الداخلية تحت اشراف مجلس الأمن واشراف مفوض فرنسي. ووقعت في الوقت نفسه معاهدتان بين فرنسا وتركيا. تحافظ الأولى على أراضي اللواء كاملة وتقضي الثانية بالمحافظة على الحدود التركية السورية. ونستطيع أن نعتبر ذلك نصراً لفرنسا إذ أصبح اللواء منفصلاً عن مصير سورية. ولا يوجد شيء يمنع من استمرارية الانتداب الفرنسي، هكذا فهمت الادارة الفرنسية الأمور لأنه عندما استولت على الاشراف على اللواء في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٣٧ تاريخ دخول المعاهدة حيز التنفيذ، أبعدت الموظفين السوريين ورفضت تطبيق بنود نزع السلاح واشراف مجلس الأمن مدعية أنه لا يتم ذلك إلا بعد نهاية الانتداب الفرنسي.

هاجمت الحكومة التركية على جبهتين. فنقضت معاهدة الصداقة التركية السورية عام ١٩٢٦ (الموقعة مع فرنسا) ومعاهدة الصداقة الفرنسية التركية عام ١٩٣٠ ورفضت قانون الانتخاب في اللواء، الذي حضره مجلس الأمن وبدأت بارسال جميع الأتراك الذين ولدوا في اللواء لكي يسجلوا على القوائم الانتخابية.

تطور الوضع اعتباراً من هذا التاريخ واستمر لصالح تركيا التي كانت تربح في المقاطعات وعلى الورق مكاسب فرنسا بينما كانت فرنسا تتراجع آملة أن تربح الوقت. وكان ذلك مسلكها فقد شدها الوضع الدولي إذ أبرمت في ١٠ آذار قبل أيام من «انسكلبس» (النمسا) اتفاقاً مع تركيا حول قوائم الانتخابات في اللواء وتعهدت بموجبها أن تضمن للعنصر التركي أغلبية «معقولة» ٢٢ من أصل ٤٠ مقعداً. فلا تحتاج تركيا أن تتآمر لتحصل على أكثرية في اللواء طالما تتعهد فرنسا أن تؤمنها لها. وبما أنها لم تتوصل في أواخر أيار إلا لنسبة ٤٧٪ للأتراك - إذ بقي العلويون مقاطعين ومعهم قسم من الأتراك المناوئين لكمال الذين يفضلون الاكتتاب في القوائم العربية- أوقفت السلطات الفرنسية أعمال لجنة مجلس الأمن المكلفة رسمياً بوضع

القوائم الانتخابية وأعلنت حالة الطوارئ وأرسلت مبعوثاً رسمياً جديداً «كوليه» مكلف بأن يشرح للطوائف «ما تنتظر فرنسا منها» فتوصلت هكذا إلى أكثرية تركية طالما سعت إليها ووقعت في ٤ تموز معاهدة صداقة جديدة تركية فرنسية ورافقها بيان مشترك يشترط في الفصل الأول منها أنه «ليست مسألة اللواء مسألة أرض لتركيا» واحتلت القوات التركية في اليوم الثاني بموجب اتفاق عسكري وقع في ٣ من الشهر إلى «جانب القوات الفرنسية» اللواء «لكي تضمن أمنه».

إن غير المعقول في هذه القضية هو موقف وزارة الخارجية الفرنسية إذ تعتقد أو تتظاهر بالاعتقاد أنها لا تزال رابحة. لقد كتب جورج بونية وزير الخارجية إلى بونسوه السفير في أنقرة في ١١ تموز: «يحقق الحل الداخلي مكسبين إذ يقوي سلامة سورية ويحفظ المستقبل». فلم تستدرك إلا في الخريف وبفضل شخصيات مثل رونية ماسيغلي الذي عين سفير في أنقرة، أنه لم يبق لفرنسا إلا ظل سلطة في اللواء وأن «دولة» هاتايا (اللواء) التي يرأسها طيفور مرسل تبتلع ما تبقى وتستطيع أن تعلن بين ليلة وضحاها، اتحادها مع تركيا، دون أن تستطيع فرنسا أن تأتي بأية حركة. فكان الحل الأخير أن تحاول تبديل اللواء بمعاهدة تحالف مع تركيا أمام الخطر النازي وعليها أن تفعل ذلك بسرعة قبل أن تفقد كل حجة للتفاوض. ولكن عندما أعلن الأتراك بدون تستر عن رغبتهم بضم هاتايا في ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٩ أجاب بونيه أن هذا الإلزام يتجاوز حدود سلطات فرنسا الانتدابية وأن موافقتها غير مقبولة بدون موافقة دمشق: دمشق التي لم تشترك أبداً في مباحثات حول مستقبل اللواء.

ترددت وزارة الخارجية والمفوض السامي في بيروت حتى شهر آذار ولم يسمح «لماسيغلى» إلا بعد اختفاء تشيكوسلوفاكيا بأن يدخل في مباحثات مع الأتراك، ولم ترسل تعليمات دقيقة إلا بعد أن احتلت إيطاليا ألبانيا في ٢٧ نيسان. ولا تزال تطالب تلك التعليمات بإبقاء حامية فرنسية في اللواء. وبدأ الانكليز الذين كان يزداد قلقهم على مصير شرق البحر المتوسط، مباحثات بهدف معاهدة تحالف مع تركيا. وأسفرت

تلك المحادثات في ١١ أيار عن اتفاق ثلاثي تركي، فرنسي، انكليزي. ولكن لم تستطع توقيع الاتفاق الثلاثي لأن مباحثات اللواء لم تنتهِ بعد. فوقعت تركيا الاتفاق مع انكلترا وحدها وساهم ذلك باسراع المحادثات الفرنسية التركية ووقع اتفاق التنازل عن اللواء لتركيا في ٢٣ حزيران وأعلن الضم في اليوم نفسه.

ليست قضية تاريخ اللواء إلا توضيح إضافي لعملية تشكيل الحدود الحالية في الشرق الأوسط. ونجد فيها مختلطة، نتائج سوق المخدوعين الكبيرة التي هي اتفاقات الحرب الأولى السرية والانعكاسات القديمة الجغرافية السياسية التي تعود إلى الحروب الصليبية، وغياب أصحاب العلاقة الأصليين المشهورين أثناء المباحثات، إذا استثنينا تركيا التي حقق لها نجاح نضالها الوطني الحق بأن تفرض حدودها.

· الهاتايا (اللواء) اليوم محافظة من محافظات تركيا. ويتجاوز سكانها المليون نسمة، وتظهر زخماً سكانياً كبيراً. ويبدو أن انضمام اللواء قد تم حتى ولو أن احصائية عام ١٩٦٥ التي هي آخر تصريح معلن إذ تعطي ١٤٨٠٠٠ نسمة يتكلمون العربية، أي ضعف ما كان عليه عام ١٩٣٦. ولكن هل نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن وضع تركيا في الشرق الأوسط إذ لا تزال ترفض سورية التي بقيت بعيدة عن تلك المباحثات، أن تعترف بهذا الضم؟.

٨- حدود شبه الجزيرة العربية:

لم تشد شبه الجزيرة العربية الشاسعة اهتمام الدول الكبرى كثيراً عبر التاريخ، إنها قبلة الاسلام بفضل مدنها المقدسة مكة والمدينة، ومعظم أراضيها صحراوية يسكنها قليل من القبائل الرحل الذي يصعب السيطرة عليهم. فاكتفت الامبراطورية الاسلامية أن تسيطر على أماكنها المقدسة إذ احتلت الحجاز الممتد على طول البحر الأحمر وأغلقت هذا الطريق المائي في وجه السفن الغربية. فسلكت تجارة الهند

الطريق البرية بين الشاطئ السوري والخليج العربي وسارت محاذية للهلال الخصيب، الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية.

قضى اكتشاف رأس الرجاء الصالح على الطريق البرية التي تسيطر عليها الامبراطورية العثمانية بينما أصبح ساحل المحيط الهندي العربي مكان عبور اجباري لطريق الهند واحتل العثمانيون عدن عام ١٥٣٧ لكي يغلقوا البحر الأحمر، بينما كان البرتغاليون يقيمون في هرمز منذ عام ١٥٠٧. واستمر هذا الوضع حتى القرن التاسع عشر فكون الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية في هذه الفترة فراغاً جغرافياًسياسياً.

من طريق الهند إلى طريق البترول (خريطة -رقم ٢٣-)

أقامت شركة برتش انديا كومباني مكتباً تجارياً لأنها المرفأ الوحيد ذات المياه العميقة في الخليج العربي ومركز نهاية طريق القوافل التي تجتاز الهلال الخصيب. وأقامت بريطانيا العظمى علاقات مع مختلف شيوخ الشاطئ العربي للخليج. وأبرمت معاهدات حماية. لقد كان هدفها الحد من تجارة العبيد وتهريب الأسلحة لكي تتحاشى تشكيل بؤرة في هذا الجيب قادرة على أن تصل إلى طريق الهند. ونتج عن هذا التغلغل البريطاني خلافات مع العثمانيين، فسعى كل من جانبه إلى تحقيق مواقع على الأرض. فاستعاد الأتراك في عام ١٨٧٩ مقاطعة الأحساء التي هي الشاطئ العربي على الخليج بين الكويت وشبه جزيرة قطر ثم قطر نفسها بينما وقع البريطانيون معاهدة مع أمير البحرين عام ١٨٨٠.

ترك رحيل العثمانيين الذين طردهم الأئمة في القرن السابع عشر، فراغاً في اليمن فشجع ذلك على الغزو والقرصنة. فاعتبر البريطانيون أنفسهم مجبرين على ملء الفراغ. فتم اتفاق مع سلطان لحج سيد عدن عام ١٨٠٢، ثم احتلت هذه المدينة عام

١٨٣٩ وتحولت إلى مستعمرة انكليزية وأصبحت المقاطعة الوحيدة التي تدار مباشرة من قبل سلطة أجنبية في شبه الجزيرة.

احتل العثمانيون مجدداً اليمن عام ١٨٣٧ ورُسمت حدود تركية بريطانية فكانت مصدر مجابهات مع القبائل المحلية المتواجدة فيها. وشكلت لجنة مختلطة في تشرين الثاني ١٩٠١ لكي ترسم الحدود فثبتت في ٢٣ أيار ١٩٠٤ مئة وخمسين ميلاً من الحدود التي تمتد من باب المندب عند مدخل البحر الأحمر وحتى وادي بانا، وتفصل بين المستعمرة البريطانية عدن واليمن العثماني. وكانت أول حدود حديثة في شبه الجزيرة العربية، واستمرت حتى توحيد اليمنين الشمالي والجنوبي عام ١٩٩٠.

لو لم يغير حفر قناة السويس التي حولت للمرة الأولى البحر الأحمر إلى طريق مائية دولية،الوضع في الجزيرة العربية، لقلب دخول الألمان إلى الامبراطورية العثمانية ومشروع طريق بغداد الحديدي الذي سيربط استنبول بالبصرة، وضع الخليج العربي إذ تحدث طريقاً قصيرة ألمانية بدلاً من طريق الهند الامبريالية البريطانية عبر قناة السويس. وسبقت بريطانيا ساعية لدى السلطان والسوق المالية الدولية لتمنع ذلك المشروع. ووقعت على الأرض عام ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك شيخ الكويت معاهدة حماية يتعهد بموجبها الشيخ أن لا يعطي أو يبيع أو يؤجر قسماً من مقاطعته بدون موافقة صاحبة الجلالة. ولا تحتوي بنود المعاهدة على تحديد للمقاطعات، فقد اعتبرت الحدود حسب الأراضي التي تحتلها القبائل الخاضعة للشيخ مبارك. فكانت تمتد الحماية البريطانية بنظر شيخ الكويت وزعماء الخليج على الأشخاص واتباعهم أكثر من امتدادها على مقاطعات محددة، وسيكون التحول من هذه الفكرة المبهمة إلى حدود مرسمة، أساس المسائل التي ستتبع.

اكتسب الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية أهمية كبيرة متزايدة بعد اكتشاف البترول فعاد إلى ساحة القرن التاسع عشر الجغرافية السياسية كصخرة على طريق الهند. لقد منح أول امتياز بترولي في المنطقة عام ١٨٧٢ في بلاد فارس

للبارون «جيليوس ده روتر»، وذكر الجيولوجي النمساوي «اميل تيتز» في جولته التنقيبية عام ١٨٧٩ إضافة إلى الاحتمالات الخاصة لمنطقة كركوك، رشح القار (الزفت) في بينائيد الأعور قرب مدينة الكويت. ولم يكن البترول حتى هذا التاريخ إلا مادة أولية مثل المواد الأخرى، يستخدم في الإنارة والتدفئة. ولم يصبح مادة استراتيجية إلا في أوائل القرن عند اختراع المحركات التي تستخدم هذا السائل كوقود. ووضعت الآمرية البريطانية أول مرجل يعمل على المازوت في بواخرها عام ١٩٠٥ وشجعت شركة البورما أويل كومباني البريطانية التي توصلت إلى الرقم المربح أي ستة ملايين برميل تنتجها سنوياً آبارها في برمانية، على الانضمام إلى البحوث التي كانت لا تزال غير مجدية، وهي بحوث وليم كنوكس دارسي في بلاد فارس. ونتج عن ذلك تأسيس شركة الزيوت الانكليزية الفارسية (A.P.O.C). وقام «غي بيلغريم» جيولوجي في خدمة حكومة الهند البريطانية بأول تنقيب في الخليج عام ١٩٠٥. ولما اكتشف وجود قار واسفلت في البحرين استنتج احتمال وجود البترول.

تدفق البترول من بئر شركة الزيوت الانكليزية الفارسية في مسجد سليمان في ٢٢ كانون الثاني عام ١٩٠٨ ودخل الشرق الأوسط في التاريخ. ودخلت الحكومة البريطانية منذ هذا التاريخ وحتى أوائل الحرب ١٩١٤ في مباحثات مع الأتراك والألمان لكي توطد مناطق نفوذها في هذه المنطقة. وبرزت في الوقت نفسه قوة جديدة في فراغ الصحراء العربية وهي شخصية عبد العزيز بن سعود.

تسيطر عائلة بن سعود على زعامة الحركة الوهابية وقد توصلت إلى توحيد الجزيرة العربية لمدة قصيرة في أوائل القرن التاسع عشر. واستخدم العثمانيون محمد علي والي مصر ليسحق هذه لحركة. فتقهقر السعوديون في القرن التاسع عشر حتى أنهم فقدوا عاصمتهم الرياض أمام العائلة الخصم عائلة ابن الرشيد، ولجأوا إلى الكويت. وانطلق عبد العزيز بن سعود في ٢٢ من العمر، من هنا من الكويت عام ١٩٠٢ ليستعيد الرياض ويملك على نجد، القسم الأوسط من شبه الجزيرة، ويضع

أسس العربية السعودية.

بينما كانت الحكومة البريطانية في ربيع ١٩١٣ تضع اللمسات الأخيرة لأول اتفاق انكليزي تركي حول دائرة النفوذ في شبه الجزيرة، وقد أرسل ونستون تشرشل قائد البحرية آنذاك حملة تنقيب إلى إيران بهدف شراء شركة (A.P.O.C)، احتل ابن سعود، خلال أيام في أيار، لواء الاحساء العثماني. فوصل هكذا إلى الخليج بين الكويت وقطر. وأرسل بعد بضعة أيام رسالة إلى برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج العربي، يخبره فيها عن احتلاله ويصرح أنه يحترم تعهدات أسلافه وأنه لا يهاجم الدول الساحلية التي تحميها بريطانيا العظمى ويعبر عن رغبته باقامة علاقات صداقة مع الحكومة البريطانية.

وكانت قطر بالذات التي أصبحت مجاورة للممتلكات السعودية، موضوع خلاف بين الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية وأصبح ضرورياً أن تبرم اتفاقاً. ووقع الاتفاق في ٢٩ تموز ١٩١٣. يعترف الاتفاق بالسيادة العثمانية على نجد أي الامارة السعودية، وتتنازل الحكومة العثمانية بالمقابل عن المطالبة بقطر. ورسمت الحدود الشرقية للمتلكات العثمانية بخط شمال جنوب تمتد من جزيرة زاخونيا في الغرب من شبه جزيرة قطر وعرفت فيما بعد «بالخط الأزرق».

رسم الاتفاق نفسه حدود الكويت أيضاً حيث لا تستطيع السلطات العثمانية التدخل بدون موافقة الحكومة البريطانية. لقد تم رسم تلك الحدود حسب التفسيرات البريطانية اللاحقة، استناداً إلى مقترحات العميل البريطاني المقيم هناك، والتي ترتكز على الأراضي التي تقطنها القبائل التي تدفع «ضرائب» للشيخ مبارك. ولكننا نعلم أيضاً أنه قد زار جيولوجي بريطاني الكويت بين شباط وأيار عام ١٩١٣. واستنتج تقريره المؤرخ في ٧ أيار احتمال وجود بترول في برقان، مركز الاستثمار الحالي.

منح هذا الاتفاق حرية العمل للبريطانيين. وطمأن برسي كوكس ابن سعود في ١١ أيلول عن نوايا حكومته بالمحافظة على علاقات الصداقة معه شريطة أن يمتنع

عن القيام بأي عمل ضد الامارات العربية وخاصة قطر. «وقد اعترفت الحكومتان البريطانية والتركية باستقلالها حديثاً». ولم يكن كوكس مطمئناً هو نفسه لأنه كتب إلى الموظف التابع له في البحرين: «لا أظن أن ابن سعود يستطيع أن يبتلع قطر باسبوع وأخشى أن يفعل ذلك».

وكانت البعثة التي أرسلتها القيادة البحرية إلى بلاد فارس بقيادة الأميرال سلاد جاهزة للمغادرة. فاقترحت الخارجية البريطانية أن تزور أيضاً الكويت والبحرين. وكتب كوكس بعد بضعة أيام إلى الشيخ مبارك أمير الكويت ليخبره بقدوم بعثة سلاد بهدف التنقيب عن البترول، ويطلب إليه أن يتعهد أن لا يمنح امتيازاً بهذا الموضوع لأي شخص لا تعنيه أو توصي به الحكومة البريطانية. والتزم الشيخ بذلك، في اليوم نفسه. وصلت البعثة إلى الكويت بين ١١ و ١٥ تشرين ثاني ودرست موقع البرقان قبل أن تذهب إلى البحرين. ويذكر جيولوجي البعثة السير ليستر جمس، في تقريره المكتوب في كانون الثاني ١٩١٤، رشح قار في موقع البرقان والبحرة في الكويت، ويقترح الحفر في البحرين. وزار أيضاً جيولوجي من شركة (A.P.O.C) المواقع الكويتية في شباط ١٩١٤. وعندما قدم الأميرال سلاد تقريره إلى القيادة البحرية، طلب في ٦ آذار أن تسيطر الحكومة البريطانية على حقول البترول في الكويت والبحرين. وعندما وقع الاتفاق في لندن لاقامة شركة البترول التركية في ١٩ من الشهر- كانت حصة شركة (A.P.O.C)، ٥ر٤٧٪ وشل ٧٥ر٢٣٪ ودوتش بنك ٧٥ر٢٣٪ وغولبنكيان ٥٪ - ولم تشمل المقاطعة حيث تعهد الفرقاء بعدم القيام بالتنقيب المنفرد في حدود اتفاق ٢٩ تموز ١٩١٣، الكويت. وتعهد الشيخ عيسى بن علي أمير البحرين بأن لا يمنح امتيازات بترولية لأية مجموعة أو أي شخص دون استشارة مسبقة للحكومة البريطانية.

انتهت في الوقت نفسه اتفاقات تقسيم شبه الجزيرة العربية. فوضع اتفاق جديد انكليزي تركي في التاسع من آذار ١٩١٤ حدوداً جنوبية تمتد من طرف حدود

عام ١٩٠٤ وتفصل بين عدن اليمنية باتجاه الشمال الشرقي وتجتاز الربع الخالي «المقاطعة الخالية» من شبه الجزيرة العربية وتلتقي بالخط الأزرق. وستعرف «بالخط البنفسجي» ووقع ابن سعود في ١٥ أيار معاهدة مع الحكومة العثمانية، تعترف له بحكم وراثي على إمارة نجد. ويتعهد ابن سعود مقابل ذلك بأن لا يوقع معاهدات دولية ولا يعطي امتيازات بترولية لأجانب. وأخبر السفير التركي في لندن الحكومة البريطانية بتعيين ابن سعود حاكماً على نجد في ٩ تموز. وبدأت الحرب بعد شهر بتدمير هذه الشبكة التي بنيت على الرمال ولكنها قد وضعت معالم مسائل المستقبل.

موت شكسبير

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كان الوضع في شبه الجزيرة العربية كالتالي: تسيطر الامبراطورية العثمانية على ساحل البحر الأحمر بواسطة رؤساء محليين: الشريف حسين سيد الحجاز، والسيد محمد بن على الآدريسي أحد أعضاء العائلة السنوسية في ليبيا الذي كوّن إمارة في عسير، القسم الساحلي بين الحجاز واليمن، والامام يحيى ملك اليمن، لقد خضع بعد صراع طويل عام ١٩١١. وفي الداخل كانت نجد تخضع اسمياً للأتراك بموجب المعاهدة المبرمة مع ابن سعود. وتسيطر عائلة ابن الرشيد في الشمال على جبل شمر وعاصمتها حايل أو توالي للأتراك خوفاً من ابن سعود. ولكن انقطعت السيادة التركية على الخليج العربي بعد الاتفاقات الأخيرة في جنوب البصرة لتترك المكان لسلسلة من الامارات تحميها بريطانيا: الكويت والبحرين وقطر– حتى ولو لم تكن قد وقعت معاهدة في هذا التاريخ– والامارات السبع على شاطئ السلام (الامارات العربية المتحدة) وعمان. وكان الجنوب مكوناً من مجموعة من القبائل والامارات مرتبطة بمعاهدة بحكومة عدن البريطانية.

رغم أن الحرب اندلعت في أوروبا في ٦ آب فلم تدخلها تركيا إلا في الأول من تشرين الثاني. وكان الانكليز أثناء ذلك يحاولون وضع خطة سياسية يسلكونها في الشرق الأوسط. فكانت الأهداف القصيرة الأمد على نوعين: حماية البترول الإيراني المنصب في عبدان، وتأمين نقل القوات الهندية إلى أوروبا عبر قناة السويس. ويتطلب هذان الهدفان السيادة على سواحل شبه الجزيرة العربية. ولكن كان من وراء ذلك أهداف طويلة الأمد: الاشراف على الأماكن المقدسة الاسلامية بواسطة خليفة عربي تحت حماية بريطانية، والاشراف على منابع البترول في المنطقة. وترتبط هاتان الفئتان من الأهداف بمحورين: الخليج العربي والبحر الأحمر، وترتكز على مركزين للامبراطورية البريطانية، القاهرة التي تناضل من أجل خليفة عربي ودلهي التي تقاتل في سبيل البترول.

ظهر دور البصرة رئيسياً منذ بدء العداوات في أوروبا بنظر السياسة البريطانية في الخليج. فكان يدعو وزير الهند في لندن منذ أوائل أيلول، إلى عملية صربية ضد البصرة لكي يحمي عبدان والكويت. واتخذ القرار بعد شهر من ذلك في ٢ تشرين الأول لهذا الغرض أي قبل شهر من دخول تركيا في الحرب. ولكن كانت تتطلب هذه العملية تعاون أو على الأقل حياد ليس فقط الكويت – التي كانت تبدو حاصلة – بل أيضاً حياد ابن سعود خاصة. فتقرر في ٢ تشرين الأول نفسه ارسال الكابتن W.H.I شكسبير، عميل بريطاني في الكويت إلى ابن سعود.

كتب سير برسي كوكس في الثالث من تشرين الثاني، يوم الانزال البريطاني في بلاد ما بين النهرين، إلى مبارك وابن سعود. وشجع شيخ الكويت على احتلال قلاع صفوان وأم قصر– اليوم في الجانب العراقي للحدود– وجزيرة بوبيان– التي يطالب بها العراق– وطلب إليه أن يتحضر لهجوم ضد البصرة إلى جانب البريطانيين. وقدم كوكس مقابل ذلك ضمانة استقلال الكويت «تحت حماية بريطانية». يطلب المقيم البريطاني في رسالته إلى ابن سعود أن ينضم إلى شيخ الكويت في الهجوم على

البصرة فتعترف به بريطانيا العظمى كأمير مستقل على نجد والاحساء وتوقع معه مفاهدة.

استقبل الكولونيل HF جاكوب، المقيم البريطاني في عدن، في بعثة من قبل الادريسي، أمير عسير بهدف ابرام معاهدة تعاون ضد تركيا بينما كانت القاهرة تعد بالخلافة للشريف حسين. وكانت تظهر السياسة المتبعة رغم احلام قيادات القاهرة مثل لورنس لاقامة مملكة عربية، مطابقة أكثر للنظرية الواقعية نظرية وزارة الهند التي كانت تعتقد أن الامبراطورية الاسلامية خطر كبير ويجب أن يبقى حاضراً للأذهان، وأن شبه جزيرة عربية موحدة خطر كبير أيضاً في افريقيا وآسيا على السواء، أكبر بكثير من خطر اليهود الماسونيين (لقب لتركيا الفتاة) التي تمثل اليوم الخلافة. وكانت حكومة الهند البريطانية تؤكد أن «ما نريد ليس شبه جزيرة موحدة وإنما ضعيفة وغير متحدة منقسمة إلى إمارات صغيرة بقدر ما نستطيع وتحت سيادتنا وعاجزة عن أن تتفق وتنسق فيما بينها وتكون صخرة ضد السلطات الغربية».

ذهب الكابتن شكسبير في كانون الأول ليلتقي بابن سعود وقد أكد نائب ملك الهند أن هذا الأخير «يحقق احتمالاً واحداً، القيام بثورة مفاجئة». وصل شكسبير إلى عنده في ٣١ كانون الأول، وجرى أول اجتماع في ٤ كانون الثاني. لقد عرض الانكليزي مساعدة عسكرية وضمانة استقلال، وأعرب ابن سعود عن قبوله مسروراً ولكنه أبدى رغبته بمعاهدة حسب الأصول تضمن أيضاً وضعه بعد الحرب. وأرسل شكسبير في المنتصف من كانون الثاني مشروع المعاهدة إلى كوكس وأخبره أيضاً عن عدم التقدير الذي يكنه ابن سعود للشريف حسين إذ يعتبره ضعيفاً وغير أهل للثقة. وهجم ابن سعود على ابن الرشيد بعد بضعة أيام، واصطحب معه شكسبير الذي قتل في معركة في ٢٤ كانون الثاني، فأخر موته توقيع المعاهدة سنة، وعرضت القاهرة أثناء ذلك على الحسين التفاوض. فعلق سير أرنولد ولسون المفوض السامي البريطاني لما بين النهرين على هذه الأحداث فيما بعد وكتب: أنه لو لم يقتل شكسبير

لما وجد لورنس ولا ثورة عربية «وحرم العالم من ملحمة، ووفرت الخزينة البريطانية ملايين كثيرة من الجنيهات الاسترلينية، ولما برزت العائلة الشريفة من ظلمات الحجاز من أحضان الأتراك الذين كانت تفاوضهم بحماس في نيسان ١٩١٦. وبقيت أيضاً فلسطين تركية والصهيونية حلماً. وقد ترك للسلطات البريطانية في مصر أن تحقق ما كانت حكومة الهند ستحققه بنجاح وخيال أوسع بدعمنا لابن سعود».

أظهرت المبالغة في الأمور غضب الهند من حرمانها من نجاح مرشحها لصالح مرشح القاهرة. وكانت وجهات النظر متعاكسة بالإضافة إلى خلافات المقاطعات، إذ تعتبر القاهرة التي تفكر بمملكة عربية بزعامة خلافة اسلامية تحت حماية بريطانية وأن شريف مكة الذي من سلالة الرسول هو المرشح المثالي رغم وزنه العسكري الضعيف وأنه أفضل بكثير من الهرطوقي الوهابي ابن سعود. وكانت قدرة ابن سعود السياسية والعسكرية بنظر دلهي التي تبحث عن رجل قوي محلياً، تتفوق بكثير على طبيعة الحسين الضعيفة والشرسة. وعندما زال حلم الامبراطورية العربية والاسلامية أمام الحقائق المحلية، حل ابن سعود مكان الحسين.

انقضى عام ١٩١٥ بمباحثات متنوعة. وحصل المشروع الذي قدمه شكسبير على موافقة وزارة الخارجية التي نبهت إلى مسائل حدود نجد مع الكويت والبحرين وقطر وإمارات الشاطئ المحايد، فتقرر أن توقع وثيقة بدون ذكر الحدود.

بينما كانت القاهرة تفاوض حسين على إقامة امبراطورية عربية كان المقيم البريطاني في عدن والتابع لحكومة الهند يفاوض مع الادريسي أمير عسير وعدو الحسين. ومنحه منذ ١٥ شباط أسلحة بقيمة ٥ آلاف ليرة استرلينية ووقع معه معاهدة عمل مشترك ضد تركيا في ٣٠ نيسان. فتقدم بموجبها بريطانيا العظمى المساعدة العسكرية وتضمن أمن عسير من جهة ساحل البحر واستقلالها بعد الحرب.

استمر الخلاف بين القاهرة ودلهي. شكا نائب الملك إلى وزارة الخارجية البريطانية: «أتمنى كثيراً أن تنقسم الدولة العربية المقترحة حتى ولو أحدثت. ولم

يستطيع أحد أن يبني مشروعاً يسيء للمصالح البريطانية في الشرق الأوسط أكثر من هذا المشروع. ويعني ذلك ببساطة حكومة سيئة وضياع وفساد لأنه لم يتواجد أبداً ولا يمكن أن يتواجد فيها أي عنصر ثبات أو ترابط بين القبائل العربية». واحتجت القاهرة على شكوى دلهي المقصودة: «يتحاشى كل بريطاني بالطبع أن يحدث مثل هذه الفضائح».

بينما كان كوكس ينتظر الاتفاق مع الشريف الذي سيتم في ربيع ١٩١٦، وقع في ٢٦ كانون الأول قرب البحرين معاهدة مع ابن سعود. يعترف البند الأول بسيادة ابن سعود على نجد والاحساء وقطيف وجبيل وما يخضع لها والمقاطعات التي سيتم التفاوض عليها وتحديدها فيما بعد. ويشترط البند الرابع على ابن سعود أن يتعهد أن لا يعطي هذه المقاطعات أو يمنح امتيازات بدون موافقة الحكومة البريطانية. ويتعهد ابن سعود بموجب البند السادس أن يمتنع عن أي اعتداء على أراضي الكويت والبحرين وقطر وساحل عمان التي تحت حماية بريطانية وسوف ترسم حدودها فيما بعد.

وقعت أخيراً في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٦ معاهدة بين بريطانيا العظمى والشيخ عبدالله ابن قسيم ابن طحاني شيخ قطر. يتعهد شيخ قطر أن لا يمنح أي امتياز بدون موافقة الحكومة البريطانية التي تتعهد، بالمقابل أن تقدم له العون الجيد إذا هوجم من جهة البر ويقصد بهذا البند ابن سعود.

بينما كانت بريطانيا العظمى تعد الشريف حسين بمملكة للعرب، كانت توقع معاهدات تمنح فيها حمايتها لكل سلطات شبه الجزيرة ما عدا ابن الرشيد والامام يحيى إمام اليمن اللذان كانا موالين للأتراك.

صراع الزعماء (خريطة رقم -٣٤-)

كانت نتيجة هذه السياسة مباشرة. فعندما أعلن الحسين الثورة العربية في ٥ حزيران ١٩١٦ لم يكن لدى الزعماء العرب الآخرين رغم ارتباطهم ببريطانيا العظمى الرغبة باتباعه لكي لا يدعموا شريف مكة. وقد أيدتهم الأحداث. وعندما قام البريطانيون بعمل عسكري بالتعاون مع الادريسي أمير عسير ضد مدينة القنفذة في جنوب الحجاز وأنهت قوات الادريسي طرد الحامية التركية، أتى رجال الحسين يطالبون بالمدينة فقدمها البريطانيون للشريف حسب تعليمات القاهرة.

أما ابن سعود فقد طلب بعد أن صدقت الحكومة البريطانية معاهدة في تموز ١٩١٦، من الحسين الاعتراف بسيادته على نجد قبل أن يتعاون فرفض الحسين بحزم، ولم يجرؤ البريطانيون على ابراز المعاهدة الموقعة مع ابن سعود وحاول سير برسي كوكس الذي كانت سلطته على ابن سعود اسطورية أن يلاطفه إذ دعاه لزيارة البصرة في تشرين الثاني ١٩١٦ ووعده بألف بندقية وخمسة آلاف ليرة استرلينية في الشهر. واستنتج رغم ذلك أن التعاون بين ابن سعود والحسين غير ممكن وأنه من المفضل توجيه ابن سعود ضد ابن الرشيد ولكن كانت لندن التي تساند الآن الحسين تتردد بتسليح ابن سعود وبقيت القضية عند هذا الحد.

كان على البريطانيين أن يعتمدوا على الحسين فقط ليقود الثورة العربية. فاختارت الكويت لنفسها الحياد إذ مات مبارك في أوائل ١٩١٧ وخلفه ابنه جابر، ولم يمنع حيادها بأن تسوء العلاقات مع ابن سعود ونستطيع القول بأن شبكة المعاهدات التي حاكتها بريطانيا العظمى لم تستخدم لاقامة جبهة مشتركة ضد تركيا بقدر ما استخدمت لتمنع تدخل السلطات الأخرى حتى ولوكانت حليفة في بلاد شبه الجزيرة العربية. وتابعت شركة (A.P.O.C) التنقيب في الكويت بينما استخدم البريطانيون تحالفهم مع الادريسي ليبعدوا الايطاليين الذين تمركزوا في ارتيريا وفي جزر فرسان

حيث توحي رشحات من القار بوجود البترول ولم يرغب الادريسي بالتعاون بعد مسألة قنفذة. فاحتل الاسطول البريطاني الجزر في ٢٩ كانون الأول ومنحها بعد شهر للادريسي. ووعدت بريطانيا العظمى في الاتفاق نفسه الموقع ٢٢ كانون ١٩١٧ بالمساعدة أثناء الحرب وبعدها وتتعهد باعادة الادريسي إلى السلطة إذا طرد منها.

عادت مسألة العلاقات بين الزعماء العرب إلى ساحة البحث عندما قرر البريطانيون ارسال ممثل سياسي إلى جانب ابن سعود (Harry ST John Bridger Philby الذي سيترك فيما بعد خدمة جلالتها ليصبح «السمو الرمادي» لابن سعود والمنقب الأكبر في شبه الجزيرة العربية، ولا يزال الكلام عن التحالف مع الحسين. فقد تجسد التحالف بهجوم ابن سعود ضد الرشيد، ولكن عندما زار فيلبي الحسين في جدة ظهر هذا الأخير صعب المراس. وكانت القاهرة ودلهي لأول مرة متفقتين على الحد من تشجيع ابن سعود إذ تعتقد القاهرة أن مساعدة كبيرة لابن سعود تجعله خطراً جداً. ويبدو أن السيطرة على الحسين سهلة أكثر من السيطرة على الوهابيين. وتعتبر دلهي أنه إذا أبعد ابن الرشيد عن الأتراك بتقدم جيوش اللنبي في سورية، سيكون مفيداً أكثر لتوازن القوى في شبه الجزيرة العربية. فكان على كوكس نتيجة لذلك أن يقدم المال لابن سعود وليس السلاح، وإلا سيكون خطراً أن نرى في شبه الجزيرة العربية قوتين متنافستين، ترتبط كل واحدة منها ببريطانيا. أمام هذه الآراء المتفقة، قررت لجنة الشرق الأوسط «المجلس الوزاري» المجتمع في لندن في ٢٢ كانون الثاني ١٩١٨، أن يترك ابن سعود خارج اللعبة.

أدرك ابن سعود أن عليه أن يعتمد على رسائله الخاصة وعليه أن يعمل بسرعة قبل أن يسمح الذهب البريطاني لحسين بشراء القبائل. وكان سلاح ابن سعود «الجهاد الوهابي» وشكل جديد لجمعية الأخوان (الأخوة) التي تجمع أعضاء من قبائل مختلفة في مستوطنات حضرية. فيسمح ذلك بتجاوز النطاق القبلي لصالح سلطة مركزية وباقامة وحدات ذات فائدة اقتصادية وعسكرية. ونتج عن تبني المذهب

الوهابي من قبل قبيلة أو مستوطنة أخوان مطالبة سعودية مباشرة بهذه الجماعة.

كان هذا هو وضع خرمة، قرية واقعة على بعد ١٤٠ ميل، إلى الشمال الشرقي من الطائف حيث جماعة الأخوان التي كانت قيد التأسيس تعارض سلطة الحاكم المبعوث من قبل الحسين. لاقت القوات والنجدات التي أرسلها الحسين متتالية في أيار وحزيران وتموز ١٩١٨ خسائر فادحة وفقدت كل مدفعيتها الحديثة التي قدمها الانكليز. وظهر للمرة الأولى قوة الوهابيين وضعف الحسين. واستخدم ابن سعود من جانبه المزاودة عندما فرض على الحسين ضمانة وسلامة مطلقة لشعبه وأرضه بما فيها خرمة ومنطقة عتيبة الواقعة بين مكة والمدينة، وطالب بريطانيا العظمى بمساندة كاملة ضد ابن الرشيد وتذمر من أعمال أمير الكويت الذي يمد القبائل المعادية له.

قرر ابن سعود أمام مماطلة لندن أن يهاجم في أيلول ابن الرشيد ولكنه لم يستطع احتلال حايل عاصمته. فطلب هذه المرة المفوض السامي في العراق ولسون ارسال ١٠٠٠ بندقية لابن سعود بشرط أن يتعهد ابن سعود أن لا يهاجم ابن الرشيد. فهاجم الأخوان في تشرين الثاني «ديفابيا» التي تبعد ٦٠ كيلومتر إلى الشمال من الطائف فنشروا الاضطرابات في دوائر جلالتها. وطلبت القاهرة ارسال انذار إلى ابن سعود، واقترحت وزارة الحرب ارسال أسلحة حديثة وجيوش مسلمة لتدافع عن مكة ضد ابن سعود. فاستدركت وزارة الخارجية خائبة الأمل أن وزارة الحرب ترسل معدات حديثة إلى الحسين لكي يستطيع أن يجابه بنادق ابن سعود التي أرسلتها وزارة الهند. ولكن توصلت الدوائر المختلفة إلى التفاهم أخيراً وتقرر بأن لا تفعل شيئاً. وقدرت الحكومة البريطانية أهمية المسألة التي تشكلها شبه الجزيرة العربية وخاصة عندما تابعت الجيوش التركية المحاصرة في المدينة، الحرب بعد ٤ شهور من المعاهدة وأصبحت القوات التركية في اليمن تحت قيادة الامام يحيى. فأعطى البريطانيون الساحل اليمني حتى الحديدة إلى الادريسي، بينما كلف الأمير عبدالله ابن الحسين بأن يدمر الحامية التركية في المدينة. ولما حصل ذلك جمع عبدالله

قواته في ترابة إلى الشرق من الطائف ليهاجم خرمة ولكن هاجمه الاخوان قبل، فشتتوا جيشه في ٢٦ أيار ١٩١٩ وأسروا مدفعيته واحتلوا ترابة.

وعندما اجتمعت اللجنة الوزارية في لندن في ١٣ حزيران استنتجت عدم القدرة على توقيف الوهابيين واتضح جيداً أن البريطانيين غاضبين لأنهم راهنوا على الحصان العربي السيء. «سنكون أضحوكة الشرق كله إذا جوادنا انقلب عن موقعه». هذا ما كتبه السير «روبيرت فانسيتارت» في أمانة سر رئيس الوزارة. وأمام تهديد الحسين المتكرر بالاستقالة إذ لم يتلقَ مساعدة مناسبة. صرح كورزون أمين سر الدولة في وزارة الخارجية أنه يخطط للقضاء عليه وليس بقلق بل براحة بال. وحاول البريطانيون فيما تبقى من العام أن يصلوا إلى اتفاق بين الحسين وابن سعود ولكن بدون جدوى بسبب تعنت الشريف.

التقى H.R.P ديكسون العميل البريطاني في الكويت في شباط ١٩٢٠ بابن سعود في الهفوف. فتذمر ابن سعود بعد أن عبر بحرارة عن ثقته بحكومة جلالتها، من رفضها الاعتراف بحقوقه ليس فقط على الحجاز بل أيضاً على قطر والبحرين وعمان.

تغيرت الحال بسرعة في الأشهر التالية لقد احتل ابن الرشيد الجوف وسكاكا في الشمال متقدماً مثل سهم نحو الهلال الخصيب. ففكر ولسون في بغداد أن عليه أن يدفع له إعانة ولكن مات الأمير في نيسان إذ اغتاله أحد أفراد عائلته وخلفه ولد في الثالثة عشر. فوقع ابن سعود الذي لا يضيع فرصة، معاهدة في أيار تنص على حمايته على الإمارة الرشيدية. فضاعف ابن سعود هكذا أراضيه واستغل احتلال ابن الرشيد في الشمال وجاور عشيرة العنيزة التي تسكن الصحراء مباشرة إلى جنوب الفرات وأصبح بقدرته على قطع الطرقات التي تربط المتوسط بالخليج العربي أكثر خطراً على البريطانيين في الشمال وفي الحجاز.

عندما رأى الشيخ سليم أمير الكويت توسع ابن سعود حاول أن يحمي

الأراضي التي منحته إياها المعاهدة الانكليزية التركية في ١٩١٣ فبنى قلعة على حدها الجنوبي. ونتج عن هذا العمل هجوم ابن سعود، وغُلب الكيتيون واستمرت المفاوضات طيلة الصيف وبدون نتيجة لأن ابن سعود قدم مقابل حجة حدود ١٩١٣ التي رسمت حسب امتداد سلطة الشيخ مبارك على القبائل المجاورة، حجة انقاص هذه السلطة نفسها عام ١٩٢٠. وفكر الأمير سليم أن يقدم وثيقة خطية لقانون الصحراء، وأظهر عناده رغم نصائح البريطانيين له بإلا يتمسك بمعاهدة ١٩١٣ التي لم تصدق بعد، فتسبب بهجوم جديد للاخوان. فقُهرت القوات الكويتية في ١٠ تشرين الأول ولجأت إلى قلعة بنيت في الصيف إلى الجنوب الغربي من مدينة الكويت وفشل الاخوان في الهجوم على القلعة وتراجعوا تاركين وراءهم ١٢٠٠ قتيل مقابل ٢٠٠ من الكويتيين. وأوقف موت سليم في كانون الثاني ١٩٢١ الذي خلفه ابن أخيه أحمد بن جابر صديق ابن سعود،العداء، ولكن استمر الحصار البري الذي فرضه ابن سعود على الكويت طيلة أربعة عشر عاماً حتى عام ١٩٣٤.

كان ابن سعود مأخوذاً في الشمال وفي الجنوب عام ١٩٢٠، فوقع هدنة مع الحسين بمناسبة الحج ولكن لم تضع هذه الهدنة حلاً لمسألة الحدود. وضم ابن سعود، مستغلاً الهدوء على حدوده الشرقية في العام نفسه، أراضي عسير فزاد مساحة أراضيه قليلاً.

كان عام ١٩٢١ هادئاً نسبيا. وبينما انشغل الانكليز بتثبيت حمايتهم على العراق وشرق الأردن مع فيصل وعبدالله أبناء الحسين، عزز ابن سعود مواقعه. فاحتل مدينة حائل في تشرين الثاني وجُلبت عائلة ابن الرشيد أسيرة إلى الرياض، وأصبح الطريق إلى الشمال مفتوحاً. وهاجم الاخوان في آذار ١٩٢٢ القبائل في العراق وكان من الضروري مهاجمتهم بواسطة طائرات (RAF) لاجبارهم على التراجع ودعا كوكس الذي خلف ولسون كمفوض سامي في بغداد إلى مؤتمر بين العراق ونجد في المحمّرة بالقرب من عبدان. تعطي الاتفاقية التي وقعت في هذا المكان في ٥

أيار ١٩٢٢ إلى العراق قبائل عمارات ودحافير المنتفض المقيمة في جنوب الفرات، وسترسم الحدود بين البلدين نسبة للمراعي والآبار التي تمتلكها القبائل. ولكن رفض ابن سعود تصديق المعاهدة. ودعا الاخوان في التاريخ نفسه إلى الدخول إلى الحجاز، وضغط الوهابيون من كل جانب على البريطانيين وأجبروهم على اختيارات متعددة. وذكر سير ارتير هرتزل من مكتب الهند: «كانت الرغبة السائدة هي أن يسيطر ابن سعود على مكة حتى ولو كان مؤكداً أننا سنمضي فترة قصيرة سيئة قبل أن تهدأ الأمور».

في آب ١٩٢٢ دخل الاخوان سالكين وادي سرحان الممر الطبيعي إلى شرق الأردن على بعد ٢٠ كم من عمان ولم توقفهم إلا العربات المصفحة والطائرات البريطانية. فقامت مسألة حدود شرق الأردن بالإضافة إلى مسألة حدود الحجاز والعراق وأصبحت الممالك الهاشمية الثلاث التي يحميها البريطانيون يهددها ابن سعود. وكان الخطر الأكبر في الممر الذي يربط شرقي الأردن مع العراق حيث يفكر الانكليز بتمرير خط زيوت وخط حديدي. فأرسل كوكس ديكس إلى البحرين ليتصل بابن سعود وينظم مؤتمراً يبحث في هذه المسائل. ودخل حينئذٍ عامل جديد كان يبدو بغفوة منذ الحرب وهو البترول.

<u>قدوم هولمز</u>

إن الاشراف على منابع البترول في الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية جزء من مشروع السيطرة البريطانية في هذه المنطقة. وأكد الأميرال سلاد الذي ترأس بنفسه التنقيب عام ١٩١٣ في مذكرته الحاملة عنوان «الوضع السياسي في الخليج العربي بعد الحرب» والمؤرخة في ٣١ تشرين الأول ١٩١٦، على الضرورة بأن «تسيطر الآمرية على الحقوق البترولية في بلاد ما بين النهرين والكويت والبحرين

وشبه الجزيرة العربية، وعلى الرغبة باحتلال حقول البترول في كركوك». وشن في آب ١٩١٨ الهجوم البريطاني الكبير إلى الشمال من ما بين النهرين والذي انتهى بالاستيلاء على الموصل بعد بضعة أيام من الهدنة مع تركيا.

طالب الحلفاء بحصتهم في آخر الحرب. وكان أولهم فرنسا المستفيدة في تقسيم الشرق الأوسط. وبعد مفاوضات واتفاقات عديدة ماتت قبل أن تولد، منحت اتفاقات سان ريمو نيسان ١٩٢٠، فرنسا ٧٥ر٢٣٪ من دوتش بنك في شركة البترول التركية. ولكن ظهر خلفها الولايات المتحدة رافعة مبدأ «الباب المفتوح» إذ تطالب بافساح المجال لصيادي الامتيازات الأمريكان بينما كانت بريطانيا تتحمل عبء مصاريف الانتداب والحمايات الأخرى. ولكن كانت سياسة بريطانيا على عكس ذلك: إذ تريد السيطرة على الأرض بموجب معاهدات حماية لكي تؤمن وضع احتكار لصالح شركة (A.P.O.C) شركة الدولة.

بعد أن قامت (A.P.O.C) بتنقيب جديد عام ١٩١٧ طلبت السماح بأن تفاوض الكويت الباقية خارج حدود شركة البترول التركية لكي تحصل على امتياز. فنصحها كوكس بالانتظار حتى نهاية الحرب.

وفي عام ١٩٢١ بدأ سير ارنولد ولسون، الذي ترك خدمة جلالتها، ليعمل في شركة (A.P.O.C) مباحثات مع ونستون تشرشل وزير المستعمرات حينذاك والذي كانت تتبع له إمارات الخليج، لكي يحصل على امتيازكويتي. ففرض تشرشل أن يجري هذه المباحثات القائمقام البريطاني في الخليج حسب عقد نموذجي تضعه وزارته على مرحلتين: يتم في المرحلة الأولى تنقيب يشمل المقاطعة كلها، وفي المرحلة الثانية تستثمر حقول مختارة. وأكد أيضاً أن كل امتياز يرتبط حصراً بالجنسية البريطانية لأصحاب الامتياز. وصرح من جانبه الشيخ أحمد الذي تم الاتصال به في كانون الثاني ١٩٢٢، أنه مستعد لقبول كل اقتراح تقدمه الشركة وتوافق عليه الحكومة البريطانية.

بدأت في الوقت نفسه الشركات البترولية الأميركية تساندها الحكومة مهاجمة السلطات البريطانية. وكانت نقطة الضعف الوحيدة في الترتيبات البريطانية في شبه الجزيرة العربية، اليمن حيث لا يزال الامام يحيى يقاوم. وقام الفرنسي فيكتور لويس بالتنقيب بين كانون الثاني وأيار ١٩٢٢ وعاد في كانون الأول يرافقه جيولوجي من شركة ستاندر اويل كومباني من نيويورك. لكن ثبت عدم وجود البترول في اليمن. ولم يبقَ إلا استخدام صيادي الامتيازات من جنسية بريطانية لكي يستخدموا كحصان طروادة للشركات البريطانية. فان الشخص الذي أجاد في هذه المهمة هو فرانك هولمز من نيوزيلندا الذي بعد أن بحث عن الذهب وعن المناجم في افريقيا الجنوبية وروسيا والمكسيك ونيجيريا وفي الأورغواي أسس مع بعض الشركاء في لندن عام ١٩٢٠ «استرن اند جنرال سانديكات» برأس مال قدره ٥٠٣٠٠ جنيه استرليني وبما أن أحد المساهمين الكبار هو الشركة الصيدلانية «آلين اند هامبورس»، فكان أول عمل للمجموعة افتتاح صيدلية في عدن. ومن هنا ربما اتصل هولمز بالادريسي ليحصل على امتياز في جزر فرسان ولكن بدون نتيجة.

أرسل ابن سعود حينذاك كممثله الخاص إلى لندن في ربيع ١٩٢٢ الطبيب مان الذي يعالجه والمرسل إليه من قبل كوكس. وكان ابن سعود يتلقى منذ ١٩١٨ اعانة سنوية قدرها ٦٠ ألف جنيه استرليني من الحكومة البريطانية بينما كانت اعانة الشريف حسين شهرية وقدرها ٢٠٠ ألف ليرة استرلينية. وكان ابن سعود في حاجة إلى المال في سبيل مشاريعه التوسعية. وقد هدده الانكليز بقطع تلك الإعانة فبحث الدكتور مان عن صيادي الامتيازات فالتقى بهولمز ورتب له لقاء مع ابن سعود، ونزل هولمز من البحرين في آخر تشرين الأول ١٩٢٢ بينما كان ديكسون يحضر مؤتمر انكليزي سعودي ليحل المسائل الحدودية.

كان ديكسون مثل ابن سعود بدون شك مطلعاً على التقارير التي أرسلها إلى استنبول المحافظ التركي في الاحساء والمتعلقة بالحقول البترولية. وقد قام أيضاً ببعض

الجولات في المقاطعة قبل عامين عندما كان عميل في البحرين ولكن بدون جدوى، وعندما رأى هولمز أعلم به كوكس وتوقع حسب رأيه ان ابن سعود قد يؤجل تاريخ المؤتمر بإنتظار هولمز.

التقى هولمز في البحرين الريحاني اللبناني الأصل وصاحب الجنسية الأمريكية والمقرب من ابن سعود وكان له ارتباطات مع الدولة. واجتمع أيضاً بمحمد يتيم سليل عائلة غنية وتشتغل بالتجارة في البحرين الذي أصبح وسيطه هنا. وترك هولمز الجزيرة في أوائل تشرين الثاني ليلتقي بابن سعود في الهفوف بعد جولة سريعة في القطوف حيث عليه أن يجد آثار القار التي حددها الأتراك. أعلن ابن سعود عن رغبته بامتياز وطلب من هولمز أن يكتب مشروع واصطحبه إلى العقير حيث يفتتح في ٢٢ تشرين الثاني مؤتمراً لترسيم الحدود وكان يرافق كوكس الذي يرأس المؤتمر مسؤولون عراقيون ولم تكن الكويت ممثلة إلا بالعميل البريطاني الميجرمور ولم تمثل بلاد أخرى ومنها قطر. وقد زار أمير قطر في تشرين الأول العميل البريطاني في البحرين لكي يشكو تصرفات ابن سعود ضده.

انتهى الاسبوع الأول من المؤتمر بدون التوصل إلى تفاهم إذ يطالب ابن سعود بمجموعة القبائل في جنوب الفرات بينما يريد كوكس والعراقيون ان يحافظوا على قرارات المحمرة. بالاضافة إلى أن الآراء كانت فيما يخص الحدود متعارضة، يريد ابن سعود حدود قبلية، تأخذ بعين الاعتبار الترحال وتعتمد تقسيم الآبار والمراعي بينما يفرض البريطانيون حدوداً مرسمةواضحة، وانتهت هذه المرحلة بجدل عاصف بين كوكس وابن سعود الذي وبُخ مثل طالب حسب أقوال ديكسون الذي كان يقوم بدور المترجم. وقبل ابن سعود أخيراً بإن يفوض كوكس ليضع الحدود فأخذ كوكس حسب قول ديكسون قلم أحمر ورسم ماستكون الحدود الحالية بين العراق والعربية السعودية، تاركاً بينهما شبه معين المسمى «المنطقة المحايدة» ومخصصة لمراعي القبائل من الجانبين. إنه تنازل حسب رأي ابن سعود حول الحدود. ومقابل اقتطاع

أراضي قبلية في جنوب الفرات يطالب بها ابن سعود، اقتطع كوكس ثلثي أراضي الكويت المثبتة بالمعاهدة الانكليزية التركية ١٩١٣ وخصى بها ابن سعود دون أن يبدي الميجر مور آية ملاحظة. رسم كوكس «منطقة محايدة جديدة» إلى جنوب الحدود الكويتية الجديدة وأمام اعتراضات السعودية شرح أن القبائل الكويتية تحتاج أيضاً إلى مراعي. وأمام غضب السعودين طلب تفسير لهذا الاصرار فأجاب هؤلاء بصراحة أنه من المحتمل أن تحتوي هذه المنطقة على البترول، «أجاب كوكس : ولاجل ذلك جعلت منها منطقة محايدة لكي تتقاسموا الأرباح».

فيما يخص حدود شرقي الأردن طالب ابن سعود بوادي سرحان كاملاً ويمنفذ إلى الصحراء السورية فينجم عن ذلك قطع الاتصال بين شرق الأردن والعراق فوعد كوكس بالجوف التي يسيطر عليها ابن سعود ويقسم من وادي سرحان ولكن لم يتخذ أي قرار أثناء غياب مبعوثي شرقي الأردن.

في اليوم الأخير من المؤتمر في الثاني من كانون الأول قدم ابن سعود مشروع هولمز. أنه امتياز بالتنقيب في الأحساء ويصعب على كوكس أن يرفضه ولكنه حصل على رسالة من ابن سعود يتعهد فيها بإن لا يتخذ أي قرار قبل أن ينظر في طلب مماثل لشركة (A.P.O.C). وعارض كوكس بالمقابل نية ابن سعود بادخال قطر في هذا الامتياز.

وأصبح المقصود أن يعلم أمير الكويت بهذه القرارات. فكان على كوكس أن يقوم بتلك المهمة يرافقه مورود ديكسون. فسأل الشيخ منذهلاً فقط لماذا لم يخبره مسبقاً باقتطاع ثلثي أراضيه. فأجاب كوكس أنه على كل حال سيستولي عليها ابن سعود بالقوة. فوقع الأمير الاتفاقات ولكنه قرر أن لا يخدعه البريطانيون ثانية.

بعد بضعة أيام في ١٩ كانون الأول قدم مور للأمير امتياز بترول ليوقعه مع (A.P.O.C) أنه أول ترخيص للتنقيب، مدته عامان ويشمل كافة الأراضي الكويتية، ويتلقى الشيخ أحمد مقابل ذلك ١٠ آلاف روبية أي ما يعادل ٧٥٠ ليرة استرالينية.

(في البدء اقترحت دائرة المستعمرات ألف روبية) وتبعه ترخيص بالتنقيب لمدة عامين أيضاً وبالقيمة نفسها ويشمل حقول مختارة ثم تلاه امتياز استثمار يغطي أكثر من مئة ألف فدان ولمدة يتم التفاوض عليها فيما بعد وبريع قدره ٣ روبيات و «٨ أناس» (٢ شلن ٢٠ بنس) لبرميل البترول.

بعد أن طلب الشيخ تفسيرات أوضحها له مور. أجاب: أنه يطلب ٢٥٪ على البرميل المنتج ويحتفظ لنفسه بالحق بوضع تعديلات أخرى على العقد. وعاودت (A.P.O.C) المحاولة مرة ثانية في آذار بعقد جديد يشمل ثلاث مراحل لمدة ٦٠ عاماً، ولكنها تحافظ على البنود الأساسية. زار في هذا الوقت هولمز والريحاني كوكس في بغداد. وكان كوكس عدو هولمز فنصحه بالذهاب إلى لندن ليطلب السماح من الحكومة البريطانية. ولكن اقنع الريحاني ابن سعود باعطاء الامتياز لشركة مستقلة واقنع أيضاً هولمز أن يذهب إلى ابن سعود.

تدهورت العلاقات بين ابن سعود ولندن في هذه الفترة وقررت دائرة المستعمرات أن تربط الاعانة الأخيرة التي ستدفع لابن سعود والمحددة بـ ٥٠ ألف ليرة استرلينية لعام ١٩٢٢-١٩٢٣ باتفاق حول الحدود في شرقي الأردن. وقع أخيراً ابن سعود في ٦ أيار ١٩٢٣ امتياز بالبحث عن البترول مع هولمز يشمل منطقة الاحساء المنطقة البترولية الرئيسية في العربية السعودية بمبلغ ٧ آلاف ليرة استرلينية وأضاف بنداً بموجبه لا تستطيع شركة «استرين اند جنرال سانديكات» أن تبيع إلى (A.P.O.C) أي امتياز بترولي أو منجمي يمنحه الملك السعودي، وأعلم كوكس بعد اسبوع بانتهاء الاعانات البريطانية.

كتب هولمز بعد توقيع العقد إلى الشيخ أحمد أمير الكويت وأخبره أنه حصل على امتياز من ابن سعود «ضد كافة الشركات وأن أمين الريحاني أرسل له رسائل توصي الشيخ وتنصحه أن لا يمنح امتيازاً بترولياً لشركة أخرى قبل أن يدرس شروطه التي سترسل إليه قريباً.

وصل هولمز إلى الكويت بعد أسبوع وعرض على الشيخ ٢٠٠٠ ليرة استرلينية للتوقيع و ٢٠٪ من الأرباح ويستطيع الشيخ أن يحصل على ٢٠٪ من حصص الشركة. فكتب الشيخ إلى مور ليخبره عن نيته بقبول مقترحات هولمز. فحاول مور أن ينبه أن هولمز لم يتلقّ موافقة الحكومة البريطانية وذكره بتعهد الشيخ مبارك بعدم منح امتيازات بدون الموافقة البريطانية. فرد الشيخ أن هولمز مواطن بريطاني وأنه سيذهب حالاً إلى لندن ليحصل على الموافقة وسيكون كل شيء نظامياً. وصل ولسون بعد مغادرة هولمز ببضعة أيام يحمل معه مشروع (A.P.O.C) الجديد. صرح الشيخ بأدب أنه لا يوقع اتفاقاً مع شركة أخرى قبل دراسة. وأخبر مور في ٩ تموز الشيخ أن وكيل وزارة المستعمرات برفض أن يسمح للشيخ بالتوقيع على أي اتفاق مع هولمز. فأجاب الشيخ أنه تلقى الرفض ولكنه يرفض أيضاً مشروع (A.P.O.C).

نصح كنوكس المقيم البريطاني في الخليج ولسون أن يبتعد عن التوتر والضغط، ويعاود الكرة فيما بعد رغم اعترافه بأن عروض هولمز قد أضرت بالصفقة. واعتبر وكيل وزارة المستعمرات أنه غير مقبول أن يقترح حصصاً للمشايخ عوضاً عن الريع السنوي الثابت ويعتبر أنه يجب أن لا يسمح لهم بالتخلي عن تعهداتهم.

كان ذلك بدء معركة طويلة استمرت أكثر من إحدى عشر سنة لأنه لم توقع الامتيازات الكويتية إلا في ٢٣ كانون الأول ١٩٣٤ علماً بأنه قد سبقتها الأحداث السياسية في هذه الفترة الزمنية.

غزو الحجاز:

سوّى لقاء العقير مسألة الحدود العراقية ولكن ظهرت بعدها مسألة الحدود الأردنية. أعلن عبدالله استقلال شرق الأردن في ١ أيار ١٩٢٣، وهاجم الوهابيون الكف في شمال وادي سرحان. فصدهم البريطانيون وسمح لعبدالله بأن يستعيد

القرية ولكن حذر أن عليه أن يعتمد على قواته الخاصة لحمايتها. وأعلن فيصل من جانبه أنه إذا هاجم ابن سعود الكف سيهب لنجدة أخيه. وعندما هاجم الأخوان في تشرين الأول الخط الحديدي الحجازي في العلا إلى شمال المدينة أصبح ضروري إعادة النظر في النزاع بين الهاشميين (عائلة الحسين) وابن سعود. وتم انعقاد مؤتمر في الكويت فكان الموقف البريطاني كالتالي: يُترك وادي سرحان في جنوب الكف إلى ابن سعود شريطة أن تبقى العقبة تابعة إلى شرق الأردن، وتبقى خرمة وترابة التي تحت سيطرة الوهابيين تابعة للحجاز إذ سيمر في أراضيها الخط الحجازي ابتداء من المدورة.

افتتح مؤتمر الكويت في ١٧ كانون الأول عام ١٩٢٣ بحضور ممثلين عن العراق وشرق الأردن ونجد. وقد غاب ممثل الحجاز لأن الحسين كان يرفض أن يعترف بابن سعود. فأغضب عناد الرجل العجوز البريطانيين كثيراً. «فكتب بولارد، القنصل البريطاني في جدة، والذي كان ممثل حكومته عند الحسين: تصوروا شيخاً عربياً ماكراً وكاذباً وساذجاً سيء الظن وعنيداً ومغروراً ومدعياً وجاهلاً وطماعاً وقاسياً، دُفع به فجأة إلى منصب حيث عليه أن يعالج مواضيع مختلفة لا يفهم منها شيئاً وحيث لا يوجد سلطة بشرية لتردعه، تلك كانت شخصية الملك الحسين (الشريف)».

يستحيل أن تسوى مشكلة في الكويت ضمن هذه الشروط. فقد تعثرت حتى الاتفاقات بين العراق ونجد، وتأجل المؤتمر في ٣٠ كانون الثاني. وفي ٤ آذار ألغي المجلس الأعلى التركي الوطني في أنقرة الخلافة. فاستغل الحسين المناسبة ليعلن نفسه خليفة في اليوم الثاني. وفي ٢٠ من الشهر نفسه هاجم ألفان من الأخوان قبيلة دحافير في العراق فقرر الوفد العراقي الذي كان في طريقه إلى الكويت من أجل المؤتمر المنعقد ثانية، العودة إلى بغداد وألغي المؤتمر نهائياً.

قرر البريطانيون فيما بعد الدفاع عن شرقي الأردن والعراق بواسطة نار

الطيران المرعبة (RAF) والعربات المصفحة ضد البدو المسلحين ببنادق بسيطة وكانوا يعرفون جيداً أنهم لا يستطيعون شيئاً لأجل حماية الحجاز. وتمت آخر محاولة لكسب رضى ابن سعود في السجل البترولي. وقع هولمز في آذار امتيازاً جديداً مع ابن سعود وكان الامتياز هذه المرة في المنطقة المحايدة بين نجد والكويت. فأصبح توقيع الشيخ أحمد ضرورياً جداً. وكانت المفاجئة كبيرة إذ سمح الميجر مور للشيخ أن يوقع رغم أنه نبه إلى أن عروض شركة (A.P.O.C) أفضل. وقع الامتياز للمنطقة المحايدة في ١٧ أيار بعد أن أرسل هولمز جيولوجي سويسري للتنقيب في المنطقة في نيسان.

انعقد في ٤ حزيران ١٩٢٤ مؤتمروهابي في الرياض برئاسة ابن سعود الأب، إمام الوهابيين. وناقش حملة الحجاز القادمة. وتقدم في آب ما يقارب ثلاثة آلاف من الاخوان حتى ضواحي عمان، فصدُّوا بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة. وبدأ الهجوم على الحجاز في ٢٩ آب واستولوا على الطائف. كان غزو الحجاز كنزهة عسكرية لابن سعود ولكنه سلك بحذر كبير ليتحاشى الفوضى في الأماكن المقدسة لأنها ستضخم حالاً لدى الرأي العام الاسلامي وتستخدم ضده. واستمر الغزو أكثر من عام. في ٢٤ أيلول أعلنت وزارة المستعمرات المسؤولة عن هذه المنطقة، لوزارة الخارجية أنه ليس من الضروري القيام بعمل عدواني مباشراً وغير مباشر لحماية الأماكن المقدسة ضد ابن سعود. وكان يعني ذلك لصاموئيل ودوبس المفوضين الساميين في شرق الأردن والعراق أنه لا يسمح لهذين البلدين في التدخل بشؤون الحجاز. وكان ممنوع على ابنا الحسين أن يساعدا والدهما لكي لا يجلبا الصاعقة الوهابية.

عقد في الخامس من أيلول مؤتمر وهابي ثاني وطالب بتنازل الحسين وأيد وجهاء مكة وجدة هذا الطلب. فانسحب الحسين في ٣ تشرين الأول وتشكلت حكومة مؤقتة برئاسة علي بن الحسين الاكبر كملك دستوري. رفض صاموئيل استقبال الحسين في عمان قرب ابنه وأبعده إلى العقبة. وطالب الملك الجديد بمفاوضات فرفض ابن سعود وفي ١٤ تشرين الأول احتل الوهابيون مكة واستسلمت رابغ ومرافىء

الليث وقنفذة. فلم يكن علي يسيطر إلا على جدة وينبع والمدينة.

برزت في هذه الفترة أهمية مسألة العقبة وطرف البلاد، منطقة معان، إذ كانت هذه المقاطعات تابعة للحجاز، ويجب الآن أن تتبع لشرق الأردن، علماً بأنه لم ترسم حدود هذا البلد مع نجد. وأرسلت وزارة المستعمرات في اليوم الثاني من احتلال مكة تحذيراً لابن سعود يخبره أن كل هجوم غير مستفز ضد معان والعقبة يعتبر كهجوم على أراضي تحت حماية بريطانية. وتلقى في الوقت نفسه تريڤور المقيم السياسي في الخليج تعليمات حول حدود شرق الأردن، يترك البريطانيون وادي سرحان اعتباراً من الكف (الكف ضمناً) لابن سعود لكي يستطيعوا الاحتفاظ بالعقبة ومعان والخط الحجازي في شمال المدوّرة.

بقي الوضع على حاله حتى ربيع ١٩٢٥ عندما هدد ابن سعود بمهاجمة هذا المرفأ ضد أعمال الحسين الذي استخدم العقبة ليرسل مساعدات لابنه المحاصر في جدة . وطلبت وزارة المستعمرات أن يرسل انذار. ولكن أجاب أوستن شمبيرلان في وزارة الخارجية: «لماذا القتال من أجل الحسين الملك المخلوع؟». فوضع الشريف أخيراً في باخرة بريطانية وأرسل إلى قبرص.

طلب ابن سعود في ٣٠ حزيران مفاوضات حول حدود شرقي الأردن. فحصلت ردود الفعل البريطانية على مرحلتين. في ٧ تموز أعلن «اميري» وكيل وزارة المستعمرات في مجلس العموم أن لواء معان ولواء العقبة جزء من إمارة شرق الأردن. ثم أرسل سير روبرت كليتون إلى ابن سعود ليفاوض حول الحدود، فنجم عن تلك المفاوضات اتفاقات في ٢ و ٣ كانون الأول ١٩٢٥ يثبت اتفاق «البحرة» حدود العراق نهائياً واقتصر اتفاق «جدة» على حدود شرق الأردن. واعتبر الكف تابعة لنجد شريطة أن لا تحصن. ولكن استمر الخلاف مع الحجاز فلم تسوى مشكلة العقبة. ولكن اقنع كليتون ابن سعود بأن يعتبر ملكية العقبة ومعان من قبل شرق الأردن «أمر مفروغ منه».

سقطت المدينة بعد يومين واستسلم على في ٢٢ كانون الأول وأعلن في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ ابن سعود ملك على الحجاز وسلطان نجد. وكان الاتحاد السوفييتي أول بلد يعترف به وتبعته فرنسا وبريطانيا.

كان لهذا الخلاف أثره على جنوب الجزيرة العربية، اجتر حاكم الاحساء السعودي في ربيع ١٩٢٥ منطقة النفوذ الوهابي بالطرق التقليدية التي هي الضريبة المطلوبة من البدو. وتقدم هكذا حتى واحة بريمي على حدود عمان، وكانت الواحة تحت سيطرة إمارة أبو الذهب. ولكن لم يستطع الشيخ سلطان بن زايد أن يفرض سلطته الشرعية، فصعد عند ذلك إمام عمان على رأس حملة لنجدة البريمي واجتمع الزعماء المحليين والذين قدموا من عمان في أب من البريمي وشكلوا جبهة ضد الدخول الوهابي.

أشعل موت السيد محمد الادريسي في عام ١٩٢٢ المطامع بالعسير في جنوب الحجاز، احتل الإمام يحيى إمام اليمن الحديدة في آذار ١٩٢٥ التي اتبعها البريطانيون إلى عسير، فقرب ذلك تلك المنطقة من ابن سعود.

استمرت المناوشات في أقصى الجنوب بين الإمام يحيى والبريطانيين وفشلت مهمة المقدم جاكوب في صنعاء في كانون الأول ١٩٢٣. واحتل الإمام بيضاء من المقاطعة البريطانية. وزار كليتون صنعاء بين كانون الثاني وشباط ١٩٢٦ بعد الاتفاقات مع ابن سعود، ولكن بدون فائدة إذ طالب الإمام بعدن كاملة. وزاد فشل البريطانيين نشاطات الايطاليين في المنطقة. في ٢ أيلول ١٩٢٦ وقعت معاهدة صداقة وتجارة بين اليمن وايطاليا التي أصبحت أول بلد أوروبي يعترف بمعاهدة بالاستقلال التام لدولة عربية.

أضعف هذا الاتفاق عسير كثيراً. وقّع الأمير سيد حسن الادريسي في أيلول اتفاقاً مع شركة شل حول جزرفرسان ظاناً بدون شك أنه سيجتذب الحماية البريطانية. ولكن لم تظهر الحكومة البريطانية وداً لشل المنافسة لشركة (A.P.O.C).

وأجابت وزارة الخارجية على طلب شل الذي نقله حاكم عدن لأجل ضمان بريطاني للامتياز في جزر فرسان، أنه يجب أن لا يتجاوز البترول في هذه الجزرالصالح للتجارة قيمة ١٠٠٠٠٠ ليرة استرلينية. وأنه من الأفضل في هذه الشروط أن يقدم نصف الامتياز إلى الايطاليين. وقبلت عسير الحماية السعودية في ٢١ تشرين الأول ١٩٢٦.

تقتضي أهمية الدولة السعودية تبديل معاهدة ١٩١٥ باداة مطابقة أكثر. ولكن كلما درست لندن المسألة كلما أدركت تعقيدات الأمور. فأهملت في ربيع ١٩٢٦ فكرة اعتراف ابن سعود بالتزامات البريطانيين في فلسطين تجاه الصهاينة. وقد تقرر عدم طلب البنود المتعلقة بخارج المنطقة فيما يخص الأجانب، رغم المشاكل الحاصلة نتيجة تطبيق القانون الاسلامي في الأراضي السعودية، وبقيت مسائل الحدود وأولها حدود شرق الأردن. وكان «شمبيرلان» مستعداً للتراجع. «اني لا أرى، ذكر كاتباً، لماذا هذان الموقعان (معان والعقبة) يستحقان تضحية جندي بريطاني. ويبدو لي أن السيطرة على شرق الأردن سيئة جداً إذ يحكمه أمير عاجز لا يستحق الثقة وإنه مصدر ازعاج لنا فقط». ولكن ساهمت ردود الفعل العنيفة عند اللورد بلومر، المفوض السامي في فلسطين، بالمحافظة على الوضع لأنه يرى أن لا حياة لشرق الأردن بدون العقبة.

طرحت في الوقت نفسه مسألة حدود الأراضي السعودية مع إمارات الخليج. وأبلغ المقيم البريطاني في الخليج، لندن بذهاب حاكم الاحساء إلى جنوب أبو الذهب وحتى عمان، ليجمع الضرائب، واكتشفت دوائر الهند أن الالتزامات البريطانية تجاه الامارات غامضة كثيراً حتى أنها تشجع ابن سعود أكثر من أن تقنعه.

وحسب مؤتمر المحافظات المنعقد في ١١ آب ١٩٢٦ «تفضل بريطانيا العظمى الاحتفاظ بالاجابة المرنة في حال احتل ابن سعود احدى الامارات». وقررت نتيجة لذلك بأن لا تتورط في حماية مادية للامارات. وقرر المؤتمر أيضاً اعتبار حدود نجد

الشرقية الخط الأزرق بموجب الاتفاق الانكليزي التركي ١٩٢٣.

لم يكن مدهشاً في هذه الشروط أن تعترف المعاهدة الانكليزية السعودية الموقعة في ٢٠ أيار ١٩٢٧ بالاستقلال «التام والمطلق» لمقاطعات ابن سعود بدون أي توضيح آخر. وتعهد ابن سعود من جانبه بأن يحافظ على علاقات صداقة هادئة مع مقاطعات الكويت والبحرين ومع مشايخ قطر وساحل عمان وتأجلت مسألة الحدود مرة أخرى بينما ازدادت الضغوط البترولية أكثر فأكثر.

الإنزال الأميركي:

حمل دخول هولمز المفاجىء في أجواء الخليج الذي تسيطر عليه العلاقات الأبوية بين شركة (A.P.O.C) والعملاء البريطانيين والمشايخ، حكومة جلالتها على تضييق حصارها أكثر. ففرضت على مشايخ الساحل المهادن في آخر عام ١٩٢٢ أن يتعهدوا بالامتناع عن توقيع امتيازات بترولية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وتعهد بدوره السلطان تيمور سلطان مسقط التعهد نفسه بعد عام، الذي أوصله بعد سنتين في ١٨ أيار ١٩٢٥ إلى التوقيع على امتياز تنقيب مدته ثلاثة أعوام مع (A.P.O.C). وفي خريف العام نفسه بدأت شركة (A.P.O.C) تنقيباً ولكن لم يستطع جيولوجيوها التنقل إلا في أراضي سلطنة مسقط إذ تخضع المنطقة الداخلية التي تملك اليوم الحقول البترولية إلى إمام عمان. فأصبح التنقيب فاشلاً وتخلت عن الامتياز.

بدأ في عام ١٩٢٥ «انطون بس» ممثل شل في عدن مفاوضات مع سلطان شمر في حضرموت للحصول على امتياز بترولي. وقد رأينا امتياز شل في فرسان إذ أحدثت شل في كانون الثاني ١٩٢٧ شركة «لاريدسي بتروليوم كومباني» لأجل تنقيبهم الذي تخلت عنه عام ١٩٢٩ ويبدو برؤية اليوم توجه شل الشركة غير المعتبرة من الحكومة البريطانية نحو الغرب من شبه الجزيرة الخالي من البترول، مقصوداً. لم

يكن ذلك مستحيلاً لأنه أسفر التنقيب في الساحل الغربي من الخليج والغني جداً اليوم بالحقول البترولية عن نتائج سلبية. ختم الجيولوجي السويسري هيم الذي زار تلك المنطقة في ربيع ١٩٢٤، تقريره: ان الكويت بلد ذات احتمالات بترولية ضعيفة ولكنه لا يبعث إلى التفاؤل كثيراً، وليس له الحق في أن يوصي بمنطقة الاحساء للحفر، وان البحث عن البترول في البحرين أو في المناطق المتبقية من شرق شبه الجزيرة العربية مرتبط بعامل الصدفة.

لم يستولِ اليأس على هولمز رغم التقارير المحبطة وبدأ العمل في البحرين وكان خفيف الظل أمام ريبة البريطانيين. فوقع امتيازاً مائياً مع شيخ البحرين. وعندما تدفقت المياه بغزارة من الآبار الارتوازية المحفورة، وقع الشيخ معجباً في ٢ كانون الأول ١٩٢٥ امتيازاً بترولياً يشمل مئة ألف فدان مع وعد لما تبقى من المقاطعة. ولكن إذا وجد هولمز الوسيلة ليحصل على امتيازات من الشيوخ الذين بلا مال كان يعد بمبالغ أكبر من (A.P.O.C) عند التوقيع وأثناء سنين التنقيب الأولى، ولكن أفرغ ازدياد الامتيازات بدون اكتشاف البترول صناديق شركة «الاسترين اند جنرال سانديكات» التي كانت مدينة بدورها لابن سعود. في شباط ١٩٢٦ عرض هولمز على شركة (A.P.O.C) أن يبيعها الامتيازات الأربعة، الاحساء - المنطقة المحايدة - البحرين - الكويت أي معظم الحقول البترولية الحالية لشبه الجزيرة العربية بمبلغ ٥٥ ألف ليرة استرلينية. قبلت (A.P.O.C) التي كانت تأمل دائماً أن تنتصر بفضل ضغوط الحكومة البريطانية ولكنها يئست من تقارير جيولوجيها الذين قاموا بتنقيب جديد في الكويت في أوائل العام، وعرضت ٤٢ ألف ليرة استرلينية. استمرت المفاوضات حتى نيسان وقطعتها (A.P.O.C). قام آنذاك جيولوجي (A.P.O.C) بتنقيب سريع في قطر ووقعت الشركة في آذار ١٩٢٦ مع الشيخ عبدالله امتيازاً لسنتين على كافة الأراضي، إنه اجراء تحفظي بدون شك لكي تتحاشى امتيازاً جديداً لصالح هولمز.

ذهب هولمز إلى الولايات المتحدة ليبيع امتيازاته وبدأ مفاوضات مع «استندر

أويل كومباني» في نيوجرسي. وعرض عليهم أولاً البحرين ولكن بدا ذلك الامتياز صغيراً جداً ليستحق توظيف أموال في الشرق الأوسط للشركة الأمريكية. في تموز ١٩٢٧ سمحت شركة «الاسترين اند جنرال سانديكات» لمثلها في الولايات المتحدة «توماس وارد» ببيع الامتيازات الأربعة معاً. فكر هولمز بينما كان يحاول الحصول على امتيازات كويتية باستخدام الطريقة نفسها المستخدمة في البحرين ولكن ظهرت آثار بترول في حفر آبار ارتوازية. فشد ذلك اهتمام شركة أمريكية أخرى «الغولف اويل كوربوريشن اوف بان سلفانيا»، ووقعت اتفاق مع (EGS) في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٧ واشترت الامتيازات الأربعة.

بعد بضعة أشهر في ٣١ تموز ١٩٢٨ وقع اتفاق نهائي ضاماً المساهمة الأمريكية في «تركش بتروليوم كومباني» المسماة «ايراك بتروليوم كومباني» (I.P.C)، واضطر البريطانيون إلى التراجع أمام الضغوط الأمريكية فتنازلوا عن نصف حصة (A.P.O.C) أي ٢٣ر٧٥٪ لمجمع شركات أمريكية مكون من اطلنطيك ريفيناغ كومباني (٦٦و١٦٪)، الغولف اويل كوربوريشن (٦٦و١٦)، بأن امريكن بتروليوم ترانسبورت كو (٦٦و١٦٪)، استندر اويل كومباني اوف نيوجرسي (٢٥٪)، استندر اويل اوف نيويورك (٢٥٪). وبما أن شل التي رأس مالها ٦٠٪ بريطاني، هي شركة بريطانية، أصبحت (I.P.C) أيضاً شركة بريطانية. وتعهد بالاتفاق نفسه شركاء (I.P.C) تعهد عام ١٩١٤ إذ اقتنعوا عن التوقيع افرادياً على امتيازات في كافة الأراضي الآسيوية من الامبراطورية العثمانية السابقة ومن شبه الجزيرة العربية باستثناء الكويت. فكان ذلك «تعهد الخط الأحمر».

يلزم هذا التعهد شركة قولف اويل التي هي عضو في (I.P.C) على التخلص من امتياز البحرين فاتصلت بالبريطانيين. فخبروا حينئذ ان هولمز قد باعهم الامتيازات الاربعة. اخطر البريطانيون غاضبين، هولمز الذي كان في الكويت يحاول الحصول على امتياز من الشيخ ان الحكومة البريطانية تفرض بند «الجنسية البريطانية» لكل

امتياز يوقع مع الشيخ ومثله مع البحرين، يبعد هذا الاجراء شركة الغولف اويل.

قدمت الغولف اويل امتياز البحرين إلى (A.P.O.C) فرفضته على ضوء التقارير الجيولوجية السلبية. وبعد بضعة أيام في ٢١ كانون الأول ١٩٢٨ نقلت الغولف اويل حقوقها في البحرين إلى «استندر اويل كومباني اوف كاليفورنيا، فسجلت هذه الشركة في كندا في ١١ كانون الثاني بحرين بتروليوم كومباني» (B.a.P.O.C) لكي تتجاوز بند الجنسية. ولكنها احتاجت إلى تدخل الحكومة الأميركية العنيف لكي يقبل البريطانيون في أيار الغاء بند الجنسية. ولم تنظم المساهمة الأمريكية في امتياز البحرين إلا في ٣ كانون الثاني ١٩٣٠ لم يؤثر ذلك بشيء على الوضع البريطاني في الكويت. أخطر هـ.ر.ب ديكسون الذي يمثل الآن حكومته في الامارة، هولمز. إن بند الجنسية لا يزال قائماً في الكويت، استمر هولمز بالصراع حتى نهاية ١٩٣١ عندها أعلن أنه استنفذ كل الفرص في المباحثات ومن الأفضل طلب تدخل أمريكي سياسي، كتب الغولف اويل إلى وزارة الدولة التي طلبت من سفارتها في لندن تبنى القضية.

ظهرت الأهمية التي أولتها وزارة الدولة للقضية بارسالها في شباط كسفير إلى لندن اندريه ميلون المساهم الأكبر في الغولف اويل. بينما كانت المباحثات مستمرة بدأت A.P.O.C تنقيباً جديداً في الكويت بين منتصف كانون الأول ومنتصف كانون الثاني ١٩٣٢. أوصى الفريق بالحفريات التنقيبية. ونفذت من شباط وحتى أوائل نيسان بدون نتيجة أكيدة. استنكفت الحكومة البريطانية في ٩ نيسان عن بند الجنسية في الكويت رغم معارضة وزارة الهند. استنكفت الغولف اويل في الوقت نفسه عن امتيازاتها في الاحساء والمنطقة المحايدة مقابل ذلك بدون شك. وبعد شهرين من ذلك في ٣١ أيار ١٩٣٢ تدفق اويل بترول في شبه الجزيرة العربية من ابار (Ba-P-C-0) في البحرين وتوجهت كل الانظار نحو شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي كان فيه ابن سعود حراً من كل امتياز.

منذ توقيع المعاهدة الانكليزية السعودية ١٩٢٧ أصبحت العلاقات غير ودية بين

البلدين. وبعد بضعة أشهر من توقيع المعاهدة في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٧، هاجم جماعة من الاخوان وقتلوا رجال الشرطة والعمال الذين كانوا يبنون مركزاً للشرطة في البُصية داخل العراق. وكان العراق ونجد في كانون الثاني في حالة حرب مع الاخوان الذين هاجموا في العمق وطردتهم طائرات RAF. وكان الاخوان في الوقت نفسه في ثورة ضد سلطة ابن سعود. ولكن رفض ابن سعود في مؤتمر جدة المكلف بوضع حل لهذه المسألة، بناء مركز مراقبة في الأراضي العراقية. وكان على الملك أن يتعهد بالقضاء على الاخوان. ولكن الثقة به وسذاجته أصبحت موضوع شك لدى الانكليز. حصل ذلك في وقت كان الخليج قد اكتسب أهمية جديدة بنظر الامبراطورية البريطانية. وعندما بنيت سلسلة من المطارات الضرورية للاتصال الجوي بالهند إذ كانت سرعة الطائرات وطاقتها ضعيفة جداً، صرح السير هوغ تونشارد وزير الطيران للجنة محافظات الخليج العربي: «إن قطع الارتباط بالخليج العربي كارثة خطيرة للقوات الجوية مثل اغلاق قناة السويس للبحرية».

سحق تمرد الاخوان في كانون الثاني ١٩٣٠، ولكن بقيت العلاقات الانكليزية السعودية سيئة جداً ١٩٣١-١٩٣٢. أراد ابن سعود من الثورة أن يجعل بلده حديثاً. ولكنه بحاجة ماسة إلى المال. فالتفت إلى الأمريكان، وتلقى زيارة «شارل كران» الانساني عام ١٩٣١. فترك وراءه ك.س تويتشل مكلفاً بتحسين مجاري المياه في جدة. وفي كانون الثاني ١٩٣٢ اجتمع تويتشل بابن سعود في الهفوف في مقاطعة الاحساء، فطلب إليه ابن سعود أن ينظم فيها تنقيباً جيولوجياً. فاقترح تويتشل انتظار نتائج حفريات البحرين التي بدأت في ١٦ تشرين الأول السابق. وفي آذار زارهولمز الذي كان على اطلاع بدون شك على تخلي اوبل عن امتيازات الاحساء والمنطقة المحايدة، ابن سعود في جدة لكي يحصل مجدداً على عقد لصالح (EGS) أو استندر اويل كومباني اوف كاليفورنيا، ولكن لم يصغي له الملك لأنه لم يتسلم بعد الدفعات المالية التي وعد بها في الامتيازات الأولى.

كتب ابن سعود بعد اكتشاف البترول في البحرين إلى تويتشل الذي كان في نيويورك وطلب إليه أن يفاوض مع رؤوس الأموال الأمريكية لكي يحصل على امتيازات مناجم أو بترول، واجتمع مبعوث آخر لابن سعود جون فيلبي الذي كان يدير شركة استيراد البترول والسيارات الأمريكية في جدة للغاية نفسها في لندن بـ«فرنسي ب لومي» وكيل وزارة سابق ومساعد مدير استندر اويل كومباني اوف كاليفورنيا (Socal).

في تشرين الثاني ابرقت (Socal) إلى فيلبي في جدة تطلب منه أن يحصل على موافقة تنقيب جيولوجي، كانت الدراسة الوحيدة التي تمت في الاحساء، دراسة الدكتور هيم في ربيع ١٩٢٤ سلبية للغاية. ولكن رفض ابن سعود أي تنقيب قبل اجراء مفاوضات آملاً بدون شك أن يحصل على عقد تنقيب مع سلفة بسيطة. قررت سوكال (Socal) رغم كل شيء أن تقبل بذلك. ساهمت (A.P.O.C) (متسترة وراء "I.P.C") في المفاوضات ولكن حصلت سوكال على الامتياز في ٢٩ أيار ١٩٣٣ في القسم الشرقي من العربية السعودية.

ولا يزال الجدل قائماً لكي نعرف إذا كان فقدان بريطانيا العظمى للامتياز هذا يعود إلى اللامبالاة أمام هيمنة A.P.O.C في الشرق الأوسط أو إلى اليأس أمام وضع العلاقات الانكليزية السعودية أو إلى الثقة الزائدة. وربما كانت الأسباب الثلاثة مجتمعة ولكن بنسب متفاوتة. لم تكن الحكومة متفائلة في لندن بدون شك إذا ما نظرنا إلى العلاقات مع ابن سعود. وكانت A.P.O.C تعاني من مصاعب أخرى ولم تتلق التعليمات الكافية أو التشجيع السريع من لندن فاجرت مباحثات بطيئة. تفاجيء «ريان» الوزير البريطاني في جدة والذي كان يؤمن بجاه بريطانيا وتعاون فيلبي عندما علم بالنتيجة. استمر الثلاثة الذين اعتادوا على الأساليب السريعة المتبعة مع شيوخ الخليج وعلى الاعانات التي ترافقها بعرض روبيات لابن سعود بينما تعهد الأمريكيون بدفع قطع ذهبية. وكان يميل ابن سعود إلى الحصول على المال السريع من امتياز

أكثر من ميله إلى انتظار أرباح محتملة في المستقبل، فحصلت هكذا «سوكال» على الامتياز إذ دفعت ٣٠ ألف ليرة استرلينية ذهباً عند التوقيع و ٢٠ ألف بعد ١٨ شهر بينما لم تعرض «A.P.O.C + IPC» إلا مبلغ ١٠٠٠٠ آلاف فقط.

الخط الأزرق وغيره:

لم يمنع التردد البريطاني قبل توقيع امتياز البترول من قبل ابن سعود، اتباع سياسة حازمة فيما بعد، تنحصر سياستهم في نقطتين: ضبط السلطة السعودية في الحدود الممكنة وحماية الامارات بشكل فعال أكثر. وكان الامتياز البترولي في هذا المجال سلاحاً جيوسياسي «جغرافي سياسي». لقد حاول ابن سعود الذي يعود سر صعوده إلى عدم مجابهة السلطة العظمى الحالية، أن يخفف من نتائج الامتياز. وفي نيسان تم اعتراف متبادل بينه وبين عبدالله. وفي الصيف التالي وقع معاهدة بين شرق الاردن والعربية السعودية. وضمن عمل متبادل عرض ابن سعود على الحكومة البريطانية امتيازاً على القسم الشرقي من مملكته، الحجاز وعسير فرفضه الانكليز بأدب عالمين أنه لا يوجد الشيء الكثير في هذا الجانب.

أصبحت الحدود الشمالية ثابتة وهادئة منذ هذا التاريخ، والعلاقات بين ابن سعود والهاشميين طبيعية، وأصبح موضوع خلق ازعاجات ضد ابن سعود يشكل خسارة للبريطانيين وأما الوضع في الجنوب الغربي فكان مهيأ للملهاة.

وجد البريطانيون أنفسهم مجبرين على التفاوض مع الايطاليين نظراً للمعاهدة الإيطالية اليمنية ١٩٢٦، لكي يحافظوا على وضعهم في البحر الأحمر. وكان ذلك موضوع اتفاقيات روما في آذار ١٩٢٧. ولكن في حزيران وقع الإيطاليون إتفاقاً سرياً مع الإمام يحيى، حيث مقابل بعض الحقوق الإساسية يقبلون ببيعة أسلحة. وتقربوا في الوقت نفسه من سيد حسن الإدريسي، أمير عسير، ساعين لإبعاده عن

ابن سعود. فنجم عن تقوية الإمام اندلاع حرب ضد البريطانين عام ١٩٢٨ من حزيران. وأضعف استخدام الكثيف لسلاح الجو R A F الذي قصف تعز وصنعاء، الإمام وأعطى فرصة لابن سعود بعد القضاء على ثورة الإخوان أن يضم عسير عام ١٩٣٠. واستمرت المعارك بين الإمام والبريطانيين. ولكن بان في الأفق بوادر اتفاق ١٩٣٢ – ١٩٣٣ ولاسيما أن حدود الشمال، الحدود مع ابن سعود أصبحت تدريجياً موضوع اهتمام الإمام. وثار الإدريسي ضد الحاكم السعودي في عسير في تشرين الأول ١٩٣٢. فسحقت الثورة بعد سنة فلجأ الإدريسي إلى اليمن وحرك ذلك موضوع الحدود مع هذا البلد، فاجتمع ممثلوا البلدين في آذار ١٩٣٣ في ميدى على الساحل ليرسموا الحدود السعودية اليمنية ولم يتوصلوا إلى اتفاق. في تموز اجتاحت القوات اليمنية عسير واحتلت مقاطعة نجران وفرضت عودة الإدريسي، حاول البريطانيون في هذا الآطار أن يعيدوا العلاقات مع الإمام. وغادر في ١٥ كانون الأول «ريلي» الحاكم البريطاني عدن متجهاً إلى صنعاء ليجري مباحثات رسمية. ونجم عنها في ١١ شباط ١٩٣٤ معاهدة صداقة وتعاون متبادل بين بريطانيا العظمى واليمن، وبقيت مسألة الحدود بين عدن واليمن معلقة. ولكن اعتمد كأساس الحدود الانكليزية التركية لعام ١٩٠٤، رفعت بريطانيا العظمى بموجب هذه المعاهدة حصارها لبيع السلاح إلى الإمام. وتفاوض في الوقت نفسه، السعوديون واليمنيون في أبها عاصمة عسير. فطلب ابن سعود بتقسيم نجران وبتسليم الإدريسي له. فرفض اليمنيون مطلبه. هاجم ابن سعود اليمن في ٢٠ آذار واحتلت القوات السعودية جيزان وميدى ووصلت الحديدة. في ٤ آيار أرسل الانكليز مراكب حربية إلى مرفأ الحديدة ليحموا رعاياهم وقدموا ٣٥ سيارة مصفحة إلى الإمام، وعندما شعر ابن سعود بالورطة أعلن في ١٢ آيار وقف إطلاق النار على الحدود كافة ووضعت معاهدة الطائف في حزيران، الميثاق.

إذا استثنينا التدخل اليمني، جرت المجابهة الانكليزية السعودية خاصة على

جبهة الإمارات وكان الهدف الأول والدائم هو إمارة قطر التي أظهر ابن سعود مطمعه بها مراراً. وفي عام ١٩٣٠ تفاجىء العميل البريطاني في البحرين عندما علم أن الشيخ عبد الله يدفع ١٠٠٠٠٠ ألف روبيه سنوياً لابن سعود. وأرسلت (A.P.O.C) في اليوم الثاني لاكتشاف البترول في البحرين أحد عملائهم إلى قطر، فوقع بعد دراسة قصيرة امتيازاً لعامين مع الشيخ عبد الله في أب ١٩٣٢.

بدأت في خريف ١٩٣٣ «سوكال» التنقيب في الاحساء عند جبيل، في تشرين الثاني أحدثت شركة «كاليفورنيا أرابيا أويل كومباني» «ca SOC» التي أصبحت فيما بعد «أرابيا أمريكا أويل كومباني» (أرامكو – ARAMCO) وبعد شهر عندما رأت A.P.O.C الخطر يقترب فقررت أن تشترك الفولف أويل. وأحدثت كويت أويل كومباني لكي تحصل على امتياز مشترك في الكويت. ولكن بينما كان ينشر المقيم البريطاني في الخليج شائعات تقول أن شيخ قطر مستعد للتنازل عن حقوقه البترولية لابن سعود أي «كاسوك» (Casoc) سألت حكومة الولايات المتحدة بريطانيا العظمى عن حدود قطر لكي يستطيع رسم حدود امتياز (كاسوك).

قامت مسألة الحدود الشرقية أخيراً وقررت الحكومة البريطانية أن تكون هذه الحدود «الخط الأزرق» ولكن لم يرسل هذا القرار ولا المعاهدة الانكليزية التركية ١٩١٣ إلى ابن سعود. لقد قال بحاثة بريطاني بتعبير جيد «يبدو أن بريطانيا العظمى تفضل الإبتعاد عن المشاكل مع الملوك العرب إذ ما أبلغتهم بسرعة بحدود ممالكهم ولكن عليها أن تفعل الآن شيئاً.

أول مسألة تتساءلها الحكومة البريطانية هي التالية : «هل يجب أن تطابق الخط الأزرق الموجود في الغرب من قطر مع الحدود القطرية السعودية أو تترك منطقة حرة بين الإثنين ؟ الحل الأول مفضل لأنه يزيد امتياز البترول في قطر، أما الحل الثاني فهو حماية هذا البلد نسبياً من المطامع السعودية، وتميل وزارة الهند إلى الحل الثاني ولكن يعتقد ريان الوزير البريطاني في جدة أنها تشجع ابن سعود على

التقدم إلى ماوراء حدود قطر.

بينما كان «قول» المقيم البريطاني في الخليج يستغل ضغط ابن سعود على شيخ قطر لكي لا يوقع مع شركة A.P.O.C، قررت اللجنة الوزارية التي تجتمع في لندن في ١٥ شباط ١٩٣٤ منع «سوكال» من الحصول على امتياز آخر في الخليج، أما فيما يخص المنطقة المحايدة الكويتية فمن المستحسن أن تجمد وأن لا يعطي أي امتياز لأي شخص. وقرر اجتماع ثاني بعد إسبوع بالمحافظة على الخط الأزرق، وأعلن إعتبار المقاطعات الموجودة بين قاعدة شبه جزيرة قطر والخط الأزرق داخل منطقة النفوذ البريطاني وتابعه لقطر.

وقعت الحكومة البريطانية بالتوافق مع الموقف في ٥ آذار اتفاقاً مع الكويت أويل كومباني (غولف أويل – A.P.O.C) المسجلة شركة بريطانية ونزل «فول» في قطر لكي يفاوض مع الشيخ عبد الله حول الامتياز البترولي وشرح للشيخ أن A.P.O.C وحدها شركة بريطانية ويستطيع أن يفاوض معها. ولكن دفع اضطراب الشيخ إلى الظن أنه قام بتعهد مع جهة آخرى، وصرح الشيخ أخيراً لزيارة فول الثالثة إن لديه اتفاق مع ابن سعود ولكنه اتفاق خاص لكي يبعد عنه الخطر، ظن فول عندما علم أن «سوكال» عرضت شروط أفضل من شروط (A.P.O.C) ويريد الشيخ أن يماطل حتى انتهاء اتفاق «A.P.O.C» في آب لكي يبرم اتفاق مع «سوكال»، فلم يبق الا حل واحد أن يعلن أولاً قرار لندن المتعلق بحدود قطر للشيخ عبد الله ليحمله على التوقيع ومن ثم لابن سعود ويتم الإعلان الثاني في ٢٨ شباط عندها تكون أيدي ابن سعود مرتبطة بالحرب ضد اليمن.

أتى الجواب في ٢٠ حزيران. وكان الرفض قطعي. وعدت بريطانيا العظمى حسب رأي السعوديون بموجب معاهدة عام ١٩١٥ أن تعترف بالسيادة السعودية على أراضي الأجداد لابن سعود. وتشمل تلك المقاطعات المدن الساحلية لقطر ومدن عمان وحضرموت. وفي تموز بعد توقيع المعاهدة السعودية اليمنية دعا ابن سعود إلى

الطائف ريان لكي يناقش معه الخط الأزرق، وعندما قدم ريان تقريره حول المحادثات كتب : «أعتقد إنني لا أبالغ إذا قلت أن علاقات حكومة جلالتها المستقبلية مع ابن سعود مرتبطة بشكل وثيق بموقفهم تجاه هذه المسألة، وإني أسف جداً لتحفظ حكومة جلالتها لقبولها بصراحة أن تكون مكاسبها في هذه المنطقة من الصراع مرتبطة كثيراً باحتمالات البترول. أن ابن سعود يعرف ذلك الموقف جيداً ولا يريد أن يقوله هو نفسه».

كان خبراء وزارة الخارجية القانونيون أشد قساوة. إذا كان ابن سعود لا يملك وثائق قوية شرعية لمطالبته بالشرق من الخط الأزرق. حسب تعليقهم – فلا تملك الحكومة البريطانية أية وثيقة من ذلك. فليس لديها سلطة شرعية ولا حسب الواقع على الشرق من الخط الأزرق. ويستطيع ابن سعود أن يعطي امتيازات للامريكين كما ويستطيع أن يحتل هذه المنطقة التي تشكل فراغاً سياسياً. زيادة على ذلك ليست بريطانيا العظمى في مكانة تخولها إعطاء حدود جديدة للعربية السعودية حتى ولو كانت مفيدة لأنها ليست في المكانة الشرعية لتقدم أي شيء. فاستنتجت وزارة الخارجية من ذلك إنها ملزمة على الخداع على الخط الأزرق.

لم تكن الدوائر الحكومية كافة متفقة على المسار الذي يجب أن يتبع. تريد دائرة الهند الخط الأزرق لتحمي الأمارات وتريد وزارة الحرب أي خط – حدود – ولكن خطاً على كل حال لكي توقف ابن سعود. ويفضل فول عدم وجود خط أبداً فلا يحصل اغتصاب ولا تكن بريطانيا العظمى طرفاً.

تقرر انتظار اقتراحات ابن سعود المعاكسة. وقع أثناء ذلك الشيخ أحمد أمير الكويت إمتيازاً مع كويت أويل كومباني في ٢٣ كانون الأول ١٩٣٤. تقدم الشركة ٤٧٥ ألف روبيه عند التوقيع ولكن فقط ثلاث روبيات.(٤ شلن و ٦ بنس) لكل برميل. وتلقي الشيخ أحمد أمير البحرين الذي وقع بعد ستة أيام إمتيازاً نهائياً مدته ٥٥ عاماً مع «B A.P.CO»، ٨ و ٣ روبيات (١٤, ٠ دولار للبرميل).

وصلت المطالب السعودية في ٣ نيسان ١٩٣٥، يطالب ابن سعود جنوب شبه جزيرة قطر ومنفذاً على البحر في الشرق منها، أن الحدود التي تمر في جنوب واحة اللواء في أبو الذهب تتصل بخط الطول ٥٦ وتتبعه نحو الجنوب بينما يمر الخط الأزرق بالقرب من خط الطول ٢٠ و ٥٠ ويسمى الإقتراح السعودي بالخط الأحمر، قررت اللجنة الوزارية المجتمعة في لندن أن تكون حازمة فيما يخص حدود قطر الجنوبية والمحافظة على الإتصال بين الإمارة وإمارة أبو الذهب ورفضت إعطاء منفذ لابن سعود إلى البحر في شرق شبه جزيرة قطر. وتقرر المساومة حول ما تبقى إذ اقترحت في البدء خط الطول ٥٣ المعروف بالخط الأخضر. وسيتبعها في الصيف الخط الأصفر والخط البني المقترحة بالتسلسل على ابن سعود من قبل ريان الذي كان بالإضافة إلى كل ذلك مصاباً بعمى الألوان.

كان يحاول «فول» إقناع الشيخ المتعنت. ونجح ممثل AP.OC في شهر تموز الماضي أن يمدد ٨ أشهر الامتياز. ولكن انتهت هذه المهلة عندما قبلت الحكومة البريطانية بأن تضمن حماية قطر جواً «ضد الهجمات العنيفة والمفتعلة» وتعترف أيضاً بأحمد ابن عبد الله كوريث للعرش بشرط أن يتعهد بالإعتراف بالمعاهدة الإنكليزية القطرية لعام ١٩١٦، وقع بعد إسبوع الإمتياز البترولي بين الشيخ عبد الله وشركة «A.P.O.C» يمنح هذه الشركة حقوقاً خاصة في الاستثمار والنقل والتكرير وتسويق البترول والغاز الطبيعي والمستخرجات البترولية الثانية في قطر لمدة ٧٥ عاماً. وتلقى الشيخ ٤٠٠ ألف روبية عند التوقيع و ١٥٠ ألف في كل عام لـ ٥ سنوات تالية و ٣٠٠ ألف للستين عاماً الباقية. ويأخذ مقابل ذلك ثلاث روبيات (أربعة شلن وست بنسات) لكل برميل ثم نقلت A.P.O.C الامتياز إلى بتروليوم دوفلو مبمنت (قطر) فرع شركة تابعة لكي لا تقع تحت ضريبة الخط الأحمر «اتفاق I.P.C ١٩٢٨». وكتب ابن سعود إلى الشيخ عبدالله غاضباً إذا كان قد خضع السعوديون لارادة بريطانيا العظمى واعترفوا بمشايخ الساحل فيجب أن تحكم أطراف البلاد بقانون الصحراء، ويرفض

الخط الأزرق ويحذر المشايخ من نتائج توقيع امتياز بترولي قبل رسم الحدود.

دفعت ضغوط موسوليني على الحبشة في الخريف البريطاني إلى الحذر لكي لا يدفعوا بابن سعود إلى أحضان ايطاليا. اقترح ريان حينذاك في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٥ خط الرياض الذي يبدأ من غرب شبه جزيرة قطر ويحاذي جنوب الخط الأحمر الذي يطالب بها ابن سعود ثم يتبع خط الطول ٥٥، رفض ابن سعود واستمر بالمطالبة. بجنوب قطر ويمنفذ في شرق شبه الجزيرة. ولكن سيطر البريطانيون على قطر بامتياز A.P.O.C وفعلوا الشئ نفسه في الامارات. جمد اقتراب الحرب الخلافات حتى فتح ابن سعود الملف عام ١٩٤٩.

<u>جولة المشايخ (خريطة رقم - ٢٥-)</u>

أدركت بريطانيا العظمى مع أزمة الحدود الشرقية أنها أذا سيطرت بموجب المعاهدات الموقعة في القرن التاسع عشر مع مشايخ الساحل المهادن على «الباب الأمامي» باب البحر، بقي «الباب الخلفي» باب الصحراء مفتوحاً. فكانت تلك الأزمة فرصة جديدة للسيطرة فاتخذت شكل امتيازات بترولية.

في خريف ١٩٣٤ عندما كانت لندن تحاول أن تضع لنفسها سياسة على الحدود الشرقية زار الكولونيل لوخ، العميل البريطاني في البحرين، الشيخ شخبوط أبو الذهب. وكان يفكر الرجلان بالبترول ولكنهما يتباحثان عن الماء. سأل الشيخ إذا كان بالامكان القيام بالحفر في سبيل البحث عن الماء في أراضيه، أجاب لوخ انه سيرسل له جيولوجي شركة البترول. وعاد لوخ في تشرين الثاني يرافقه ب ت كوكس جيولوجي من A.P.O.C ولكن تحاشى الشيخ المطلع على المساومات في قطر وأماكن أخرى أن يرتبط مع A.P.O.C قبل أن يرى المنافسين.

كان يحلم مشايخ الساحل الذين أفلستهم اللآلئ اليابانية المصنعة وضررت

مصدرهم الوحيد، صيد اللؤلؤ، بامتيازات بترولية ودخل ثابت. فطلب في شباط عام ١٩٣٥ الشيخ سلطان أمير رأس الخيمة من قائدالطروادة الفرنسية «بوغن ڤيل» الذي كان ماراً بالخليج بأن يرسل له منقبين. وكتب بعد بضعة أشهر هولمز إلى «فول» المقيم البريطاني في الخليج ليعرض عليه تنقيباً في إمارة أبو الذهب ودبي بمشاركة «الانكلو امريكاً كوربوريشن امف سوت امريكا»، شركة نسبة ٨٠٪ من رأس مالها بريطاني، حاول فول ان يوجد موانع للمحاولات المختلفة اذ ارسل إلى المكان جيولوجي (A.P.O.c) يرافقه حجي وليمسون، شخص عالي المقام انكليزي اصبح مسلماً تقياً وتاجراً في البصرة ويقوم بدور وسيط بين (A.P.O.C) والزعماء المحليين فوقع وليمسون اختيار تنقيب بترولي لمدة عامين مع الشيخ سلطان أمير رأس الخيمة في الأول من آب ١٩٣٥ ومع المشايخ سلطان ابن صقر امير الشارقة وسعيد امير دبي بعد شهر اضطر هولمز ان ينسحب. وفي تشرين الأول احدثت شركة «بتروليوم كوسيسيون LTD» من مكونات I.P.C نفسها -الخط الأحمر يلزم- للتنقيب عن البترول في الامارات. وحذرت دائرة الهند مدير I.P.C، انه يجب أن يكون كل جيولوجي يرسل إلى الامارات بريطاني وان كل حملة يجب ان تتم تحت اشراف المقيم البريطاني وكل مباحثات يجب ان تخضع لسماح الحكومة البريطانية.

استمر الشيخ شخبوط بالمقاومة اذ طلب مليوني روبية-ورأى فول في ذلك تدخل هولمز- ولكنه قبل أخيراً في كانون الثاني ١٩٣٦ امتياز تنقيب لـ ٣ سنوات مقابل ثلاثة آلاف روبية في الشهر (٢٢٥ ليرة استرلينية). فلم تكن مقاومته بدون فائدة لأن شيخ دبي لم يأخذ إلا ألف روبية في الشهر (٧٥ ليرة استرلينية) وشيخ رأس الخيمة ٧٥٠ روبية. ووقع أيضاً في شباط امتياز لمدة عامين مع شيخ الرشيد امير عجمان ٥٠٠٠ روبية في الشهر (٣٧٠ ليرة استرلينية و ١٠ شلن) وتمت اللعبة تقريباً.

انكب اجتماع المحافظات في دائرة الهند على دراسة حدود الامارات. فلم تكن حدودها الخارجية فقط موضوع خلاف بل أيضاً الداخلية منها غير واضحة، ولم

تشكل هنا الحدود القبلية مقاسم، لأن ضعف المشايخ وكثرتهم تدفع القبائل إلى التغير الكثير في التبعية. فتقرر الإكتفاء في الوقت الراهن باستخدام التعبير «أراضي الشيخ» في نص الإمتيازات. وكان هذا أيضاً رأي فول لأنه يعتقد أن الوقت ليس مناسباً لازعاج المشايخ وكان رأي رندل من وزارة الخارجية معاكساً إذ يطالب بحدود ثابتة لكي يستطيع أن يفاوض بموجبها ابن سعود.

– لم تكن الأمور سهلة. عندما كتب فول إلى المشايخ الخمسة ليطلب إليهم أن يتحملوا مسؤولية أمن الجيولوجين وأن يعوضوا على الشركة في حالة حادث. لقد رفض المشايخ الصغار غير الواثقين من سلطتهم في داخل الأراضي لأنهم كانوا لا يريدون أن يعترفوا بضعفهم، التوقيع على «هذا البند الأمني»،وأجاب مشايخ أبو الذهب ودبي وحدهم بسرعة. وبدأ التنقيب في أراضيهم في ربيع ١٩٣٦.

– عندما تقدمت المباحثات في الخريف شوطاً مع شيخ دبي طلب سيخ شخبوط أبو الذهب اتفاقاً حول حدود البلدين قبل توقيع الإمتياز. لكن أحيا تقدم المباحثات الخلافات. تقربت شركة البحرين أويل كومباني (BA,PCO) التي أسست في تموز ١٩٣٦ مع تكسس أويل كومباني (الكالتكس) وبنت مصفاة في البحرين، من دائرة الهند، لتعبر عن اهتمام الشركة الأم «استندر أويل كومباني أوف كاليفورنيا»، بالأمارات، وأرسلت أيضاً كاليفورنيا أرابياً استندر أويل كومباني (الكاسوك Casoc) مبعوثاً هندياً إلى المشايخ لتحضير جولة جيولوجي. أوقف تدخل شركة «كاسوك» المالكة للامتياز السعودي مسألة الحدود الشرقية، وعندما قطعت دائرة الهند بسرعة مطالب (BA,PCO) الملحة اجتمعت اللجنة الوزارية للشرق الأوسط في الأول من شباط ١٩٣٧ لتناقش مرة ثانية مسألة الحدود.

– لا تستطيع اللجنة، رغم اعتبارها أن «صداقة ابن سعود لنا أثناء العشرين سنة القادمة ذات أهمية كبيرة أهم بكثير من بضع مئات من الكيلومترات من الصحراء وحتى من مقاطعات بترولية »، ان تقبل التخلي عن جبل نقش في جنوب

قطر الذي أدخل في إمتياز P.O.C.A ولا عن خور العديد، المنفذ إلى الخليج إلى الشرق من قطر الذي يفصل بين هذه الإمارات وأبو الذهب. ذهب في آذار السير جورج رندل إلى جدة ليتباحث مع ابن سعود ولم يحصل على نتيجة.

أزم التوتر بين الحكومة البريطانية والشركات الخلافات المحلية، ودفع تنقيب شركة بتروليوم ديفلو بمانت في الزيارة على الساحل الغربي من قطر إلى المطالبة من قبل البحرانيين. فسلح في آب عام ١٩٣٧ الشيخ عبد الله ٣٧٠٠ رجلاً وهاجم قبيلة النعيم في الزبارة التي يحميها الشيخ حماد أمير البحرين، وكان البريطانيون إلى جانب القطريين أي ضد «سوكال» ومع «AP.O.C» . أعلن الشيخ حماد الذي منع من العمل العسكري، الحصار على قطر. وقبل المشايخ من جانبهم «البند الأمني» ولكن كانت الجولة الأخيرة من المفاوضات جولة الأمتيازات صعبة.

وقع في ٢٢ آيار ١٩٣٧ الشيخ سعيد أمير دبي إمتيازاً مع بتروليوم كونسسيون. ورافق الإمتياز اتفاق سياسي يضمن مواقع السلطات البريطانية في المقاطعة والمصالح الاستراتيجية البريطانية التي جرت بين الشركة والحكومة البريطانية، وتبادل رسائل يقبل فيها الشيخ بالاتفاق السياسي. وجد الشيخ نفسه موضوعاً تحت حماية الشركة فلا يشجع هذا الوضع المشايخ الآخرين على التعاون. وجه فول رغم ذلك بعد مشاورات مع الدائرة الهندية نموذج امتياز دبي إلى المشايخ الآخرين مرفقاً بإنذار للتوقيع.

حدثت الثورة بين المشايخ. فصرخ الشيخ سلطان بن صقر أمير الشارقة أنه مستعد للتوقيع ولكنه عند التوقيع رفض تبادل الرسائل. وأعلن الشيخ سلطان أمير رأس الخيمة أنه سيفاوض مع الشركة التي تعجبه، وطلب من فول ٢٠٪ من حصص الشركة وألف بندقية وبناء مدرسة، اعتبر المقيم تلك الطلبات كطلبات معتوه واتصل أخيراً بـ«سوكال» أما الشيخ شخبوط فقد شبّه انذار فول بالريح .

وصلت أخبار منذرة في الوقت نفسه إلى الخليج، يملك جميع مشايخ الساحل

المهادن حسب أقوال العميل البريطاني في البحرين، اتفاقات مع ابن سعود، فيمتد نفوذه حتى البريمن حسب «سوكال» حيث احتمال وجود البترول أوفر. وفي اجتماع لجنة الشرق الأوسط في ٨ تشرين الثاني ١٩٣٧، أعلن عن أعمال جيولوجين أمريكيان بين خط الرياض والخط الأحمر وتقرر أن يطلب وقف التنقيب لمتابعة المحادثات حول الحدود فقبل السعوديون بذلك.

صمدت السلطات البريطانية جيداً. فاضطرت «سوكال» إلى ترك المباحثات مع شيخ رأس الخيمة أمام رفض دائرة الهند القطعي، وعندما رفض شيخ الشارقة مرة ثانية توقيع الرسالة التي تعترف بالاتفاق السياسي أجبره فول « بأنه فقد رضى دوائر حكومة جلالتها الجيدة» ونتيجة لذلك سحب جواز سفره وجواز سفر اتباعه. ووقعت البتروليوم دوفولومنت عام ١٩٣٧ إمتيازاً مدته ٧٥ عاماً مع السلطان سعيد بن تيمور سلطان عمان وبدأت في آخر العام بعثة تنقيب في ظفارة. ومنح في كانون الثاني حاكم عدن شركة بتروليوم كونسيسون إمتيازاً على ما تبقى من شبه الجزيرة الجنوبي. وحصلت الشركة نفسها في تموز ١٩٣٦ على امتياز من ابن سعود على شاطيء البحر الأحمر بعرض ١٠٠ كم من حدود شرقي الإردن حتى اليمن فأصبحت فروع (AP.OC) تحيط شبه الجزيرة العربية.

بقي كيفية التغلب على مزاج مشايخ الساحل السيء فتبنى فول ذلك. وعندما طالب شيخ رأس الخيمة أن يفاوض فول حول الاتفاق السياسي أوقف له جواز سفره واتخذ الإجراء نفسه ضد شيخ أبو الذهب بعد بضعة أيام الذي أشتبه به بأنه يريد مفاوضة «سوكال» واقترح فول حصار مراكب الصيد التابعة له. استسلم شيخ الشارقة في ٢٧ آذار ١٩٣٨ ووقع مجموعة الوثائق ولكن كان ضروري أن يقبل فول أن يجعل قبول الإتفاق السياسي الزامي من قبل المشايخ حتى يتبع الآخرون. فوقع شيخ رأس الخيمة في ٧ كانون الأول ١٩٣٨ امتياز تنقيب لعامين ونصف – ولم يوقع الإمتياز النهائي إلا عام ١٩٤٥ – وتبعه شيخ أبو الذهب في ١١ كانون الثاني ١٩٣٩

بامتياز مدته ٧٥ عاماً وتبعه شيخ عجمان في ٢٣ آذار. ووقعت في الوقت نفسه شركة البترليوم كونسيسون امتيازاً مع الشيخ خالد بن أحمد وصي إمارة كلبة (التي اتحدت عام ١٩٥٢ مع الشارقة) ولم يكن الهدف هذه المرة البحث عن البترول بل السيطرة السياسية على الأمارة عن طريق الإمتياز.

لم يحل تثبيت الإمتيازات مسألة الحدود رغم ذلك. كتب فول «لا يعني أن مباحثاتنا مع الشيخ بهدف تأمين التنقيب في مقاطعة من قبل شركة الإعتراف بهذه المقاطعة كأرض لهذا الشيخ» وعندما بدأ التنقيب فعلاً في الإمارات بعد الحرب ظهرت الخلافات مجدداً. طالب ابن سعود في ١٤ تشرين الأول عام ١٩٤٩ بجنوب قطر ساحل أبو الذهب بالغرب من ميرفا وواحة ليوا أيضاً وبريمي متجاوزاً نحو الشمال الخط الأحمر لعام ١٩٣٥ وبعد ٦ سنوات من المباحثات والمتاعب تستعمل الحدود التي اقترحتها الحكومة البريطانية في ٢٦ تشرين الأول ١٩٥٥، اليوم كحدود مؤقتة يرمز إليها بالنقاط على الخرائط ولا توجد حدودثابتة تقبل بها الأطراف كافة بين الإمارات والعربية السعودية وبين السعودية وعمان أو الجزء الشرقي من اليمن.

الخلاصة :

يسترعي انتباهنا عنصران في هذه العودة الصاخبة لشبه الجزيرة العربية في التاريخ العالمي: أولاً دور البترول المبكر في تكوين القوى والخلافات الموجودة. حتى ولو أصبح البترول حقيقة مصدر غنى وقوة في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية فإنه عنصر جغرافي سياسي حاسم منذ قبل الحرب العالمية الأولى. أما العنصر الثاني هو صعود العربية السعودية الذي لا يقاوم ومستقلاً استقلالاً تاماً عن البترول. كانت السعودية قوة محلية عندما تدفق بترولها الأول عام ١٩٣٨ لأنها شرعت بطريقة منهجية في غزو شبه الجزيرة العربية منذ ١٩١٣ أو بالأحرى منذ عام ١٩٠٢.

امتلك بلدان في الشرق الأوسط المنحدر من بقايا الامبراطورية العثمانية، الحق في رسم حدودهما: تركيا مصطفى كمال والعربية السعودية عبد العزيز ابن سعود. ولكن اذ اضطرت تركيا أن تقاتل لتحفظ بقايا الامبراطورية كأرض دولة قومية، لقد نجحت العربية السعودية بتأمين توسع مستمر بدون حروب متخذة دائماً موقف حليف الدول العظمى.

تبدو الأزمة الحالية في الشرق الأوسط كتطرف للقومية العراقية، وكخلاف دول قومية ضد تكوين عشائري مصطنع تحافظ عليه مكاسب الدول العظمى أو غضب المقاومة الوطنية العلمانية ضد التقليد الديني. ولكن خط الجبهة هو أيضاً الخط الذي كان يفصل في الماضي بين الممالك الهاشمية والمملكة الوهابية وبين اليمن الذي تعاون مع الأتراك تخوفاً من التوسع السعودي. لا نستطيع أن نعتبر ذلك كبقايا ميكانيكية للماضي عندما نعلم أن الحركة الهاشمية رغم الدور المحدد من قبل البريطانيين فقد حملها أيضاً أمل القومية العربية الأول وكانت هذه القومية في العراق منذ سنين الانتداب البريطاني وندرك في الأزمة الحالية انه ليس مستقبل القومية العراقية وحده في خطر بل أيضاً -وربما خاصة- دور الدولة السعودية في المستقبل.

IIIالقفقاس

٩- نهاية القفقاس ١٩١٤-١٩١٧

يجمع القفقاس جميع العناصر التي تجعل منه منطقة مضطربة ولا تزال حدوده الحالية معقدة (خريطة ٢٦-٢٧). انه مكان عبور وملجأ، انه مكان عبور من الشمال إلى الجنوب عبر أبواب الحديد التي تسيطر في مرتفعات دير بنت على الطريق التي تحاذي شاطئ بحر كاسبين تلك هي الأبواب التي أغلقها الاسكندر الأكبر حسب الأساطير المسيحية والاسلامية ليمنع تدفق «ياجوج وماجوج» على الشرق الأوسط. انها مكان عبور من الشرق إلى الغرب عبر وادي اراكس الذي يسهل ربط تبريز ارضروم وبلاد فارس بالأناضول.

لغز القفقاس:

إن القفقاس ملجأ بفضل جباله. تأوي وديانه العميقة التي لا تحصى الممتدة في شمال سلسلة القفقاس الكبيرة، شعوباً غفيرة من أصول متنوعة، بقايا الاجتياحات الكبرى التي اجتازت البطاح الروسية من الشرق إلى الغرب، منذ السيت وحتى الكالموك (القرن السابع عشر). وكان القفقاس الصغير ملجأ من زمن قريب جداً للأرمن الذين هربوا من الحروب التركية الفارسية، وقطن الأتراك ازيريس والجورجيون الفتحة الكبيرة بين الهضبتين حيث يمر من الشرق نهر الكورى ومن الغرب نهر الريوني. (نجد في الصفحات التالية تقديراً رقمياً لمجموعات القفقاس العرقية واللغوية المتنوعة):

المجموعات العرقية اللغوية في القفقاس

١- القفقاس

آ- مقاطعة مستقلة للاديجيين (٧٦٠٠ كم٢) (٤٣٦ الف نسمة)(١)

- بيدوخ - تيميرغوي - شابسوغ - ابادزين ١٢٥٠٠٠(٢)

- كابارد ٢٠٠٠٠

ب - مقاطعة مستقلة للكاراتشاي - التشركس (١٤١٠٠ كم٢) (٤٢٢ ألف نسمة)

- الكاراتشاي ٨١٠٠٠ (١٩٥٩) - ١١٣٠٠٠ (١٩٧٠) - ١٥٦٠٠٠

- تشركس ٥٢٠٠٠

- ابازا ٣٤٠٠٠

- تترنوغاي ١٠٠٠٠

حـ - جمهورية مستقلة للكابارد والبلكار (١٢٥٠٠ كم٢) (٧٦٨ ألف نسمة)

- كابارد ١٥٢٠٠٠ (١٩٣٥) - ٣٩١٠٠٠

- بلكار ٤٢٠٠٠ (١٩٥٩) - ٦٠٠٠٠ (١٩٧٠) - ٨٥٠٠٠

د - الجمهورية المستقلة الاوسيتي الشمالية (٨٠٠٠كم٢)، (٦٣٨ ألف نسمة)

- اوسيت ٤٠٠٠٠٠(٣) (١٩٥٩) - ٥٩٨٠٠٠

---

(١) ارقام عام ١٩٨٩

(٢) مجموعة قبائل اديج التي تعيش خارج الاتحاد السوفييتي ومعظمها يعيش في R-8

(٣) ضمنهم الذين يعيشون في الجمهورية المستقلة للاوسيت الجنوبية وتابعة لجيورجيا.

- انغوش   ٤٠٠٠٠ (١٩٧٠)   - ٦٠٠٠٠ -

ق - الجمهورية المستقلة للتشتشن والانغوش (١٩٣٠٠كم٢) (١٢٩٠٠٠٠ نسمة)

- تشتشن ٥٨٠٠٠٠ (١٩٧٠) - ٩٠٧٠٠٠

- انغوش ١٢٠٠٠٠ (١٩٧٠) - ١٧٧٠٠٠

ف - جمهورية مستقلة للداغستان (٥٠٣٠٠كم٢) (١٨٢٣٠٠٠ نسمة)

- مجموعة الآقار   ٢٦٨٠٠٠ (١٩٥٩)   - ٦٠١٠٠٠

منها مجموعات ثانية

- آقار ٢٠٠٠٠٠ (١٩٥٩)

- اندي ٥٠٠٠٠ (١٩٥٩)

منها غرقية:

- اندي ٨٩٨٦ (١٩٣٣)   -١٠٠٠٠ (١٩٥٤)

- آخاواخ ٤٦١٠ (١٩٣٣)

- باغولال ٣٦٣٧ (١٩٣٣)

- بوطليخ ١٨٦٤ (١٩٣٣)

- غودوبيري ١٥٠٠ (١٩٤٦)

- تشامالال ٥١٠١ (١٩٣٣)   -٧٠٠٠ (١٩٥٤)

- كاراتا ٦٢٣٥ (١٩٣٩)

- تندي ٤٧٧٧ (١٩٣٣)

- ديدو ١٨٠٠٠

منها عرقية:

- ديدو ٧٢٠٠ (١٩٥٥)

- بيجيتا ١٥٨٠ (١٩٣٣)
- خافرشي ١٦١٤ (١٩٣٣)
- جينوخ ٢٠٠ (١٩٣٣)
- خونزال ٦١٦ (١٩٣٣)
- ارتشي ١٩٣٠ (١٩٣٣)

- مجموعة دارغين ١٢٦٢٧٢ (١٩٥٨) – ١٥٨٠٠٠ (١٩٥٩) ٣٦٥٠٠٠
- مجموعة لاك ٤٠٣٨٠ (١٩٢٦) – ٤٠٣٨٠ (١٩٢٦) – ١١٨٠٠٠

يرتبطبهم:

- كيتاك ١٤٤٣٠ (١٩٢٦)
- كوباتش ٢٣٢٢ (١٩٢٦)

- مجموعة ليزغوي ٢٢٣٠٠٠ (١٩٥٩) ٤٦٦٠٠٠

منهم :

ليزغوي

تاباسارام	٣٥٠٠٠ (١٩٥٩)	٩٨٠٠٠
روتول	٧٠٠٠ (١٩٥٩)	٢٠٠٠٠
آغول	٨٠٠٠ (١٩٥٩)	١٩٠٠٠
تسافور	٦٠٠٠ (١٩٥٩)	١٩٠٠٠
اودي	٢٧٦٢ (١٩٢٦)	٨٠٠٠

دجيك ٥٩٠ (١٩٢٦)

كريز ٢٦٠٠ (١٩٢٦)

خابوطة		١٥٠٠٠ (١٩٥٩)
بودوغ	٢٠٠٠ (١٩٢٦)	
خينالوغ	١٥٤٠ (١٩٢٦)	
تشتشن	٣٠٠٠٠ (١٩٧٠)	٥٠٠٠٠
كوميك		٢٨٢٠٠٠
تترنوغاي		٥٠٠٠٠
تاتس (يهود)	٢٢٠٠٠ (١٩٧٠)	١٩٠٠٠

ج- ما وراء القفقاس

آ- جمهورية جيورجيا (٦٩٧٠٠ كم٢) (٥٥٠٠٠٠٠ نسمة)

- جيورجيون ٢٢٤٨٥٦٦ (١٩٣٩) ٣٩٨١٠٠٠ (٤)

منهم:

منغريليان	٢٨٤٨٣٤	(١٩٢٦)
لازيس	٧٣٠(٥)	(١٩٢٦)
ساڤان	١٣١٤٢	(١٩٢٦)
باط	٢٤٥٩	(١٩٢٦)
ارمن	٦٠٠٠٠٠	
يهود	١٦٠٠٠	

---

(٤) في خارج الاتحاد السوڤييتي

(٥) معظم لازيس يعيشون في تركيا- آخر احصاء ٤٦٨٩٧ تاريخ (١٩٤٥)

آشوريون ٢٦٠٠٠

كاراباباك ٦٣١١ (١٩٢٦)

منهم

١- جمهورية مستقلة ابخازيا (٨٦٠٠ كم٢) (٥٣٨٠٠٠ نسمة)

ابخاز ٥٧٠٠٠ (١٩٥٩) - ٧٧٠٠٠ (١٩٧٠) ١٠٥٠٠٠

٢- جمهورية مستقلة اوسيت الجنوب (٣٩٠٠ كم٢) (٩٩٠٠٠ نسمة)

اوسيت (انظر سابقاً)

٣- جمهورية مستقلة الادجاري (٣٠٠٠ كم٢) (٢٨٢٠٠٠ نسمة)

ادجار ٧١٣٩٠ (١٩٢٦)

ب - جمهورية اذربيجان (٨٦٦٠٠ كم٢) (٧١٣١٠٠٠نسمة)

- آزيريس ١٧١٣٠٠٠ (١٩٢٦) ٦٧٧٠٠٠٠(٦)

- ارمن ٥٠٠٠٠٠(٧)

- آفار ٦٠٠٠٠

- تاتيس (اسلام) ٢٨٠٠٠ ١٩٢٦) ١١٠٠٠ (١٩٥٩)

- تاتيس (يهود) ١٠٠٠٠ (١٩٥٩)

- تاليش ٧٧٠٠٠ (١٩٢٦) ٢٢٠٠٠

- اكراد ١٥٣٠٠٠(٨)

منهم

١- جمهورية مستقلة ناخيتشيڤان (٥٥٠٠ كم٢) (٢٠٠٠٠٠ نسمة)

٦- خارج الاتحاد السوڤييتي

٧- اكثر من النصف لاجئ في ارمينية

٨- خارج الاتحاد السوڤييتي

٢- منطقة مستقلة ناغورنوكاراباخ (٤٤٠٠ كم٢)(١٩٢٠٠٠ نسمة)

ارمن ١٥٠٠٠٠(٩)

ج - جمهورية ارمينية (٢٩٨٠٠ كم٢) (٣٤٠٠٠٠٠ نسمة)

- ارمن ٣٢٠٠٠٠٠

- أزيريس ١٨٠٠٠٠

ان كل مطالبة مبالغ بها داخل هذا المخطط البسيط مصيرها الفشل. وان البطاح الواقعة بين نهر الدون ونهر الڤولغا في أقصى الشمال هي بلاد تترنوغاي وكالموك آخر الوافدين والذين اسلموا منذ القرن السابع عشر. ويقطن الشركس إلى الجنوب مستندين إلى الحصون في شمال القفقاس الكبير ومشرفين على البحر الأسود لقد اعتنق قسم منهم المسيحية تحت التأثير البيزنطي ثم اسلموا منذ القرن السابع عشر، ونجد اذا ما سرنا نحو الشرق مع سفوح القفقاس الشمالية، الكرتشاي والبلكار الذين هم اتراك والكاباردين الذين هم قسم من الشركس. ويعيش الاوسيت في المكان الذي فيه يجتاز ممر درڤال القفقاس من الشمال إلى الجنوب. وينتشرون أيضاً فوق سفح السلسلة الشمالي، انهم اندو اوروبيون ينحدرون من الآلان. ثم يأتي الشيشان والانغوش شعوب قفقاسية - تشمل هذه التسمية جميع الذين ليسوا اندو اوروبيين او اتراك - ونصل هكذا الى الداغستان الذي يحيط بحر كاسبين ويكون بفضل موقعة الجبلي والممر (العالم القفقاسي الصغير) واشتهر لأنه يملك التكوين العرقي الأكثر تعقيداً في العالم. يكفي القول اننا نجد فيه ثلاث مجموعات كبيرة الآثار

٩- الرقم يحتوي على مجموع ارمن اذربيجان

في الشمال واللاك في الوسط والليسجين في الجنوب، ولا حاجة للدخول في الجزئيات.

نجد في جنوب القفقاس الكبير تكوين عرقي أكثر بساطة نسبياً (المجموعات الكبيرة الثلاثة أرمن – آزيريس – جيورجين – ومعهم ابخاز بين القفقاس والبحر الأسود، واللازين الذين ينتسبون إلى الجيورجين في الطرف الشرقي من تركيا الحالية). ولكن تعادل التركيبة العرقية البسيطة تركيبة سياسية معقدة. وكانت الممالك القديمة الجيورجية والأرمنية التي يتنازع عليها البيزنطيون والفرس ضحية الفتح العربي والتركي والمغولي، فتقسمت وسقطت في مجال النفوذ التركي العثماني والفارسي.

يبدو الوضع في القرن الثامن عشر قبل ظهور الروس في المنطقة على وجه التقريبكالتالي:

تنقسم جيورجيا إلى ثلاثة ممالك رئيسية : مملكة كارتلي وعاصمتها تيفلس (تبليس) وريثة المملكة الجيورجية القديمة. وفي الشمال الشرقي مملكة كاختي خلف القفقاس وفي الغرب مملكة ايمريتي حول كوتيه. يسيطر الفرس على المملكتين الأولى والثانية ويسيطر العثمانيون على الثالثة. ولا يخضع شاطيء البحر الأسود لهذه الممالك، ونجد فيه إمارات ثلاثة تابعة للعثمانيين : ابخازيا في الشمال بين سوتشي وسوخومي، والمنغريلي في الوسط بين سوخومي وبولي، والغوري في الجنوب بين بوتي وباطم. ويكون الجنوب الغربي بدوره الإمارة المزدوجة سامسخي – ستاباغو (بلاد المسخيت وبلاد الآتابيكس) وقد أسلم أمراؤها في القرن السابع عشر ثم أصبحوا حكاماً عثمانيين عادين ويجب أن نضيف أخيراً المقاطعات الجبلية المستقلة مثلسفاينتي.

يقسم الباقي أي أذربيجان وأرمينية إلى (خانات) ولايات مسلمة تابعة للفرس. وتضم أراضي أذربيجان الحالية سبع ولايات (خانات) : ولاية غنجا حول المدينة التي

تحمل الإسم نفسه والتي ستسمى إيلي سافيبول من قبل الروس وكيروڤاباد من قبل السوفييت، وولاية شيكي في شمال الكورة وولاية كوبا على شاطىء الكاسبين بين داغستان وباكو وولاية باكو حول المدينةمن ذات الإسم وولاية شيرڤان تضم رافد الكورى والآراكس وساحل الكاسبين إلى الجنوب من باكو وولاية كاراباخ التي تشمل كاراباخ الجبلية الحالية وضواحيها، ولاية تاليش في أقصى الجنوب الشرقي. أخيراً إلى الغرب تشمل ولاية يرڤان شمال أرمينية الحالية تضم ولاية هيشيڤان المقاطعة الحالية أذربيجان من نافسشيڤان في الزنغزور في أقصى جنوب الجمهورية الأرمنية ونذكر لنكمل اللوحة ولاية ماكو التي تشمل المقاطعة الإيرانية في العمق بين تركيا وروسيا.

- الإجتياح الروسي (خريطة - ٢٦)

أصبح الدخول الروسي إلى القفقاس ممكناً بعد إختفاءالقوى المغولية وريثة القبائل الذهبية لابناء جنجس خان. وحصل الروس بغزو ولاية استرخان في القرن السابع عشر على منفذ إلى بحر الكاسبين واستقرت الحدود الروسية الفارسية زمناً طويلاً على نهر تيريك، أما في الغرب كانت ولاية القرم محمية العثمانين وتحمي بدورها الشركس وشعوب شمال القفقاس الأخرى. وأُجبر العثمانيون على التخلي عن هذه الحماية بموجب المعاهدة التركية الروسية ١٧٧٤. وضم الروس ولاية القرم عام ١٧٨٣. وفي العام التالي احتلت روسيا بتروفسك ومقاطعتها في داغستان ومدت حمايتها على مملكة كارتلي التي كانت قد ضمت كاخيتي. اسس الروس فلاد كفكاز وفتحوا طريقاً في ممر داريال الذي يسهل الإتصال المباشر بجورجيا. ووهب آخر ملك لكارتلي عند موته عام ١٨٠٢ مملكته إلى روسيا. وجارته في ذلك الإمارات الأخرى المنغريلي عام ١٨٠٣ والايميرتبي والغوري عام ١٨٠٤ والاوسيت ١٨٠٦ والابخاز

١٨١٠ وانتزعت ألوية أذربيجان من الفرس.

يعود تاريخ المرحلة التالية إلى أعوام ١٨٢٨ - ١٨٢٩ عندما سمحت روسيا لنفسها أن تحارب في الوقت نفسه بلاد فارس وتركيا. فخسرت الأولى ولايات يريڤان *وناخيتشيڤان والثانية* مسخيتي *أي أقضية أخا لكالاكي* وقضاء سورمالو في جنوب ژراكس، وخضع سكان جبال القفقاس بعد معارك طويلة. ثارت شعوب داغستان بزعامة الشيخ شميل ولم يتم القبض عليه الا في عام ١٨٥٩. وألقى الشركس السلاح عام ١٨٦٤ ولم يضم الجيورجين الجبلين مثل الساڤان إلا عام ١٨٥٨.

ارتبط القفقاس بروسيا بواسطة طريق حديدية تأتي من الشمال الغربي وتحاذي أولاً البيمونت الشمال في القفقاس حتى بيتروفسك ثم تجتاز أبواب الحديد في ديربنت حتى باكو وتتابع إلى مابعد وادي كورى حتى تيفليس، وهناك تنقسم إلى فرعين، يصل الفرع الأول إلى البحر الأسود في بوتي ويجتاز الثاني القفقاس الصغير حتى الكسندر وبول ثم تصل إلى يريڤان وتتبع وادي أراكس عبر ناخيتشيڤان وجولفا، وتصل إلى الحدود الإيرانية وتتجه من هنا نحو تبريز. وبدل الروس مرفأ بوتي الذي غمره رمل الجرف من ريوني بمرفأ باطوم الذي إحتلته روسيا أثناء الخرب الروسية التركية عام ١٨٧٧ - ١٨٧٨ وحصلت روسيا على ثلاثة ألوية : كارس واردهان وباطوم أي بلاد الاتابيكس القديمة وماوراءها. وعندما أنجز فرع حديدي باتجاه باطوم استخدمت تجارة بلاد فارس منذ ذلك طريق القفقاس وتركت طريق القوافل القديم الذي يمر في تركيا عبر طرابزون وأرضروم، وساعد استثمار بترول باكو على بناء خط أنابيب بترول محاذية لخط باطوم وباكو وجعل من هذا المحور العامود الفقري للقفقاس.

احدث استيطان الروس في القفقاس حركتي هجرة: هاجر اسلام شمال القفقاس إلى تركيا واستوطن أرمن تلك البلاد في القفقاس. وشكل الأرمن في المدن الكبرى مثل تيفلي وباكو قسماً كبيراً من الطبقة البرجوازية ومن الحرفيين بينما فضل

المهاجرون الأرمن في الأرياف، حيث يمتلك الاقطاعيون الكبار الجيورجيون والآزيريس الأراضي، أن يستوطنوا في المقاطعات الجبلية مثل لوري على الحدود الحالية بين جيورجيا وارمينية وفي الكاراباخ او في الزنغزور، وقد أدت النزاعات مع الازيريس إلى الحرب الأولى الأرمنية التترية (سمي الازيريس بهذا الاسم في العصر) عام ١٩٠٥-١٩٠٧.

ولكن اصبح القفقاس خاصة «مركز ترديد الصدى» للخلاف التركي الأرمني في تركيا المجاورة اذ يقاسي هناك الأرمن منذ أواسط القرن التاسع عشر نتيجة التسكين في المدن (التحضير الالزامي) وتهدئة الأكراد التي تقوم بها السلطات العثمانية فتحول غضب الارمن تدريجياً إلى حركة قومية تطمح مثل معظم الشعوب المسيحية في الامبراطورية التركية عبر مراحل متتالية من الحكم الذاتي، الى الاستقلال . وكان حليف الارمن الطبيعي في هذه المقاومة روسيا رغم عدم التوافق السياسي بين الديكتاتورية القيصرية والطموح الاشتراكي للأحزاب الأرمنية «والعكس بالعكس» اذ أصبحت الحركات القومية الأرمنية أداة مثالية للتوسع الروسي شرقي الأناضول وبلاد ما بين النهرين العليا، وكانت روسيا في الوقت نفسه تنوي الدخول إلى اذربيجان الايرانية. وسمح الاتفاق الموقع عام ١٩٠٧ مع بريطانيا العظمى بتقسيم بلاد فارس. وضمت روسيا اذربيجان وجنوب الكاسبين الى منطقة نفوذها مقابل سيطرة بريطانيا العظمى على مناطق البترول في جنوب ايران.

حكمت المعاهدة الانكليزية الروسية من اجل الحرب العالمية الأولى بالقضاء على الامبراطورية العثمانية. وهيأت الدول العظمى نفسها للتقسيم النهائي. وقدمت روسيا جنودها فتمركزوا على الحدود الغربية من القفقاس تحسباً لهذا العمل النهائي وتقرب في عام ١٩١٢ مبعوثون روس من سيمكو آغا الزعيم الكردي الذي يسيطر من كوتور في الحدود التركية الفارسية، على الطريق التي تربط ڤان بتبريز ولما أغدق عليه المال والسلاح أصبح سيمكو قادراً على اقامة اتحاد فيدرالي كردي يمتد من جبل

ارارات حتى الحصون الغربية في سهول اوروميا. ويبدأ الأتراك يهاجمون القرى الأرمنية المتواجدة في الغرب من هذا الخط في أعلى وادي الفرات (مورات) حول بحيرة ڤان. واعطت الاحتجاجات الأرمنية وخيبة امل الأحزاب الأرمنية أمام السياسة القومية «لتركيا الفتاة» والهزيمة التركية في حرب البلقان، فرصة لروسيا لتتدخل بفعالية لدى الحكومة العثمانية وتطالبها بإصلاحات لصالح الارمن في المحافظات الست في الشرق من الامبراطورية. وتدخلت الدول الأخرى ايضاً لكي لا تترك الساحة خالية امام روسيا. فتقدمت بمشروع وضع بدون مشاركة الادارة العثمانية ووافقت عليه مع بعض التغيرات في ربيع عام ١٩١٤. يقضي هذا المشروع في المجموع حيث الأرمن يقاربون ربع السكان بالمشاركة بنسبة ٥٠٪ في المجالس المحلية وبتعيين مشرفين اوروبيين ليراقبوا الادارة التركية. تم اجتياز الخطوة الأولى نحو الحكم الذاتي للأرمن.

أوائل الحرب العالمية الأولى (خريطة - رقم ٢٧)

دعا حزب الطاشناق الذي يرأس الحركة القومية الأرمنية، في أواخر تموز ١٩١٤، إلى مؤتمر في أرضروم، عند اندلاع الحرب في أوروبا (لم تدخل تركيا الحرب إلا في الأول من تشرين الثاني). تقدم في نهاية المؤتمر وفد من شخصيات تركيا الفتاة باقتراح لممثلي الأرمن، يطلب اشتراكهم في الحرب ضد روسيا، فيحصل الأرمن مقابل ذلك على اقامة دولة تتمتع بحكم ذاتي وتشمل المقاطعات في ما وراء القفقاس التي يسكنها الأرمن، وبعض الأقضية من محافظات ارضروم وڤان وبتليس. أجاب مسؤولو الأرمن أن حزب الطاشناق اختار الحياد. ووجه في الوقت نفسه كاثوليكوس اشمطزي، بطريرك الأرمن كافة، نداء مؤثراً إلى «فورونتزوف – واشكوف»، نائب الملك في القفقاس، يطلب فيه من روسيا أن تحمي الأرمن وتعد

ميثاق الحكم الذاتي الذي تم لصالحهم، وتسمي حاكماً مسيحياً تختاره روسيا للمحافظات الست المتحدة. واتصل «فورنتزوف واشكوف» بشخصيات المجلس القومي الأرمني في تيفليس ومنهم عمدة مدينة خاتيسيان ووعدهم بالحكم الذاتي الأرمني في المحافظات الست الشرقية التركية، إذا تم الاستيلاء على تلك المحافظات بمساعدة الأرمن. فقدم الأرمن تشكيل وحدات من المتطوعين. وأرسل المجلس القومي الأرمني البرقيات الى كافة المجموعات الأرمنية يطلب إليها التعبئة الكاملة. فتشكلت، بين هذا التاريخ وأوائل الحرب التركية الروسية في الأول من تشرين الثاني، أربع مجموعات من المتطوعين الأرمن مكونة خاصة من أرمن تركيا لأن أرمن روسيا انخرطوا في الجيش النظامي وكان عددهم قليلاً جداً بدون شك نسبة للجيش الروسي العرمرم، وكان يعد كل فصيل ألف رجل، واستخدموا كشافين، ثم اشتركوا في المعارك الدقيقة والصعبة حيث اشترك الأكراد والأرمن في مناطق النزاع الأشد، وكان دورهم فعالاً جداً نظراً لوزنهم الحقيقي.

منذ ٢٤ تشرين الأول، قبل أسبوع من بدء العداء انطلق الفصيل الثاني من المتطوعين الأرمن وعلى رأسهم قائد في المرتبة الثانية، نائب أرمني في البرلمان العثماني، من اغدير متجهاً إلى ڤان. وكانت المنطقة الممتدة من بحيرة ڤان إلى بحيرة اورميا، أهم المناطق إذ تكوّن الطريق الأقصر بين القفقاس الروسي والموصل. ووسط القسم الأعلى من أراضي ما بين النهرين إذ يصبح الاتصال منها ممكناً بالبريطانيين الذين ينتظرون في الكويت اعلان الحرب لكي يحتلوا البصرة. وكانت تعتبر هذه المنطقة نقطة الضعف في الدفاع التركي لأنها مأهولة من المسيحيين، ولأن منطقة بحيرة ڤان هي الوحيدة التي فيها يشكل الأرمن الأكثرية. ويسكن الاشوريون اوروميا. وتأوي هضبة هكاري قبائل نسطورية.

اوقف الأتراك الفصيل الأرمني الثاني في الأول من تشرين الثاني، ولكن منذ بدء العداء دخلت الجيوش الروسية الأراضي التركية مستخدمة فصيل المتطوعين

الأرمن كشافين.وعبأ الأتراك الأكراد في الجيش إذ استخدموهم كخيالة غير نظاميين. ولكن هرب عشرة آلاف من أصل ثلاثة عشر ألفاً من هؤلاء الخيالة منذ الاتصال الأول مع الروس، وتفرقوا في القرى المجاورة التي تصدت لهم بالبنادق. وهرب أيضاً عساكر المدفعية من أكراد وأرمن الذين أدخلوا الجيش النظامي وذهبوا بأسلحتهم يحمون قراهم، فعمت الفوضى منذ الشهر الأول للحرب.

قرر الروس بعد فشلهم الأول دخول ڤان، ان يستخدموا الأراضي الايرانية. اجبر الخان ماكو في تشرين الثاني على التنازل عن الحكم، فخلفه ابن عم أكثر طاعة وموالاة. وعبر جيش روسي يرافقه الفصيل الأول من المتطوعين الأرمن بقيادة انترانيك الزعيم الأرمني المشهور، خوروكوتور واحتل ساراي داخل الأراضي التركية على بعد ٧٠ كم من ڤان. واحتل الجيش الروسي باسكال إلى الجنوب في ٢٤ تشرين الثاني. استغل السكان الأرمن الفرصة لينهبوا منازل المسلمين، ولكن استعاد هجوم تركي معاكس المدينة وحصلت مجازر الأرمن.

الهجوم التركي الكبير:

حضّر الأتراك هجوماً كبيراً بعد الكسيرة الأولى. وفكر الجنرال الأعلى انڤير باشا أن يحصل على منفذ كبير يفتح له القفقاس وما وراءها، وطن الأجداد والتركستان، فهجم على رأس ١٢٠٠٠٠ ألفاً، في كانون الأول، على طرقات الجبل، على ارتفاع ٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. فنجم عن اعلان الهجوم التركي انسحاب سريع للقوات الروسية، فاخلت ليس فقط الأراضي التركية المحتلة بل أيضاً اذربيجان الايرانية. وانسحب الفصيل الأول الأرمني إلى جولفا على الحدود الروسية الايرانية. وانضم سيمكو إلى المعسكر التركي وتدفقت القبائل التركية إلى سهول اورومیا. وسقطت مدينة اورومیا في ٢ كانون الثاني وأصبحت المنطقة معرضة للنهب واحتل

فصيلٌ غير نظامي تبريز نفسها في ١٤ من الشهر.

كان الهجوم التركي المسمى ساريكاميس نسبة للمدينة التي كانت الهدف الأول احدى أكبر الخسائر في التاريخ التركي ويعود ذلك إلى الشروط المناخية السيئة والامداد السيء. وتركت أكثر من سبعين ألف قتيل (٧٠٠٠٠) مات معظمهم متجمدين . وقد شل الشتاء أيضاً الهجوم الروسي المعاكس، جزئياً. وتركت المقاطعات الحدودية تدير أمورها بنفسها في ذلك الشتاء القاسي، وكان يجوبها هاربون من الخدمة يطاردهم الجنود، ويهاجم كل واحد بدوره القرى من كل جانب. وسُحقت حركات ارمنية في منطقة بتليس. وشكل ٢٠٠٠ ارمني جبهة مقاومة حول ايريس.

استعادت منطقة ڤان اوروميا أهميتها بعد فشل الهجوم التركي. واحتل الروس في شباط الأراضي الايرانية ثانية. ورجع سيمكو إلى المعسكر الروسي، ولكن حضّر الأتراك فصيلاً بقيادة خليل بك (باشا المستقبل) وعم انفيز باشا، وغادر المدينة باتجاه اوروميا عبر جبال الزاب الكبير. أرسل كشافون إلى ماريشمون بطريرك (نسبة لمعنى الكلمة التوراتي) القناطرة الرحل الذين يمتلكون هذه المقاطعة مع الأكراد. وتوحدت الفصائل الثانية والثالثة والرابعة والخامسة (المحدثة جديداً) من الأرمن المتطوعين، في مجموعة واحدة خاصة، مكلفة بالهجوم على ڤان. وكانت المنطقة مستقلة منذ اوائل الربيع، وفي ٢٠ نيسان اندلعت ثورة ڤان الارمنية. وعندما وصلت الأخبار إلى استنبول، حصلت الجبهة الوطنية المتطرفة، في تركيا الفتاة والمجتمعة حول وزير الداخلية طلعت باشا، والذين كانوا يعتبرون الأراضي حجر عثرة في تحقيق الأهداف القومية، على اصدار مرسوم يقضي بترحيل الأرمن وحجز أموالهم. فنجم عن ذلك استيلاء كامل على الممتلكات، وقتل ومجازر منظمة حسب المقاطعات فازدادت قوافل المبعدين اضافة إلى ضحايا المعاملة السيئة والجوع والأمراض الوبائية. فمات بين ٦٠٠٠٠٠ و ٨٠٠٠٠٠ ألف شخص من الشعب الأرمني الذي كان تعداده مليوناً ونصف.

- الحرب المتناوبة:

أسرعت الفصائل الأرمنية بتجهيز نفسها عندما علمت بثورة ڤان وغا
يريڤان في ٢٨ نيسان، وصل خليل بيك إلى ديلمان بعد ثلاثة أيام، في الشمال
أوروميا وتمركز أمام الفصيل الأول الأرمني بقيادة انترانيك. وكانت المعركة
مؤكدة في اليوم الثاني، عندما تلقى القائد التركي برقية تخبره بثورة ڤان وبضر
العودة لكي يحمي طريق الموصل عبر بتليس، وبينما كان خليل بك في طريقه
بتليس مع جيش في وضع سيء اذ يهاجمه الأكراد في الطريق، دخلت الفص
الأرمنية ڤان في ١٨ وبدأت تطهير شواطيء البحيرة. واتجه جيش روسي في اا
نفسه عبر باسكال نحو بلاد الشاطرة وبدا مارشيمون مقتنعاً بوجوب المشاركة
الجبهة المسيحية التي عليها أن تجتاز القفقاس مسرعة إلى الموصل. وقد قتل ميع
بعض أعضاء الجماعة النسطورية الكبيرة في هذه المدينة لأنهم ترددوا بالالت
بالبطريرك تخوفاً من قرب الأتراك.

توصل الأتراك امام هذا الوضع الخطير، بعد ان اثاروا الخطر المسيحي،
ضم الأكراد اليهم، واستعادوا تدريجياً شواطئ بحيرة ڤان. وفي الرابع من آب أ
الروس الى مغادرة ڤان واخلاء سكانها الأرمن. وفي صيف ١٩١٥ عاد الوضع
ما كان عليه. ولكن لجأ ٣٠٠٠٠٠ الف ارمني الى القفقاس وكانوا في ازدحام
وفي اوضاع مأساوية حول يريڤان، بينما استمر التهجير في كل الاناضول.
النساطرة من جانبهم، وديان الزاب العالية التي سكنوها منذ آلاف السنين،
ضغط الاكراد في الشمال، والفصيل التركي في الجنوب، (اتى هذا الفصيل
الموصل) ولجأوا الى سهل اوروميا.

كرر الروس هجومهم الكبير نتيجة لتلك الخسائر. فاستُعيدت ڤان في ا
وتقدمت الفصائل الأرمنية على ضفاف البحيرة. فهرب السكان المسلمون نحو اا

عندما استطاعوا ذلك، ثم حلت مكانها القوات الروسية. واستعيدت موس في ١٦ شباط عام ١٩١٦ وارضروم في اليوم نفسه. واستسلمت طرابزون على شاطئ البحر الأسود في ١٨ نيسان، وصل الهجوم الروسي الى ايرزنكان، الموقع المتقدم جداً. ولكن استرد الأتراك موس في ٦ آب واستمرت سيطرتهم على بتليس، ومنعوا النزول الى بلاد ما بين النهرين. أثناء هذه الحرب المتناوبة، أخليت الجبهات المتعاقبة والمؤخرة، من السكان بنسبة ٧٥٪، فاذا قدرنا سكان هذه المنطقة الأرمن ٣٠٪ او ٤٠٪ من المجموع، فيتكون السكان الباقون من المسلمين، اكراد وأتراك.

عندما احتلت القوات الروسية اكبر قسم من المحافظات الست العثمانية التي يطالب بها الأرمن، ثار سازانوف، وزير الخارجية الروسي في مذكرة موجهة الى الدوق الأكبر نيكولا نائب الملك في القفقاس، ضد مشروع منطقة ارمنية تتمتع بحكم ذاتي، لأنه قد قل السكان الأرمن في السنين الأخيرة، اذ لا يتجاوزون ٢٥٪ من السكان قبل الحرب، ولكن اخضع اصرار السلطات الروسية في المحافظة على هذا المشروع في المقاطعات التي يحتلونها، الشعوب الاسلامية. فاقترح سازونوف ادارة مباشرة تعترف بحقوق الأقليات. وقدمت قيادة القفقاس نظراً للمناطق الخالية من السكان، مشاريع أخرى مثل مشروع احداث منطقة كوزاك الفرات التي يقطنها مهاجرون روس. وهكذا انحلت الفصائل الأرمنية من المتطوعين. لأنه انتهى دورها، بعد أن فقدت ثلث عناصرها.

الكسيرة الروسية في القفقاس:

انهك الجيشان بعضهما البعض منذ صيف ١٩١٦، وأدميت البلاد. وتجمدت الجبهات عملياً حتى ثورة اكتوبر. واستدعي الدوق الكبير نيكولا، نائب ملك القفقاس في آذار ١٩١٧ بعد ثورة شباط مباشرة. وحل مكانه مجلس ادارة مؤقتة، يتكون من

منشيفيك جيورجي «نوي جوردانيا» وعمدة تيفليس الأرمني، اسكندر خانيسيان، وممثل عن الجيش الروسي. وتشكلت حكومة مؤقتة لما وراء القفقاس (ادزاكوم) في ٢٢ آذار ونجد فيها خاصة احزاب القفقاس الثلاث، المنشيفيك الجيورجيون، وحزب الطاشناق وحزب موسافات ازيري، وشكل عمال باكو مجلساً اعلى في التاريخ نفسه وانتخبوا له رئيساً، الشيوعي الأرمني شيبان شاوميان، تتجابه قوتان في اذربيجان، الشيوعيون في باكو وملاكو الأراضي الكبار في غنجا (ايليزا ڤينوبول، كيروڤاباباد).

شكل الشراكس في الشمال في ايار ١٩١٧ في فلادكفكاز مجلساً من شعوب شمال القفقاس واعلن المجلس اتحاد شعوب شمال القفقاس وداغستان، وكونوا لجنة تنفيذية. وفي اجتماع ثاني دعي في ٢٠ ايلول ١٩١٧، انضم الى الاتحاد النوغايس والتركمان من ولاية ستافروبول والابخاز.

كان الحدث الأهم بين ثورة شباط واكتوبر هو حل جيش القفقاس لنفسه اذ انصهر بكامله في صيف وخريف ١٩١٧. وأعطى غياب السلطة الروسية فرصة للاجئين الأرمن أن يعودوا إلى قراهم تحت حماية الميليشيات الأرمنية. فنجم عن ذلك أعمال ثأر وتنكيل من العصابات الكردية.

١- ١٩١٧-١٩١٨ فشل القفقاس العثماني:

أقلق تطور الوضع العسكري في خريف ١٩١٧، الأرمن وقيادات البعثات العسكرية للحلفاء في القفقاس. فحاول الروس احياء الجبهة المسيحية لعام ١٩١٤-١٩١٥، ولكن على نطاق اوسع، بواسطة ملحقي الحلفاء العسكريين في تيفليس، وكان ضرورياً أن تضم هذه الجبهة يونان «البونت» (منطقة طرابزون) والجيورجيين والأرمن ونساطرة منطقة اورميا.

اقترح في منتصف تشرين الأول الجنرال بارتير، قائد البعثة العسكرية

البريطانية في روسيا، على لندن ارسال مجندين أرمن في الجيش الروسي (١٣٠٠٠ ألفاً إلى القفقاس. ودعم قائد الأركان الملكي البريطاني «روبرتسون»، الاقتراح، وعرض المسألة على المجلس الحربي وطلب استخدام أكبر عدد ممكن من الأرمن في القفاقس وفي شمال بلاد فارس. واقترح أيضاً أن يعرض على الولايات المتحدة أن ترسل لهذه الغاية المهاجرين الأرمن الذين عندها. فقبل المجلس البريطاني الاقتراح وأبرق لهذا الغرض إلى واشنطن. واتخذت الحكومة الروسية المؤقتة، تحت ضغط اللجان الأرمنية، قرارات في هذا الموضوع ولكنها الغيت بسبب ثورة اكتوبر.

أدت ثورة اكتوبر إلى اسراع جهود الحلفاء. واتصل قائد البعثة العسكرية البريطانية في تيفليس، افلي شور، بانترانيك، في كانون الأول، فوعد انترانيك ان يجهز ١٠٠٠٠ الاف غير نظاميين خلال شهر، وان يضاعف العدد خلال ثلاثة اشهر اذا تلقى مالاً وأسلحة وساعده في التدريب ضباط بريطانيون. وكانت تلك القوات مخصصة لمنطقة ڤان-اورميا. حيث متوقع أن يتم تحالف بين انترانيك ومارشيمون وسيمكو الذي لا يستغنى عنه. فدعا العملاء البريطانيون سيمكو إلى مقر الرسالة البروتستانتية الأميركية التابعة للدكتور شيد في خان، وقبل بالتعاون.

في الشمال، كتب الكولونيل شارديني، الممثل العسكري الفرنسي في تيفليس، إلى المتروبوليت اليوناني في طرابزون، كريسنتوس، ليطلب منه المساهمة بفصيل يوناني. يشكله طرابزون وباطوم، رفض كريسنتوس بأدب، متخوفاً من الخطر.

دور الانكليز

لم يبخل الانكليز بالوسائل ولا سيما ان بترول باكو موجود في المقاطعة التي تركها الروس. فسمح المجلس الحربي في ٧ كانون الأول لوزير الخارجية الى آ-ج-بلفور، بتمويل الارمن من أموال الادارة العسكرية، وطلب في ١٤ من الشهر،

الى مارلنغ، السفير في طهران، ان يفتح حالاً اعتماداً. بلغت المبالغ التي وضعها البريطانيون، عشرين مليون ليرة استرلينية، وكان المبلغ الذي وضع تحت تصرف الكولونيل شارديني، اثناء انعقاد اللجنة الحربية في باريس في ١٢ كانون الأول عشرين مليون فرنكاً. وأخبرت لندن في ١٥ من الشهر، شور في تيفليس ان يسمح للجيورجيين والأرمن ان يشتروا اسلحة ومعدات حربية من الروس المنسحبين. وتؤكد المذكرة التي حضّرها اللورد ميلهر واللورد سيسيل العضوان في المجلس البريطاني، والتي قبل بها كليمنصو: «اننا ملزمون اخيراً بحماية الأرمن الناجين اذا امكن ذلك ليس فقط لكي نحمي جانبي قواتنا في بلاد ما بين النهرين في بلاد فارس وفي القوقاز بل أيضاً لأنه من المحتمل ان يتم اتحاد ارمني مع دولة جيورجية ذات حكم ذاتي او مستقلة فتكون الحاجز الوحيد ضد تطور حركة مغولية ربما تمتد من القسطنطينية حتى الصين». فوقع اتفاق فرنسي انكليزي في اليوم الثاني: وضعت بموجبه اوكرانيا البيسرابي والقرم في دائرة النفوذ الفرنسي، والمقاطعات القوقازية والقفقاس والكردستان في دائرة النفوذ البريطاني. وقررت لندن ان ترسل بعثة عسكرية الى القفقاس، وهي بعثة دنستر فيل الشهيرة التي سنتكلم عنها فيما بعد.

اعطى تطبيق هذا الترتيب نتائج مأساوية، كانت اورميا التي يسكنها ثلاثين الفاً وربعهم من المسيحيين، تحت ضغط شديد لما قدم النساطرة التابعون الى مار شيمون. وحاول الضابط الفرنسي غاسفيلد، القادم في ٢٤ كانون الأول وممثل الكولونيل شارديني ان يشكل اربع مجموعات مقاتلة من النساطرة. واستخدم الأسلحة التي خلفها الروس. ولكن استخدم النساطرة الاسلحة لكي ينهبوا المدينة ويهاجموا القرى الاسلامية. فثار فرس اورميا في شباط وغرقت ثورتهم في الدم وساد الرعب على سهول اورميا وهي تنتظر هجوم الأتراك.

أبعدت أحزاب القفقاس الوطنية ثورة اكتوبر وسلطة البولشيفيك. باستثناء مجلس بلدية باكو، وعقد مؤتمر بولشيفيك في تفليس لكي يرفض مبدأ تقسيم شرق

القفقاس. ولكن أعلنت اوزاكوم حالة الطوارئ في ١٤ تشرين الثاني وخنقت كل رغبة ولو ضعيفة لثورة شيوعية في مهدها. وتشكلت ادارة مؤقتة مكانها، وتسلم مع المنشيفيك الجيورجيين المناصب الرئيسية. وفي ٢١ كانون الأول قطعت اللجنة المركزية لاتحاد شمال القفقاس علاقاتها مع موسكو. وانعقد في كانون الثاني ١٩١٨ في المقابل، مؤتمر في موزدوك، يضم البولشيفيك والاشتراكيين الثوريين والراديكاليين الأوسيت في «كتلة اشتراكية» تكون المجلس الشعبي لتريك ضد مسلمي داغستان. واتخذ مجلس تريك مقراً له فلادكافكاز في آذار ١٩١٨ لكي يكون الجمهورية الشعبية الاشتراكية السوفييتية لتريك وكان رجال الدين يسيطرون على داغستان بينما بقي الشيشانيين والانفوش على الحياد بين الطرفين.

<u>من بريست ليتوفسك الى باطوم:</u>

كان ينظر باهتمام الى ثورة اكتوبر ونداء البولشيفيك الى السلام في الجانب الآخر من الحدود في استنبول. واتصل في ٣٠ تشرين الثاني، قائد الجيش التركي في القفقاس بتفليس، وبعد ثلاثة ايام من توقيع هدنة بين روسيا المانيا والنمسا في بريست ليتوفسك، وقعت هدنة ايرزنكان في ١٧ كانون الأول على جبهة القفقاس. ولكن عندما وجدت قوى الوسط نفسها أمام السوفييت ادركت ان مصالحها تختلف لأن الألمان يفكرون بالاحتفاظ بالأراضي التي احتلوها بينما يريد الأتراك الحصول على اخلاء الأراضي التي احتلها الروس وهكذا بدأ كل طرف مباحثات مستقلة مع السوفييت. وجرى أول نزاع تركي سوفييتي حول قضية الأرمن. طالب السوفييت باجراء استفتاء في الأراضي المحتلة باسم الحكم الذاتي للشعوب بينما اعتبر الأتراك ذلك «تدخلاً في الشؤون الداخلية». وفي هذه الآونة، في ١٣ كانون الأول نشر ستالين، رئيس القوميات، رسالته حول ارمينيا التركية. وكان ذلك نداء للأرمن لكي يبحثوا عن

حل لمسألتهم في اطار روسيا السوفييت. وتبعها اعلان المرسوم الأرمني الذي نشر في ١١ كانون الثاني ١٩١٨، فكان يطالب باخلاء أرمينيا التركية من الجيوش الروسية، وبتشكيل ميليشيا شعبية لحماية السكان وبحرية عودة اللاجئين والمبعدين الأرمن، وباقامة ادارة دائمة تحت اسم «مجلس الممثلين الشعبي الأرمني» يرأسه شيبان شاوميان. ولكن بقيت تلك الوثيقة حبر على ورق، اذ لا نجد من يلزم الأتراك على اعادة الأحياء من المهجرين والمبعدين الارمن، ولا نرى كيف تستطيع الميليشيا الأرمنية ضمانة الا من في هذه المقاطعة، ولا ندرك كيف سيقبل حزب الطاشناق رئاسة شاوميان، رئيس مجلس باكو.

كانت نتيجة ذلك العمل تحريك ردود الفعل التركية. لقد أدرك الأتراك من جهة اولى في بريست ليتومسك ان البعثة السوفييتية عاجزة عن مجابهة الضغط النمساوي الألماني، ومن جهة ثانية، على الواقع كان شرق القفقاس «يلقي المراسي» نسبة لروسيا الأم، فمنح هذا الوضع الأتراك فرصة مواتية لكي يلعبوا لعبة «القط والفأرة» مع شرق القفقاس، اذ استخدموا تارة البندقية وتارة طاولة المباحثات.

كتب في ١٤ كانون الثاني، وهيب باشا، رئيس جبهة القفقاس إلى نظيره الجنرال الجيورجي اود شيلدزة لينجره ان «سمو أنفير باشا يتمنى أن يطلع على شروط الاستقرار في العلاقات مع حكومة القفقاس المستقلة، ورأي الحكومة المزعومة فيما يخص هذه المسألة». كان الجنرال التركي اول من استخدم في كتابه اسم «حكومة القفقاس المستقلة». وبعد بضعة ايام اتخذ وهيب باشا نفسه المبادرة، فدعا الحكومة المزعومة الى المباحثات في مدينة بريست ليتوفسك. اجابت سلطات تيفليس بارتباك ان شرق القفقاس جزءٌ من روسيا، ولكن المجلس الدستوري القادم سيدرس المقترحات التركية، وسيُدعى هذا المجلس، بعد أن يحلّ البولشيفيك المجلس الدستوري الروسي في ١٨ كانون الثاني بعد عودة الشخصيات الجيورجية المنشفيك، الى تفليس. فاعترض الطاشناق وحدهم على تلك الدعوة مؤكدين على ضم القفقاس الى روسيا

ديمقراطيةً متحدة، ولكنهم خضعوا في النهاية الى الأكثرية من المنشفيك و «الموسافيست»، وكان المجلس يتألف من ٣٣ عضواً من حزب موسافات، ومن ٣٠ عضواً من المنشيفيك الجيورجيين، ومن ٢٧ عضواً من الطاشناق، وأربعة عشر مسلماً من اتجاهات سياسية مختلفة، وعضوين جيورجيين، وستة أعضاء من الاشتراكيين الثوريين والديمقراطيين.

بينما كان وهيب باشا يتملق هذه الفئة، كان يملأ أيضاً صدر الفئة الأخرى الخصم بالاحتجاجات على الجرائم التي ارتكبها الأرمن ضد السكان المسلمين. أجاب اوديشيلدزه معترفاً جزئياً بتلك الأحداث ولكنه ذكر أيضاً بالمجازر التي ارتكبها الأكراد. ولكن كان القفقاس يتحرك أيضاً خارج الأرض المحتلة. وتسلح المسلمون مستخدمين ما ترك الجيش الروسي اذ كانوا يهاجمون عند الحاجة الوحدات المتسرحة. ترك الفصيل الروسي ٢١٩ الذي هاجمه الززيريس في كانون الثاني قرب غنجا ما يقارب (٤٠٠) قتيل على الأرض وسلب سلاحه.

الهجوم التركي (خريطة - رقم ٢٨)

أصبح الوضع مناسباً للبدء في العمل عندما ألقى تروتسكي خطابه في بريست ليتوفسك في العاشر من شباط «لاحرب ولا سلام» ويعني بكلامه انه يرفض أن يقاتل كما يرفض أن يوقع على الشروط المفروضة من قبل دول الوسط. وتلقت قيادة الأركان التركية من لودينوف الضوء الأخضر ببدء الهجوم: فأرسل وهيب باشا في ١١ شباط مذكرة يصرح فيها انه لا يستطيع أن يبقى مكتوف الأيدي أمام مجازر رفاقه في الدين وأصدر في اليوم الثاني مذكرة تعلن بدء المعارك.

توقف هذا الهجوم الأول بعد بضعة أيام، بعد الاستيلاء على ايرزنكان في ١٣ من الشهر. وكان هدفه بدون شك اختبار القوة في المجال العسكري والسياسي.

فكانت الكسيرة كاملة في المجال العسكري. وقام الشعب والعصابات الأرمنية بالنهب والسلب والقتل قبل اخلاء الأماكن، ولكنهم تلقوا المصير نفسه من قبل المجموعات غير النظامية من أتراك وأكراد على الطرقات. وتكررت تلك الأحداث بدون انقطاع أثناء التقدم التركي.

أما في المجال السياسي، كان البند الخامس من الانذار الذي وجهته دول الوسط يطالب الروس ببذل قصارى جهدهم لكي يردوا المحافظات في الشرق من آسيا الصغرى إلى الامبراطورية العثمانية، رافضين المطالبة التركية باعادة الألوية الثلاثة كارس، اردهان وباطوم، أي عودة الحدود إلى ما قبل عام ١٨٧٨. وكان الألمان والنمساويون متحفظين كثيراً أمام ذلك المطلب. وأبدى السوفييت استعدادهم للتوقيع عندما عادت البعثة الروسية التي ترأسها تشتشيرن في بريست ليتوفسك، بعد احتجاج شديد على كل نص يقدم لهم، وأصبح كل طلب ممكناً. ونصت المعاهدة التركية الروسية في بريست ليتوفسك على اعادة الألوية الثلاثة كارس واردهان وباطوم إلى تركيا.

قرر المجلس في تيفليس، متأثراً بالاستيلاء على ايرزنكان، أن يبدأ مباحثات مع الأتراك رغم انه يطالب بحدود ١٩١٤. واختار مكاناً محايداً للمؤتمر المتوقع، مدينة طرابزون التي كان يديرها مجلس يضم بين أعضائه المتروبوليت اليوناني. ولكن كانت مفاجآت كثيرة تنتظر شرق القفقاس. في ليلة انطلاق الوفد إلى طرابزون، وصلت برقية من موسكو تعلن توقيع معاهدة بريست ليتوفسك والتخلي عن الألوية الثلاثة. وابحر إلى باطوم وفد كبير يتجاوز المئة شخص لأن كل قومية وكل اتجاه يرغب أن يكون ممثلاً، في باخرة يسيطر عليها عناصر من البولشيفيك، فصمم هؤلاء التوجه إلى القرم، وعندما نجا الوفد بعد دفع فدية عالية، وصل إلى طرابزون ليجد الجيش التركي محتل المدينة. ثم وصل الوفد التركي بدوره وقدم السؤال الأساسي، اذ لا يزال شرق القفقاس جزء من روسيا فعليه أن يقبل معاهدة بريست ليتوفسك ويخلي الألوية

الثلاثة. واذا كان لديه مطالب خاصة، فعليه أولاً أن يعلن استقلاله لكي يجري مباحثات كدولة مع دولة تركيا. وفي غمرة الأحداث كلها دخل وهيب باشا إلى ارضروم على رأس جيشه وفي اليوم نفسه وصل الوفد التركي إلى طرابزون.

وجه وهيب باشا في ١٠ آذار مذكرة إلى «حكومة شرق القفقاس» عند بدء الهجوم الثاني- وكان الوحيد الذي يستخدم تلك العبارة- يطالبها بسحب قواتها إلى ما وراء حدود عام ١٨٧٨. فأجابت تيفليس انها لا تعترف بمعاهدة بريست ليتوفسك. ولكن رد الأتراك بشرعية أن حكومة تيفليس غير شرعية، وان الحكومة السوفييتية وحدها تتمتع بوجود شرعي ومعها معاهدة بريست ليتوفسك.

اشتعلت كل الجبهات بينما كان الجدل الطويل يقلق وفد شرق القفقاس في طرابزون ومجلس تيفليس حيث كان يميل ممثلو الازيريس أكثر إلى الأتراك. وصلت القوات التركية إلى حدود ١٩١٤ في الاسبوع الأخير من آذار بينما ثار الجيورجيون المسلمون خلف الخطوط واحتلوا اردهان منذ ١٣ آذار. وكان المسلمون يحضرون ثورة ضد المجلس في باكو. واتحد المجلس الأرمني مع المجلس الاداري ليسحق الثورة، وانتهى كل شيء بمجزرة عامة بين ٣٠ آذار والثاني من نيسان، وتركوا على الأرض ٩٠٠ مسلم قتيل. وانطلق فصيل تركي من بتليس في ١٣ شباط، واحتل ڤان في ٦ نيسان، فهرب أرمن المدينة والجوار، قسم باتجاه اغدير وقسم آخر باتجاه اورميا. وقضت عصابات سيمكو على القسم الثاني. وتراجع الأرمن إلى ولاية يريڤان حيث يعيش ٤٠٠٠٠٠ مسلم، فكان من الضروري أن يجدوا مكاناً للاجئين ولو بمعارك مستمرة.

استمر النقاش من طرابزون حيث وصل وفد قفقاس الشمال في الأول من نيسان ليطلب أن يشترك في «استقلال القفقاس». ووجه الوفد التركي انذاراً في ٦ نيسان. فاضطر وفد شرق القفقاس أن يقبل معاهدة بريست ليتوفسك وأن يحصل على ميثاق الاستقلال لكي يستطيع أن يوقع اتفاقات دولية. انتهى مؤتمر طرابزون

وعاد وفد شرق القفقاس إلى تيفليس. وتقدم الجيش التركي باتجاه بابي القفقاس الغربية، كارس وباطوم. فأصبح حماس المجلس أو لا مبالاته بدون جدوى. فسقطت باطوم بيد الأتراك مساء اعلان ينذر أن الوطن في خطر، بينما كان المسلمون الجيورجيون يهاجمون القوات الأرمنية خلف الخطوط بين اوزورغين واياسطومان على طريق باطوم تيفليس.

في ١٧ نيسان قدم الكولونيل شارديني ليتفقد القوات الأرمنية أمام كارس، ولكن قرر الجيورجيون اتباع سياسة مهادنة مع الأتراك. فحاولوا الحصول على وقف اطلاق النار مقابل اعلان استقلال شرق القفقاس، وتم ذلك في ٢٤ نيسان. يعادل وقف اطلاق النار بنظر الأتراك، اخلاء كارس وانسحاب القوات إلى ما وراء حدود ١٨٧٨.

قبل الأتراك بانعقاد مؤتمر ثاني في باطوم بعد أن حصلوا على المطلب الأول. وانعقد المؤتمر في ١١ أيار بحضور وفد شمال القفقاس الذين أعلنوا في اليوم نفسه استقلال جمهوريتهم. وامتاز المؤتمر بطابع جديد هذه المرة، اذ حضر الألمان كمراقبين، فكان مؤتمراً دولياً. كان يأمل القفقاسيون السليمي النية، أن يحصلوا مقابل الاعتراف بمعاهدة بريست ليتوفسك، على بعض الترتيبات الصغيرة. ولكن أتاهم الرد التركي عنيفاً اذ قال أن الدم سال بين باطوم وطرابزون من الجانبين، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تبقى المطالب نفسها. فأصبح هم الأتراك الآن أن يصلوا إلى حدود ما قبل ١٨٢٨، فيستعيدوا ألوية فالتسيخ واخالكاليك في الشمال ولواء سورمالو في الوسط وفي الغرب من اراكس ومع الكسندروبول (لينينكان) والطريق الحديدية من هذه المدينة حتى جولفا على الحدود الايرانية. لكي يستطيعوا نقل قواتهم إلى الشمال من بلاد فارس. وستتكرر مأساة طرابزون في باطوم، بالتقارب المتزايد لوفد ازيري ووفد شمال القفقاس مع الأتراك، ومع التواجد الألماني. وكان الألمان يخفون جيداً غضبهم أمام مغامرة الأتراك في القفقاس في وقت كانت تتقدم فيه قوات الجنرال

اللنبي في سورية ويتصورون في الأفق سيطرة تركية على بترول باكو.

حماية ألمانية في القفقاس:

سقطت الكسندروبول في ٥ أيار، وتقدم الأتراك على طول الطريق الحديدي باتجاه تيفليس ويريفان. وانطلق في الوقت نفسه فيلق من ڤان واحتل أغدير في العشرين من الشهر. وكان فوف لوسوف الممثل الألماني في باطوم يرسل يومياً برقيات انذار حول تقدم الأتراك ووضع السكان الأرمن اليأس. وعندما كان لودندوف يحاول وقف هذا التقدم، عرض فوف لوسوف نفسه وسيطاً. قبلت حكومة شرق القفقاس، ولكن رفض الأتراك. فتقرب شرق القفاقس من الألمان في ٢٢. وتقرر حماية ألمانية على جيورجيا ولكن يتطلب ذلك اعلان استقلال جيورجيا، فتنفصل عن باقي القفقاس الشرقي. أبرق المندوبون الجيورجيون في باطوم، إلى تيفليس لهذا الغرض. وصرح فون لوسوف أمام المؤتمر أن عليه أن يعود ليتزود بتعليمات جديدة نظراً لاختفاء شرق القفقاس القريب. ولكن غادر مركبه في الواقع مرفأ باطوم ليرسي سراً في مرفأ بوتي. وغادر المندوبون الجيورجيون المؤتمر أيضاً ليأتوا -حسب تصريحهم- بتعليمات من تفليس وذهبوا في القطار إلى بوتي في ٢٦. فأعلن المجلس حل نفسه، وأعلنت الجمهورية الجيورجية بعد بضع ساعات. وبدأت في بوتي المباحثات في سبيل حماية ألمانية على جيورجيا. وجه الوفد التركي انذاراً لمدة اثنتين وسبعين ساعة يطالب جيورجيا، بابا ستومان، وناخيتشيفان كاملة والقسم الغربي من لواء شاروردارالاغيز من ارمينيا. وأعلن في اليوم نفسه السكان المسلمون في اخالتسينخ وفي اخالكالاكي انفصالهم عن شرق القفقاس. ولكن قد زال شرق القفقاس من الوجود. وأعلن الازيريس جمهوريتهم الخاصة في ٢٨ وتبعهم الأرمن يائسين من قضيتهم، والموت في النفس، ولكن حصل الاعلان الآخر تحت هيمنة أقل خطراً وأقل

مأساة مما كانوا يتوقعون. توقف الفيلق الشمالي من الجيش التركي بعد أن احتل حمامل (سبيناك) وكاراكيليس (كيروفاكان)، أمام ديليدجان بينما هزم فيلق الجنوب أمام سارداراباب (اكومبيريان) في ٢٨، على بضع كيلومترات من يريڤان.

وقع الاتفاق الألماني الجيورجي في ٢٨. يحمي الألمان بموجبه الحدود الجيورجية ويستخدمون الخطوط الحديدية لنقل جيوشهم. ويصبح المستعمرون الألمان الذين وضعهم الروس في القرن التاسع عشر، تحت الحماية أيضاً. وينص الاتفاق أيضاً على امتيازات منجمية وعلى تداول العملة الألمانية بنسبة تحدد فيما بعد.

ساءت العلاقات بين الحليفتين ألمانيا وتركيا. أراد الرئيس هرتلنغ ان يمنع تركيا من اجتياز حدود بريست ليتوفسك، بينما كان يطلب المر الموجه الى أركان الجيش التركي في القفقاس توقيف اية وحدة ألمانية تصادف في المنطقة وتجريدها من سلاحها. وحصل ذلك الاحتمال بعد بضعة أيام على طريق تيفليس حيث جرى اشتباك مع وحدة تركية فخلف وراءه جرحى ومساجين من الجانب الألماني. سلح فولوسوف ألمان القفقاس ووصلت للنجدة بعثة عسكرية بقيادة الكولونيل كريس فون كريسنتان إلى تيفليس.

كانت الجمهوريات الثلاث ملزمة على التعاون مع الأتراك رغم التواجد الألماني. وقع ثلاث معاهدات منفصلة في ٤ حزيران في باطوم. استطاعت جيورجيا القوية من الدعم الألماني، أن تقاوم المطالب التركية الأخيرة، ولكنها تخلت رغم ذلك عن خالتسيخ واخالكالاكي إضافة إلى الأراضي التي تنازلت عنها بموجب معاهدة بريست ليتوفسك. وكانت مهمة اذيربيجان أن تتحول إلى محمية تركية. ويتضمن البند الرابع من معاهدتها، تقديم الحكومة العثمانية المساعدة العسكرية لها، عند الطلب.

وقعت الجمهورية الأرمنية أول عمل دولي لها مع تركيا، لقد فقدت تركيا بالحماية الألمانية على جيورجيا، امكانية استخدام الخط الحديدي باكو عبر تيفليس، واحتفظت بالطريق المعبدة التي توصل إليها، الأولى طريق الكسندروبول -ديليدجان-

الكاستافا-غالنجا، والطريق الثانية التي تمر عبر ناخينشيفان -جيروس-شوشي تجتاز الزنغزور والكاراباخ- وحافظت بالاضافة إلى ذلك على الخط الحديدي بين الكسندروبول وجولفا. ووقعت معاهدة رابعة في ٨ حزيران بين تركيا وجمهورية الشمال من القفقاس. وينص البند الثاني مثل البند الرابع من معاهدة اذربيجان، على التدخل التركي العسكري. فأصبح كل شيء مهيأ للمرحلة الثالثة للهجوم التركي.

الألمان والانكليز والأتراك: السباق باتجاه باكو:

تبرز معاهدات باطوم انهيار القسم الشمالي والوسط من الجبهة المسيحية التي حاولت دول الحلفاء اقامتها. وليست الجبهة الجنوبية بوضع أفضل حتى ولو كان البريطانيون يمتلكون امكانية منفذ مباشر من بغداد التي احتلوها منذ ١٩١٧. غادر الجنرال دنسترفيل الذي عين في ١٤ كانون الثاني ١٩١٨ رئيساً للبعثة العسكرية البريطانية في القفقاس، بعد شهر، همذان الى انزيلي على الكاسبين. وجد فيها مجلس عسكري من القوى المرسلة الروسية في بلاد فارس ومن بحارة الكاسبين، واضطر أن يعود ادراجه. وبقي ينتظر أيام أفضل في همذان. وشكل الأمير ولي العهد الايراني نائب ملك تبريز، الذي سيطر عليه الألمان والأتراك مع رئيس ديني من منطقة جيلان، كوتشوك خان، على رأس حركة ثورية، وباتفاق مع مجلس انزيلي، جبهة أمام التقدم البريطاني نحو القفقاس والكاسبين.

بعد أن استولى الأتراك على ڤان في نيسان هاجموا سهل اورميا. وهيأت في الوقت نفسه القيادة التركية في الموصل حملة باكو. غادرت اركان «الجيش الاسلامي» بقيادة نوري باشا، أخ انفير باشا في ١٢ نيسان الموصل ووصلت في ٤ أيار إلى تبريز قبل أن تتابع باتجاه غانجا.

حملت تلك التجهيزات الانكليزية على العمل ومنح الفرصة الكولونيل

بيتشيراكوف قائد الكوزاك في بلاد فارس الذي كان يتظاهر انه بولشوفيك بنظر مجلس انزيلي، فأجرى مباحثات مع دنسترفيل. ولكي يتتبع دنسترفيل وقيادة اركانه الأحداث عن كثب كان يتنقل من همذان إلى قزوين بينما غادرت بعثة أخرى انكليزية فرنسية بعثة اوغستاف، خانكان واحتلت في ٣١ أيار زنجان على طريق تبريز طهران وكان مهمة البعثة تقديم المساعدة للمسيحيين في اورميا. ولكن حجزت البعثة بعد الاستيلاء على مياني من قبل الأتراك الذين أرسلوا فصيلاً إلى تبريز في ١٥ حزيران. كانت حينذاك قوات انترانيك الأرمنية التي تركت منطقة يريفان بعد معاهدة باطوم قد اجتازت جولفا وخوا وأتت لنجدة النساطرة ولكن صدها الأتراك. فتراجع انترانيك باتجاه جولفا ثم باتجاه ناختشيفان وسقطت هذه المدينة في ٢٠ تموز وأجبر انترانيك على التراجع باتجاه زنغزور فاستطاع الأتراك أن يستخدموا الخط الحديدي بكامل طوله والنزول بقوة إلى تبريز.

هاجمت باقي القوات التركية في اذربيجان الايرانية اورميا وحاصرت المدينة حتى نهاية شهر تموز عندما حاول النساطرة الخروج ووصلوا بعد خسائر فادحة مصطحبين معهم نساء وأطفال إلى الخطوط البريطانية وكانت تلك نهاية الأمة النسطورية. فوضع الانكليز الأحياء منهم في معسكر باكون قرب بغداد وتركوا خلفهم الدمار والآلام في سهول اورميا.

بذل الألمان آخر جهد في اليوم الثاني لمعاهدات باطوم لكي يوقفوا الأتراك وتدخل الماريشال هندينبروغ شخصياً واتصل بـ انفير باشا فهدد هذا الأخير بالاستقالة. وقع حينئذ اتفاق في ١٧ حزيران بين الجيش التركي في القفقاس والبعثة الألمانية العسكرية في جيورجيا لكي ينظموا مرور القوات التركية جنوب جيورجيا لكي تصل من كراليكيس (كيروفاكان) إلى اكستافا (محطتين على طريق السكة الحديدية على خط الكسندروبول-باكو).

لم يكن الألمان وحدهم قلقين من الوضع. وكان لينبي على اتصال مستمر مع

شاوميان في باكو بواسطة ستالين المرسل إلى تشارتشين (ڤولغوغراد) المنطقة السوڤييتية الأقرب إلى باكو. وتقرر هجوم القوات من باكو ضد غنجا عاصمة جمهورية اذربيجان وانطلقت في ١٢ حزيران ولكن كانت قد قدمت حكومة ازيري قبل حل مؤتمر باطوم طلب المساعدة العسكرية المبينة في المعاهدة التركية الأزيرية فوصل الفصيل الخامس إلى غنجا حيث كان نوري باشا في ٢٠ حزيران. وكان أول عمل للقيادة التركية في غنجا اجبار حزب موساڤات على الانسحاب لصالح حكومة يسيطر عليها ملاكو الأراضي المسلمون الكبار.

سقوط باكو:

تقدم هجوم مجلس باكو حتى جيوكتشيه في ٢٨ حزيران عندما أجبرها الهجوم التركي الأزيري على التقهقر، وبدأ التقدم التركي البطيء نحو باكو وتخلله أحداث كثيرة.

كان يحمي مؤخرة جيوشه بعثة واغستاف المتمركزة بين ميانية وزنجان. وعاد دنسترڤيل إلى انزيري في ٢٧ حزيران واتفق مع بيتشيراكوف. وكان على بيتشيراكوف الذي يتظاهر بالبلشوفيك أن يجعل مجلس باكو يدعوه ليحضر الطريق لقدوم دنسترڤيل. وكان بيتشيراكوف على اتصال مع شاوميان منذ شهر ايار. لقد طمأن مجلس انزيلي في حزيران شاوميان ان بتشيراكوف بولشفيك حقيقي. فأبحر شاوميان إلى باكو في ٥ تموز ولكن لم يكن لينين واهم من مصير باكو وفضل أن يتصل مباشرة مع الألمان. وكان جوف السفير السوڤييتي في برلين في مباحثات مع الألمان فاقترحوا توقف تقدم الألمان مقابل قسم من بترول باكو. ولكن أوقف اغتيال السفير الألماني في موسكو، الكونت ميرباخ، المباحثات، بينما استمر الوضع في التطور على الواقع.لم يمنع بيتشراكوف انتصاراً تركياً واضحاً بعد بضعة أيام،

وتدفقت قوات المجلس المكونة في معظمها من الأرمن أن يطلب البريطانيين. وكان يمول ماك دونيل، القنصل الانكليزي في باكو، الثورة المعاكسة. وفي ٢٥ تموز أصبح شاوميان وبالشيفيك في أقلية ٢٥٨ صوتاً مقابل ٢٣٦ صوت فعزلوا وحل مكانهم «دكتاتورية الكاسبين المركزية» فطلبت البريطانيين وكرر المجلس القومي الأرمني في ٢٧ الطلب. وصل أول فصيل في ٤ آب بينما حاصر الأتراك المدينة منذ اليوم الأول من الشهر. قررت قيادة البحرية البريطانية استخدام اسطولها لكي تنقل قوات كثيرة في الكاسبين. ووصلت بعثة بريطانية جديدة لهذه الغاية إلى انزيلي في شهر آب ونزل إلى باكو «الدنستر فورس» في ١٧ من الشهر.

حاولت موسكو أن تعترض حتى النهاية على قدوم دنستر فيل إذ كانت تعتقد أن اخلاء الأتراك أسهل من طرد البريطانيين ولكن عندما لم يبق شيء تفعله أجبرت على إعادة الاتصال مع الألمان ووقع ملحق لمعاهدة بريست ليتوفسك في ٢٧ آب في برلين. قبلت روسيا باعتراف الألمان بجورجيا مقابل أن تتعهد بمنع أي دخول إلى القفقاس لقوة مسلحة تابعة لدولة ثالثة أي الأتراك وحتى أيضاً بريطانيا العظمى، وقبلت روسيا في بروتوكول سري تابع أن تقدم بترول ومنغنيز جيورجيا إلى ألمانيا.

عندما علم بهذا الاتفاق طلعت باشا رئيس الوزارة التركي أتى إلى برلين في ١٧ أيلول ليدافع عن حقه واضطرت حسب رأيه جيورجيا وأرمينيا وأذربيجان أن تكون دول صد ضد روسيا بينما سيساعد تقدم تركيا نحو الشرق على تنظيم أربعة عشر مليون من المسلمين التركستان تنظيماً عسكرياً ليستطيعوا مقاتلة روسيا وانكلترا. واحتلت في هذه الأثناء القوات التركية المتمركزة في تبريز، ميانة في ٩ أيلول وممر كافلان-كوخ بين هذه المدينة وزنجان وأجبرت بعثة واغستاف على التراجع.

سقطت باكو في ١٥ أيلول وقد أخلاها دنستر فيل في الدقيقة الأخيرة، وحصلت مجزرة عنيفة خلفت وراءها أكثر من ١٢٠٠٠ ألف قتيل من الأرمن. وكان

ينوي الأتراك أن يجتازوا الكاسبين ويحتلوا رخت وانزيلي ولكن كان الانكليز يسيطرون على الأسطول فبدا أن «الجيش الاسلامي» التابع لنوري باشا يريد أن يلتف حول الكاسبين فقط. وتقدم نحو داغستان فسقطت دير بنت ثم تابع نحو بيتروسكوف، تعقب دنسترفيل بعد أن تزود بالمؤن في انزيلي، الجيوش التركية بواسطة اسطوله ووصل في ٦ تشرين الثاني إلى أمام بيتروسكوف مع (ماهشكال) التي كان يدافع عنها بيتشروكوف ويحاصرها الأتراك. ووقعت معاهدة بعد ٧ أيام في ٣٠ تشرين الأول بين تركيا والحلفاء وأنهى اشتراك الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية. فلم يرض نوري باشا بذلك ووضع نفسه بخدمة اذربيجان وجمهورية شمال القفقاس بموجب معاهدة باطوم. وأبحر بيتراكوف مع دانستر واحتل الأتراك بيتروفيسكي.

لا يمكن أن تستمر تلك اللعبة طويلاً لقد وعدت الحكومة التركية عندما وقعت المعاهدة أن تخلي القفقاس، ونزل الجنرال البريطاني القادم من انزيلي في باكو في ١٧ تشرين الثاني واستقبلته حكومة اذربيجان استقبال المنتصرين. ونزلت في باكو قوات بريطانية أخرى قادمة من استنبول بعد بضعة أيام.

-II- ١٩١٨-١٩٢١: فشل القفقاس البريطاني وجعله سوفييتياً:

حصل فراغ كبير في الساحة السياسية عند اختفاء روسيا في نهاية عام ١٩١٧ وتبعه بعد عام فراغ ثاني عند انهيار الامبراطورية العثمانية في المنطقة. وتتمسك كلتا الدولتين بالقفقاس وتسعى كل دولة جاهدة لتستعيده ولكن استقرت دولة ثالثة لهذه الغاية ١٩١٨ في المنطقة. إنها بريطانيا العظمى التي تمتلك في نهاية هذه الحرب قليلاً من المعدات والوسائل المادية للسيطرة على منطقة مضطربة. فحاولت أن تعوض هذا النقص باللعبة الدبلوماسية التي ازداد توجهها صعوبة.

حماية بريطانية على اذربيجان (خريطة رقم -٣٩-):

تريد الأوساط الامبريالية المتطرفة في لندن أن تحافظ على القفقاس بحجة أنه احدى ممرات الهند ولكن في الحقيقة لأنه يحتوي على بترول باكو، وتدعم بريطانيا العظمى في الوقت نفسه وتمول قوات الجنرال دينكين الروسية المعادية للثورة إذ كان دينكين يفكر باستعادة الامبراطورية الروسية كاملة وامتازت السنة الأولى التي تلت المعاهدة حيث لم تكن قد دخلت بعد روسيا وتركيا إلى القفقاس بالصراعات الداخلية بين الدول المحلية وبمقاومتها لقوات الجنرال دينكين.

كانت جيورجيا أثناء سيطرة قوى الوسط على القفقاس الشرقي محمية ألمانية واذربيجان محمية تركية، بوضع جيد على عكس ما كانت عليه أرمينيا . ولم يكن الوضع مختلفاً كثيراً أثناء السيطرة البريطانية لأن اذربيجان تمتلك البترول الذي يمر في جيورجيا ليصل إلى مرفأ باطوم. وقد وعدت به جيورجيا ولكن احتله البريطانيون. أما ارمينيا فكانت مأساة الحلفاء اذ وعدت بأراضي الأناضول الشاسعة ولا تملك القدرة على الاستيلاء عليها والمحافظة عليها . فنجم عن ذلك الغبن الذي رافقه تجمع مئات الآلاف من اللاجئين في منطقة صغيرة، سياسة هجوم باءت بالفشل.

كانت معاهدات باطوم التي بنظر تركيا واجهات قانونية تستخدم كحجة لتجتاح القفقاس، عاجزة عن حل مسألة الحدود بين الجمهوريات الثلاث. وخلف انسحاب الأتراك بالإضافة إلى ذلك منذ تشرين الأول ١٩١٨ فراغات سياسية. فسعت كل جمهورية من الجمهوريات الثلاث وخاصة أرمينيا إلى الاستيلاء عليها . فسبب ذلك صراعات عميقة. وفي أوائل آب ١٩١٨ طلب نوري باشا ضم كراباخ إلى اذربيجان ولم يكن لدى الجمهورية الأرمنية في ذلك العهد القدرة على السيطرة المباشرة على المنطقة. فرفض مجلس كراباخ الأول المنعقد في شهر آب مطلب نوري باشا . ولكن كرر نوري باشا مطلبه بعد الاستيلاء على باكو فرفض المطلب مجلس ثاني انعقد بين

٢٠-٢٤ أيلول، وأرسل فصيل تركي ازيريس ضد شوشي العاصمة. فعقد السكان الأرمن مجلسهم الثالث من ٥ إلى ٨ تشرين الأول وأجبر على التنازل عن ملكية ودخل الأتراك في ٨ تشرين الأول إلى شوشي وكانت القرى ثائرة. وفي الشهر الثاني استعاد الأرمن السيطرة على المنطقة مستغلين انسحاب الأتراك.

كان قائد القوات البريطانية في القفقاس الجنرال تومسون على علاقة جيدة مع حكومة اذربيجان فسمح ذلك لبريطانيا أن تحصل على كميات كبيرة من البترول واعتقد أنه يجب اعطاء أرمينيا أراضي شاسعة في الأناضول وان جبال كراباخ تكون مراعي صيفية للمربين الآزيريس. فسمح في ١٥ كانون الثاني ١٩١٩ بتسمية حاكم ازيريس لمحافظات الكراباخ والزنغزور، وكان سكان الكراباخ يتكونون آنذاك من ١٦٥ ألف أرمني و٥٩ الف آزيريس ويتكون سكان زانغرور من ١٠١ ألف أرمني و١٢٠ آزيريسي، وكانت تحتل زنغرور منذ تموز ١٩١٨ عصابات انترانيك التي كانت تهاجم القرى المسلمة.

دخلت الادارة الاذربيجانية في الكراباخ في أواسط شباط ١٩١٩ بينما كان الأرمن يعقدون اجتماعهم الرابع في شوشي فرفض المجلس الخضوع. واستمرت المباحثات أثناء الاجتماع الخامس المنعقد في أواخر نيسان بمشاركة الحاكم الآزيري والجنرال (شوتل ورث) خليفة تومسون. واستمر الرفض الأرمني وساءت العلاقات. فبدأ الازيريس الهجوم في ٢ حزيران. فوافق مجلس كراباخ السادس المنعقد في ٢٩ حزيران على البحث عن تسوية، وقبل المجلس السابع المنعقد ١٢ و١٥ آب ١٩١٩ سلطة الآزيريس.

الانسحاب التركي:

في تشرين الأول وتشرين الثاني أخلى الأتراك المنطقة الواقعة بين الكسندروبول

(لينيناكان) وكراكيليس (كيروفاكان) وحصونها في الشمال التي تكون منطقة لوري الواقعة في جنوب اقليم بورتشالو، الحدود بين جيورجيا وأرمينيا. واحتل الأرمن المقاطعات المخلاة ملحقين الضرر بالجيورجيين وتم تحاشي خلاف حينذاك ولكن عندما ثار سكان القسم الباقي من بورتشالو، الأرمن، في كانون الأول يطالبون بانضمامها إلى أرمينيا اجتاز جيش هذا البلد الحدود في ١٤ كانون الأول واندلعت الحرب بين أرمينيا وجيورجيا. فأوقفها في ٣١ من الشهر تدخل البريطانيين الذين أعلنوا لواء بوتشالو محايدة بقيادة الحلفاء.

ازداد الوضع تعقيداً في المناطق الممتدة بين الجمهوريات القفقاسية الشرقية وخط انسحاب القوات التركية التي كانت حدود عام ١٩١٤. فأرسل انفير باشا تعليمات دقيقة إلى جيش القفقاس في تشرين الأول ١٩١٨. فكان على الجيش أن يسلح قبل انسحابه، السكان الأكراد والأتراك ويترك ضباط قادرين على تنظيم المنطقة سياسياً وعسكرياً. وكان الهدف الرئيسي من ذلك منع الأرمن من العودة إلى بلادهم. فاستلم السكان المسلمون في أقاليم فالتسيخ وخاكلاكي السلطة منذ تشرين الأول ١٩١٨ وأوقفوا تقدم الجيورجيين. وتأسس في ١١ تشرين الثاني مجلس شورى قومي اسلامي في كارس يشمل الأراضي التي استولى عليها الأتراك بموجب معاهدة بريست ليتوفسك التي رفضتها موسكو مؤخراً. وأسست مجالس أخرى في سورمالو (اغدير) وفي ناخيشيڤان. ودعيت مؤتمرات في ٣٠ تشرين الثاني الى كارس، ومن ثلاثة إلى تسعة كانون ثاني إلى اردهان. ووقع الأرمن في ٨ كانون الثاني مع الجنرال فوريستيه-ولكر، قائد القوات البريطانية في باطوم، اتفاقاً لاقامة ادارة مدنية أرمنية في كارس. ولكن عندما وصلت الادارة المدنية الأرمنية بحراسة الانكليز إلى كارس حصل المشهد نفسه الحاصل في كراباخ، اذ رفض المسلمون الخضوع. وانعقد مؤتمر كبير في كارس ١٢-١٨ كانون الثاني وأعلن الحكومة الوطنية المؤقتة للجنوب الغربي من القفقاس. ووصل الجنرال تومسون إلى كارس واعترف بتلك الحكومة بينما

عادت الحكومة الأرمنية ادراجها. وجعل الأكراد والأتراك عودة الأرمن مستحيلة إلى الغرب. فقرر الأرمن في كانون الثاني مهاجمة ناخيتشيڤان. فاضطر الانكليز على التدخل ليتسلموا ادارة هذه المنطقة.

لقد انجرف الجنرال تومسون كثيراً في مأزق القفقاس فدعى الاداريين الجيورجيين والأرمن الى تفليس ٦-٨ نيسان وسوى الخلاف الأرمني الجيورجي بتبادل أراضي: ضم منطقة بورتشالو إلى ارمينيا ومنطقة خالكلاكي إلى جيورجيا. ثم عرض تومسون على الأرمن ان يساعدهم على السيطرة على كارس وناخيتشيڤان اذا هم قبلوا التنازل عن كراباخ وزانغرور الى الآزيريين، احتل تومسون كارس في ١٣ نيسان استناداً الى اتفاق مبدئي وحل حكومة جنوب غرب القفقاس وفي ٣٠ نيسان انتقلت الادارة إلى الأرمن وسمح في الوقت نفسه للجيورجيين أن يحتلوا خالتيسيخ وآخاكلاكي مع اردهان وسيلدير الى ما وراء حدود ١٨٧٨. وحل في ٣ أيار آخر مجلس، مجلس أولتو في الطرف الغربي من الأراضي التي أعطيت إلى تركيا بموجب معاهدة بريست ليتوفسك. وانسحب الانكليز من ناخيتشيڤان تاركين السلطة للأرمن. ورأينا بالمقابل أن الكراباخ لم تعط للازيرين قبل المجابهات في شهر حزيران. ولكن بقيت زنغرور خاضعة للسلطة الأرمنية وأدرك الكولونيل راويلنسون الذي كان يزور منطقة كارس في تموز انه باستثناء المدن كان الأكراد يسيطرون على باقي الأراضي من وادي آراكس وحتى اولتو واردهان. وهاجم مسلمو ناخيتشيڤان في الفترة نفسها ١٩-٢٠ تموز الأرمن وأجبروهم على اخلاء المنطقة.

الجيوش البيضاء:

فيما يخص شمال القفقاس وضع الانكليز جمهورية شمال القفقاس تحت حمايتهم محاولين الحصول على اخلاء الجيوش التركية. وكانت الداغستان تمتلك

أيضاً بترولاً وتكون ممراً سهلاً لتزويد دينكين. وعندما تعزز وضع دنكين بفضل اعانات الانكليز قرر أن يوحد الأراضي القديمة الروسية وهاجم كوزاك تريك للمرة الأولى مجلس ڤلادي كفكاس الذي يرأسه البولشيفيك اورجوني كيتزه في آب ١٩١٨ وأجبروه على اللجوء إلى الشاشان والانغوش فساعده هؤلاء على استعادة المدينة لأنها المدخل الشمالي إلى القفقاس. واحتل دينكين ڤلادي كفكاس في كانون ثاني ١٩١٩ واخضع في شباط مجالس الفلاحين الابخاز الذين طردوا البولشيفيك في الصيف السابق بمساعدة الجيورجيين. وثبتت الحدود بين جيورجيا ودينكين على نهر بنريب بين ابخازيا والمنغريلي. وكان على القائد البريطاني في القفقاس ان ينذر دينكين في ٢٢ شباط انه إذا حاول الاستيلاء على أراضي جديدة في القفقاس ستتوقف المساعدات العسكرية للمتطوعين. ولكن أصبح دينكين تدريجياً رأس الحربة في الحرب ضد موسكو وقل احترامه لتلك الممنوعات فاحتل الداغستان واستخدم أسطول الكاسبين الذي قدمه له الانكليز للقصف بالمدفعية الاحياء المسلمة في ديربنت وسمح له البريطانيون احتلال ديربنت وبتروفيسك في أيار ولكن دفع التجنيد والمساهمة بالقوة، الجبليين إلى الثورة بسرعة. فرفض الفلاحون الابخاز الدخول في الجيش وشكلوا حركة ثورية (الجيش الأخضر). وثار الانغوش في حزيران ثم تبعهم الشاشان في آب.

عمت الثورة في الخريف شمال القفقاس بينما كان دينكين يحاول هجومه الأخير ضد موسكو وشكلت المقاومة ضد دينكين مجلس دفاع يضم في صفوفه بولشيفيك اورجوني كيتزة. والاشتراكيين والقوميين والرؤساء الدينيين المسلمين الذين يرأسون «فصائل الشريعة»، ونوري باشا الذي لا يستغنى عنه والهارب من سجون البريطانيين في باطوم وقد أتى ليساعد من كان يحميهم سابقاً. وساعد الجيورجيون والآزيريون هذه الثورة رغم احتجاج البريطانيين ولم يكن دينكين على علاقة جيدة إلا مع الأرمن. وتم تبادل ممثلين بين يريڤان وايكاتيرينودار (كراسنودار) قاعدة دينكين

وكان هذا الأخير يزود أرمينيا بالسلاح والذخيرة ويدعم اصدار العملة الأرمنية باسم البنك المركزي الروسي.

تطور الموقف البريطاني في هذه المعمعة خلال عام ١٩١٩، فقرر المجلس الحربي في ٣١ تشرين الأول ١٩١٨ في اليوم الثاني للمعاهدة التركية، احتلال باكو وآبارها البترولية ولكن ظهر الجيورجيون متصلبين على عكس استقبال حكومة آزيري الحاد. واجتمع وزير الخارجية، جيجيشكوري في ٢٦ تشرين الثاني بتومسون لكي يحاول منع دخول القوات البريطانية إلى جيورجيا. واجتمعت في ٣ كانون الأول «الاسترين كوميته» (اللجنة الوزارية البريطانية) المسؤولة عن قضايا الشرق الأوسط والتي يرأسها اللورد كورزون وقررت عند الحاح رئيسها أن تحتل باطوم وباكو والخط الحديدي بين المدينتين وتضع تحت سيطرتها بترول باكو. وتبنت وزارة الخارجية ذلك القرار واستلم تومسون الادارة في باكو وألغى تأمين البترول. وفي ٢٤ كانون الأول أجبر الجيورجيون الذين كانوا في حرب مع الأرمن على التنازل أمام ضغوط البريطانيين فاحتل هؤلاء باطوم قبل نهاية العام بعد أن أقاموا حامية في تفليس.

البحث عن منتدب (قائم بالانتداب)

بينت منذ أوائل ١٩١٩ حركات ثورية في انكلترا نفسها، التي تؤيد تسريح الجيش، انه من المستحيل ان تستطيع بريطانيا الاهتمام بالامبراطورية الروسية بالاضافة لامبراطوريتها وكتب بلفور مدركاً الخطر، مذكرة في الأول من شباط يقترح فيها منح احتلال شرق القفقاس إلى ايطاليا. وكان الهدف من ذلك أن تتحمل العبء، أضعف دولة امبريالية في التحالف، اذ يسهل السيطرة عليها. وأرسلت السلطة السياسية ذاتها اليونانيين بعد عدة شهور لتطهير آسيا الصغرى من الأتراك الوطنيين. قبل الايطاليون بشرط ان يستطيعوا التدخل في قونيا في اواسط الأناضول، المنطقة

التي يطمعون بها منذ زمن بعيد. واتخذ القرار رسمياً في اجتماع المجلس الحربي الأعلى في ٩ نيسان رغم اعتراض كورزون الذي سمى العمل جنوناً. وكان من الواجب ان يبدأ اخلاء باكو في ١٥ حزيران، وأبلغت القيادة البريطانية في ١٥ أيار حكومة اذربيجان. فانذهلت هذه الأخيرة، وطلبت من ممثلها في باريس أن يتصل بالوفد البريطاني في المؤتمر ويطالب بانتداب بريطاني على اذربيجان. ولكن تغيرت الحكومة الايطالية في ١٩ حزيران. وأدرك رئيس وزارتها نيتي صعوبة العملية فالغاها.

أصبح البحث عن حامٍ جديد للقفقاس ضرورياً. واتجهت الأنظار إلى الولايات المتحدة التي تقوم أوساطها الارسالية بحملة اعلامية كبيرة من أجل انتداب أمريكي على أرمينيا. وقرر مؤتمر السلام في باريس منذ ٢٨ حزيران أن يعين مبعوثاً يقيم في أرمينيا لكي ينسق المساعدات الانسانية، وفي ٥ تموز تقرر أن يكون المبعوث امريكياً، الكولونيل ماسكيل. ولا تستطيع الولايات المتحدة على كل حال ان تلعب دور ايطاليا نفسه. وكانت استندر اويل كومباني تهتم كثيراً ببترول القفقاس. فقرر كورزون في ٢٢ تموز ان يعين مبعوثاً بريطانياً للقفقاس يقيم في تفليس. وأكد بالمقابل بلفور، الشخصية الموالية كثيراً لامريكا، في الحكومة البريطانية، في رسالة كتبها في ٩ آب إلى رئيس الوزارة ليود جورج حول منح الانتداب للأمريكيين. كتب في رسالته اننا سنغادر في ٣٠ أيلول اذا لم يحل مكاننا الامريكان سيقتل الأرمن جميعهم. ولكن بدا سفير امريكا في لندن الذي اجتمع به كورزون غير واثق من نجاح العملية. وأصبح الامريكيون مرة ثانية غير راغبين بالتدخل حسبما قال. فاستطاع كورزون الحصول على تمديد للاحتلال البريطاني.

استقبل الجيورجيون اثناء ذلك واردروب المبعوث البريطاني بحماس زائد، وعرضوا على الانكليز «امتيازات اقتصادية-صناعية وتجارية» اذا قبلوا بالبقاء. وألحت حكومة جيورجيا في ١٣ تشرين الثاني بطلبها الانتداب البريطاني. وكلما وجد

التحالف نفسه مجبراً على التحرر من الانتداب ازدادت مطالبة الجمهوريات في شرق القفقاس ببقائها ولكن ظهر في آفاق القفقاس غيوم جديدة منذ الخريف.

عودة الأتراك والروس:

تستطيع لندن اعتبار انسحاب القوات البريطانية من القفقاس أقل خطراً ما دامت الامبراطورية العثمانية في حالة نزاع. وطالما انتصار دينكين مؤكداً أكثر ولكن سيتغير الوضع منذ الخريف.

أصبحت الحركة القومية التركية قوية خلال صيف ١٩١٩ بزعامة الجنرال الشاب مصطفى كمال (اتاتورك المستقبل). لقد جمع أول مؤتمر انعقد في ارضروم في تموز، ممثلين من المحافظات الشرقية، وقرر معارضة اقامة دولة ارمينيا الكبرى. ونشر مؤتمر سيفاس المنعقد في أيلول في كافة انحاء الأناضول وتراس الشرقية الرغبة باقامة دولة قومية تركية داخل حدود هدنة ٣٠ تشرين الأول ١٩١٨، التي كانت حدودها الشرقية حدود بريست ليتوفسك وكان الذراع المسلح للحركة في شرق الأناضول، اللواء الخامس عشر المتمركز في ارضروم. وينطلق من هنا ضباط ليدعموا الحركات الاسلامية للمقاومة المنتشرة كثيراً في الأراضي المحرقة سياسياً في الغرب من القفقاس التي لم يستطع الأرمن الجيورجيون السيطرة عليها. وكان أحد هؤلاء الضباط خليل باشا عم انفير باشا، وخبير قديم في القفقاس. وقد أرسله مصطفى كمال نفسه «ليتصل بالبولشيفيك» اذ كانت منذ تلك الفترة مسألة الارتباط بين الحركة القومية التركية وروسيا السوفييتية قائمة. وبما انه يصعب السيطرة على الخط الحديدي والبحر الأسود الذي يسيطر عليه الانكليز فأصبح المر الاجباري «المر عبر المنطقة المسلمة» الذي يربط الأناضول باذربيجان عبر ناخيتشيڤان والزنغرور والكراباخ. ويسيطر على المر قوتان: الأرض وحكومة اذربيجان التي ازداد

ارتباطها بالبريطانيين. وكان الضباط الأتراك في اذربيجان، وهم يحاولون تجنيد الجيش الآزيري ضد ارمينيا، يتحالفون مع الحزب الشيوعي الاذربيجاني لقلب الحكم.

هاجمت اذربيجان التي تسيطر على الكاراباخ، الزنغرور في تشرين الثاني ١٩١٩ ولكنها فشلت. ودعا البريطانيون إلى مؤتمر ارمني ازيري في تيفليس فتقرر وقف اطلاق النار وفتح الطريق عبر زنغرور. وتحدد اجتماع ثاني في باكو، ولكن هاجم الأرمن أثناء ذلك الكاراباخ، وعادت الحرب ثانية. وهاجم في أوائل عام ١٩٢٠ الأرمن، ناخيتشيفان ولكنهم ردوا على أعقابهم بفضل الدعم الذي أرسل من ارضروم. واستمرت الحرب طيلة الربيع وكان يميل المؤتمر المنعقد في لندن في كانون الأول ١٩١٩ ليعد معاهدة سلام تركية إلى اعطاء أعالي الكاراباخ والزنغرور وبورتشالو إلى أرمينيا، بينما اقترح كورزون اقامة دولة حرة في باطوم مع مرفأ حر على مثال دنتزيغ. فبدت باطوم في ذلك التاريخ المكان الوحيد حيث يستطيع الحلفاء المحافظة على تواجدهم في القفقاس.

شاهدت نهاية عام ١٩١٩ أيضاً كسيرة جيوش دينكين التي تراجعت باتجاه الجنوب تحت ضربات الجيش الأحمر. بينما كان سكان الشمال في القفقاس يمرون بمرحلة استقلال عابرة. في الغرب، كان «الجيش الأخضر» (حركة فلاحية) يسيطر على بلاد الابخاز. وعقد مؤتمره الأول في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩ وأيد «الأرض والحرية» ضد الثورة الشيوعية واحتلت سوتشي في ٢ أذار عام ١٩٢٠، وانعقد مؤتمر استثنائي للفلاحين فيها في ٢٤ من الشهر نفسه. غمر الحركة، تدفق الهاربين من جيش المتطوعين الذين تدفقوا نحو جيورجيا وكان الجيش الأحمر يتعقبهم. وفجر النصر التحالف غير المتجانس في داغستان. وتحالف نوري باشا مع الزعماء الدينيين ليتغلب على البولشيفيك. فسبب ذلك تذمراً كبيراً في الأناضول لأن التحرك الداغستاني أصبح عقبة جديدة في وجه الارتباط بين السوفييت والأتراك. فأبعد نوري باشا وهرب عندما احتل الجيش الحادي عشر الأحمر، داغستان عام ١٩٢٠، إلى

اذربيجان ليترأس فصائل الجيش الآزيري التي تقاتل ضد الأرمن في كاراباخ.

انقاذ البترول:

أرسل تشنشرين في ٢ كانون الثاني ١٩٢٠ مذكرة إلى حكومات اذربيجان وجيورجيا، يقترح فيها بعد أن أخبرهما بكسيرة دينكين، اقامة معاهدة عسكرية لتدميره نهائياً. وكتب في اليوم الثاني، «واردروب» المبعوث البريطاني في تيفليس، إلى لندن لكي يستعيد فكرة جبهة القفقاس ولكن ضد الروس هذه المرة، ويجب أن تتشكل تلك الجبهة من جيورجيا واذربيجان بمساعدة البريطانيين. ونقل بعد بضعة أيام الممثلون البريطانيون في تيفليس وباكو، طلبات حكومات جيورجيا واذربيجان بالاعتراف بهما من قبل دول التحالف لكي يستطيعا اقامة علاقات دولية مع موسكو. وكان ذلك معنى اجابتهما إلى تشتشرين. وجد كورزون تلك البرقيات في باريس. فاجتمع وزراء خارجية دول التحالف في ١٠ كانون الثاني في باريس وقرروا الاعتراف بجيورجيا واذربيجان. وأرسل كورزون هذا القرار إلى لندن، وطلب اجتماع لجنة «الايسترين كوميتية» وكتب في الوقت نفسه مذكرة للمجلس الحربي الأعلى يقترح عليهم انه «لكي تتحاشى اتحاد العصابات البولشيفيك والمسلمة في القفقاس الشرقي» فيجب أن تتوجه المساعدات العسكرية التي كانت مخصصة لدينكين، إلى اذربيجان وأرمينيا وجيورجيا، وأن يضاف إليها مساعدات مالية وغذائية وأن ترسل جيوش إلى باطوم وباكو، وأن تستعيد السيطرة على أسطول الكاسبين. وكان المجلس المنعقد في اليوم نفسه أقل ميلاً للحرب. فكانت الحاجة إلى «فرق بيضاء» لتحقق تلك العملية، ولا يملك الحلفاء ذلك، ويتطلب تحضيرها ثلاثة شهور لكي تحتل مكانها. واجتمع مجلس الايسترين كوميتيه في ١٢ كانون الثاني في لندن وعرض رئيس الأركان ثلاثة خطوط دفاع للمصالح الشرقية للامبراطورية البريطانية: (١) خط استنبول – باطوم – باكو

– كازانوفسكا (على شاطئ الكاسبين)– ميرف (في آسيا الوسطى). ويتطلب هذا الخط السيطرة على البحر الأسود وبحر الكاسبين، وسبع فرق. (٢) وخط استنبول –باطوم–باكو–ايزيلي–طهران–ما شاد. يحقق هذا الخط توفير اسطول الكاسبين. (٣) وخط شمال فلسطين–الموصل ونقطة في شمال خانكين (على الحدود الايرانية العراقية). فاستنتج السير هنري ويلسن أن الخط الثالث وحده ممكن. فيما يخص القفقاس ويستطيع البريطانيون أن يحتفظوا بالجيش في باطوم شريطة أن لا تقع في الوضع الذي وقع فيه الفرنسيون في أوديسا قبل بضعة شهور. وفكر ويلسون أيضاً أن اعطاء السلاح للجيورجيين والازيريين كأنها عطاء للسوفييت، لأن بلشفة الجمهوريتين عمل حتمي.

أكد كورزون رغم ذلك واستدعى الوزراء الهامين إلى باريس حيث كان ينعقد مؤتمر وزاري بريطاني في ١٦. وكان الفريق البترولي: كورزون، ولترلونغ، وزير المحروقات، واللورد بيتي، اللورد الأول في الآمرية الذي يسيطر على بريتش بتروليوم، يدافعون عن الخط الأول. وكان يؤيدهم اللورد مونتاغو وزير الهند. واعتبر تشرشل كل دفاع غير مجدي، واقترح أن يتم الهجوم عبر بولونيا أو فنلندا– أما بنظر ليود جورج، يجب أن يكون خط الدفاع نظرياً واقتصادياً أكثر من أن يكون عسكرياً. وأعطى الجواب وزير بقي في لندن، السير روبرت هورن وزير العمل، الذي أبرق في ١٨ أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي مأساوي، وأن اضرابات كبيرة تتحضر، وليس من المستحسن في هذه الظروف القيام بعمليات كبيرة فيما وراء البحار. فقرر مجلس الحرب الأعلى المجتمع في (١٩) الاكتفاء بالمساعدة في السلاح والذخيرة واستخدام «المادة الحية»، المتوفرة في المنطقة لتجابه الخطر.

التفاهم مستحيل - احتلال اذربيجان:

حاول ممثلو الحلفاء في باريس تشكيل شبه وحدة بين شعوب القفقاس المختلفة

لتنفيذ هذا البرنامج. ولكن بدا جهدهم عقيماً ومستحيلاً. فسعى كورزون في آخر محاولة إلى المحافظة على باطوم اذ منحها ميثاق دولة حرة تخضع لحماية هيئة الأمم، ولكن رفض الجيورجيون قبول ذلك. وقرر المؤتمر أن يقدمها إلى جيورجيا شريطة أن يستطيع الارمن الحصول على منفذ إلى البحر، ولكن لم تتوصل وفود البلدين إلى اتفاق. ثم تمت محاولة التوفيق بين اذربيجان وأرمينيا اذ ما زالتا في حرب. وطلب واروروب في ٢٣ كانون الثاني توقف الهجوم ضد القرى المسلمة وانسحاب القوات الأرمنية من زنغرور. فتعقدت الأمور عندما اتهم الكولونيل ستوكس، المبعوث إلى يريڤان، الفرنسيين بدعم الأرمن في زنغرور بسبب مناجم النحاس الموجودة فيها. وحاول بواديبار الممثل الفرنسي في يريڤان أن يحصل على تحالف بين الأرمن والأكراد سورمالو، ولكن بدون جدوى.

اقترح ستوكس الذي خلف واردروب أن يساعد الداغستان ضد السوڤييت بينما بدا أن نوري باشا يتحالف مع الانكليز أكثر فأكثر، وكان يعمل خليل باشا ليجعل اذربيجان سوڤييتية، فأسس في الأشهر الأولى من عام ١٩٢٠ بالتعاون مع ضباط أتراك، حزباً شيوعياً تركياً في باكو، وكان أول حزب يحمل ذلك الاسم، فتعاون هذا الحزب مع الحزب الشيوعي في اذربيجان الذي كان يعقد مؤتمره في باكو في شباط. بينما كان خليل باشا ينتظر وصول الجيش الأحمر، كان يرأس في شوشي فصائل الآزيري غير النظامية ضد الزنغرور.

بدا الوضع في أوائل نيسان بالطريقة التالية: كان الجيش الأحمر يسيطر على خط بتروفسك-فلاذكفكاز-نوفوروسيسكي. وأرسلت حكومة اذربيجان بعد أن تلقت رفض الانكليز طلبها لاحتلال الداغستان في جنوب ذلك الخط، أقوى جيوشها إلى كاراباخ لتقاتل الأرمن. وغادر نوري باشا الداغستان ليترأس جبهة كاراباخ بينما كان خليل باشا في باكو يتهيأ حسب الدعاية الشيوعية ليترأس الجيش الحادي عشر الأحمر. وجه في ٢٦ نيسان مصطفى كمال رئيس المجلس الوطني التركي المنعقد في

أنقرة في ٢٣، رسالته الأولى إلى لينين، يقترح فيها مقابل الهجوم السوفييتي على جيورجيا، الهجوم على أرمينيا وادخال اذربيجان إلى أحضان «الدول البولشفية». وقدمت في اليوم الثاني اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاذربيجاني انذاراً إلى الحكومة تطالبها بالاستقالة خلال اثنتا عشرة ساعة، وفي ٢٨ دخل القطار المصفح إلى محطة باكو مع اورجو نيكرزة وكيروف وتبعهما الجيش الحادي عشر الذي دخل المدينة بدون اطلاق رصاصة بندقية.

العلاقات التركية-السوفييتية والأرمنية:

كان أول عمل قامت به حكومة اذربيجان السوفييتية ارسال انذار إلى أرمينيا تطلب منها اخلاء كراباخ والزنغرور. وغادر في الوقت نفسه وفد سوفييتي من باكو إلى تفليس. في ٧ أيار وقعت معاهدة سلام سوفييتية جيورجية. وتم الاعتراف باستقلال جيورجيا ومنحت باطوم. لم يمنع ذلك، الوفد الجيورجي من الاتصال بوزارة الخارجية البريطانية في ١١ أيار ليطلب منها السلاح ضد السوفييت ولم يوقف أيضاً اشتباكات بين الجيشين على الحدود.

بدا خلال فترة أن التوسع السوفييتي سيمتد إلى القفقاس كاملاً واندلعت ثورة شيوعية في الأول من أيار في أرمينيا، واحتل الأسطول السوفييتي اينزيري في ١٨ أيار، آخر مرفأ بريطاني على الكاسبين. ولكن استقر الوضع بسرعة في أرمينيا اذا استعيدت الكسندربول من الثوار في ١٥ أيار. ووصل وفد أرمني إلى موسكو في ٢٢ أيار في هدف مباحثات من أجل سلام سوفييتي أرمني.

قبل بضعة أيام في ١٦ أيار وصل خليل باشا أيضاً إلى موسكو أنه أول مبعوث رسمي لأنقرة، واجتمع حالاً بـ تشتشيرين وبمساعدة كراهان ومع مندوب حرب كامينيف فتقرر أن يرسل إلى الأناضول كدفعة أولى مليون ليرة ذهب و ٦٠

ألف بندقية ومئة مليون خرطوشة. ونتيجة لذلك وصل إلى موسكو البريد حاملاً رسالة مصطفى كمال في ٢٦ نيسان، قلق تشتشيرين من الاقتراح التركي الذي يطلب مهاجمة أرمينيا بينما كانت موسكو تعد الوفد الأرمني بالحصول على محافظات ڤان وبيتليس اذا قبلت حكومة الطاشناق أن تتخلى عن حلمها بارمينيا الكبرى ومحافظاتها الست وتقطع علاقاتها مع التحالف. لم تذكر اجابة التشتشيرين إلى مصطفى كمال تلك النقطة الحساسة اذ اكتفى بتقديم الوساطة السوڤييتية لتسوية الخلاف التركي الأرمني.

وصلت الاجابة إلى أنقرة في ١٢ حزيران فقبل مصطفى كمال أن يعرض القضية على الوساطة السوڤييتية ويؤجل الهجوم ضد أرمينيا الذي كان يطالب به جيش أرضروم. وفي الوقت نفسه غادر وفد تركي إلى موسكو ولكن لم يسمح له الأرمن بالمرور في أراضيهم فاضطر الابحار في البحر الأسود.

لقد أخرت قضية فتح الطريق انطلاق قافلة المساعدات السوڤييتية الأولى التي سيرسلها خليل باشا. ولا يزال الوضع في جنوب القفقاس غامضاً جداً. في أواسط أيار انفجرت ثورة في غنجا مقر ملاكي الأراضي الكبار ضد الحكومة السوڤييتية، ونجد على رأسها نوري باشا فسحقت الثورة بفضل الفرق الأرمنية للجمهورية السوڤييتية حسب الظاهر وحرب الثوار إلى كراباخ. فأصبح المقاومون للثوار الازيريين عقبة إضافية أمام الارتباط التركي السوڤييتي، طارد الجيش الأحمر نوري باشا فهرب إلى بلاد فارس ودخل كراباخ. وفرض «اورجو نيكتزة» اخلاء كراباخ من الجيش الأرمني ولكن رفض الجيش ذلك بتشجيع من البريطانيين. تقدم الجيش الأحمر الحادي عشر واحتل كراباخ بينما كانت المباحثات مستمرة في موسكو بين الأرمن والسوڤييت في آخر الشهر فتوصلوا إلى اتفاق تكون الطريق مفتوحة بموجبه مقابل الوساطة السوڤييتية وأبرق الوفد الأرمني القرار إلى يريڤان في الأول من تموز، في اليوم الثاني غادر خليل باشا موسكو حاملاً معه ٥٠٠ كغ من الذهب، الدفعة

الأولى من المساعدات السوفييتية.

طريق كراباخ:

رفضت الحكومة الأرمنية بالاتفاق مع الممثل البريطاني السماح بالمرور عبر زنغرور. واقترح الأرمن القلقون كثيراً من التقارب التركي السوفييتي، الهجوم ضد وادي آراكس العالي بالارتباط مع عمليات الجيش اليوناني التي كانت تتوسع في الوقت نفسه في الغرب من الأناضول. وغادر الجيش الأحمر شوشي في ٥ تموز واحتل جيروسي في الزنغرور في ٨ منه. ووجه من هناك انذاراً جديداً لاخلاء كراباخ كاملة والزنغرور، ولكنه لم يبدو مستعداً للقيام باجتياح المنطقة. في الوقت نفسه كانت الحرب مع بولونيا حامية وقد أرسلت أكبر قسم من جيوش القفقاس إلى هذه الجبهة. واستغلت أرمينيا هذا الفراغ بعد أن عدلت عن فكرة احتلال وادي آراكس العالي لكي تقطع الفرق الكردية في الجنوب عن فرق الشمال. وقامت بتطهير شارور وناخيتشيفان متبعة الخط الحديدي من الشمال إلى الجنوب ولجأ ٥٠ ألف آزيري هاوين أمام الجيش الأرمني، إلى ايران، في ٢٨ تموز تم اتفاق بين المسلمين وأرمن المنطقة فطرد آزيري شارور نهائياً وحل مكانهم لاجئون أرمن.

حاول الجيش الأحمر الذي يرافق خليل باشا أن يفتح الطريق فاصطدم بالأرمن. فاحتلت القوات الأرمنية جيروس في ٥ آب واستعادها الجيش الأحمر في ٨ آب ونجم عن المباحثات الأرمنية السوفييتية التي كانت مستمرة في تفليس ويريفان اتفاق وقع في ١٠ آب في اليوم نفسه حيث كانت معاهدة السيفر ترسم على الورق أرمينيا الكبرى. ينص الاتفاق الأرمني الروسي على احتلال كراباخ المؤقت والزنغرور وناخيتشيفان إلى الجنوب من شهاتختي من قبل الجيش السوفييتي وأصبح هكذا الممر الذي يسمح بمرور المساعدات السوفييتية الأولية إلى تركيا الكمالية جاهزاً.

ناقش الوفد التركي في الوقت نفسه في موسكو اتفاقاً تركياً سوفييتياً، وكانت القضية الأرمنية من صلب المباحثات. وكانت موسكو تنتظر إقامة الاتفاق الأرمني السوفييتي قبل أن تبدأ رسمياً المباحثات. وفي الجلسة الأولى الرسمية في ١٣ آب قرر التشتشيرين طلبه فيما يخص اعطاء محافظات فان وتبليس لتسكين ٣٠٠ ألف أرمني قد لجأوا أثناء حرب القفقاس. حمل تقرير هذا الاجتماع الذي أرسله المبعوثون الأتراك إلى أنقرة، حكومة أنقرة على تجهيز هجوم ضد أرمينيا لكي تستبق الأحداث، هجوم لم ينفذ قبل استلام الأخبار النهائية.

وقع أول نص اتفاق تركي سوفييتي بالأحرف الأولى في موسكو في ٢٤ آب. ولكن اصطدم الاتفاق بالقضية الأرمنية وبالأقاليم الثلاث التي تم التنازل عنها بموجب معاهدة بريست ليتوفسك التي ترفض روسيا الاعتراف بها. وغادر الوفد التركي موسكو لكي يقدم تقريراً عن وضع المباحثات إلى أنقرة. وصل أحد المبعوثين إلى طرابزون في ١٨ أيلول وأبرق إلى أنقرة معطياً نتائج المباحثات. ونتيجة لهذا التقرير أبرق مصطفى كمال في ٢٠ إلى أرضروم يأمر ببدء العمليات الحربية ضد أرمينيا.

- الهجوم التركي على أرمينيا :

عملت حكومة أنقرة بحذر كبير لكي تختبر ردود الفعل عند موسكو والغربيين وبعث وزير خارجيتها في ٢٦ أيلول مذكرة إلى الدول العظمى يخبرها بالعملية ويؤكد أنها فقط لضمان بعض النقاط الاستراتيجية. بدأ الهجوم في ٢٨ أيلول وتوقف في ٣٠ أيلول بعد الاستيلاء على ساريكاميس مدينة حدودية على طريق كارس. وقد اقترح الوفد التركي الاستيلاء على ساريكاميس أثناء مباحثات موسكو في ٤ آب لكي يسهل الاتصال بين الجيوش التركية والسوفيتية وقد قبل المسؤولون السوفييت الاقتراح. وفي اليوم نفسه من الاستيلاء على ساريكاميس أخبر لينين الذي كان على

اتصال دائم مع كيروف المتواجد في تفليس اللجنة المركزية للحزب أنه يجب إرسال مساعدة سريعة لحركة الأناضول ويجب الحصول أيضاً على موافقة أرمينية للوساطة.

من جانبهم لم يظهر الحلفاء أي انفعال متطرف. اقترح خايتسيان رئيس وزراء أرمينيا الذي كان يمر من اسطنبول، على المفوض السامي البريطاني الانزال اليوناني في طرابزون. ونقل المفوض السامي الاقتراح إلى لندن في ٢ تشرين الأول وتلقى في ٦ تشرين رفض كورزون القطعي. وحُرم الحلفاء من القفقاس ومن حليفتهم الأضعف أرمينيا وحاولوا ألآن أن ينالوا رضى الحركة الوطنية التركية ليحصلوا على سلام في شروط أفضل.

أبرق تشتشيرين بموجب قرارات اللجنة المركزية في ٥ تشرين الأول إلى وزير الخارجية الأرمني أوهاند جاينيان ليقول له أن السوفييت يستطيعون إيقاف الجيش التركي والحصول على إعادة قسم من الأراضي التي احتلتها تركيا شريطة أن ترفض أرمينيا معاهدة السيفر وتخلي قسماً من الطريق الحديدي الواقع بين شهاتختي وناخيتشيفان.

في اليوم الثاني ذهب الممثل السوفيتي في القفقاس إلى يريفان وعرض على الحكومة الأرمنية مخططاً من أربع نقاط : ١) استخدام الطرق الحديدية الأرمنية من قبل قوات روسيا أذربيجان وحكومة أنقرة، (٢) ورفض معاهدة السيفر. (٣) القبول بوساطة روسيا في الخلاف الحديدي التركي الأرمني (٤) وإعطاء كراباخ والزنفزور إلى أرمينيا. أسرعت الحكومة الأرمنية بإخبار الستوكس الممثل البريطاني في تفليس بالمشروع. فأجاب أن المشروع خدعة فرفضه الأرمن وطمأن ستوكس بالمقابل الحكومة الأرمنية بالمساعدة الجيورجية ولكن أسرعت أنقرة وقدمت الضمانات إلى جيورجيا إذ وعدتها بعدم مهاجمة أقاليم إردهان وباطوم. وبعثت سفير إلى تفليس.

قرر مجلس الوزراء في أنقرة منذ ٧ تشرين الأول ببدء احتلال كارس. الحجة

البسيطة : أضرب أولاً ثم فاوض. تأخرت العملية لضرورة التفاهم مع جيورجيا وبسبب العداء المتزايد لروسيا المقتنعة بوجود مؤامرة ارتباط بين الحلفاء وحكومة أنقرة وكانت تخشى أن تكون أداة لاستعادة القفقاس. في ذلك التاريخ لم تكن تلك الفكرة حقيقية ولكن لامبالاة الحلفاء تجاه مصير أرمينيا التي تتناقض مع نفسها بأهتمامها بـ أنقرة تجعل هذا الشك حقيقة. وحاول ستوكس من جانبه أن يمنع أي تفاهم بين السوفييت وأرمينيا لأنه كان يؤمن بجبهة أرمينيا جيورجية. وبعد بدء الهجوم التركي الثاني فقط في ٢٧ تشرين الأول وقعّت الحكومة الأرمنية في ٢٨ بدون إعلام ستوكس اتفاقاً مع لوغراند الممثل السوفيتي. وقبلت حكومة الطاشناق الوساطة السوفييتية شريطة أن تنسحب حكومة أنقرة إلى ما وراء الحدود لعام ١٩١٤ وأن تعتبر أيضاً معاهدة بريست ليتوفسك وباطوم ملغاة، احتلت كارسين في ٣٠ تشرين الأول وبعد لقاء عاصف بين ستوكس والممثل الأرمني في تيفليس، بيكزاديان قررت حكومة يريڤان أن تبدأ بمباحثات مع أنقرة.

كان شهر تشرين الثاني شهر أزمات. لقد كان ستالين في باكو لكي يتحاشى اجتياح القفقاس، ويحاول ستوكس أن يحصل على ما كان يخشاه السوفييت، التحالف مع أنقرة ضد موسكو. وكان الأرمن يطرقون الأبواب كلها بيأس بينما كان الأتراك يسعون إلى الحصول على أفضل العلاقات مع حكومة الطاشناق لكي يستخدموها فيما بعد كأساس للمباحثات مع الروس فأجابوا لذلك بتهرب على اقتراحات الوساطة الروسية واحتلوا الكسندروبول. وكتب كورزون إلى ستوكس أنه من المفضل أن يفاوض الأرمن مع الكماليين من أن يتفاوضوا مع البولشيفيك. وكان الطاشناق يحققون ذلك. فقررت موسكو تسريع عملية جعل أرمينيا سوفييتية وتم ذلك في ١٢ كانون الأول في اليوم الذي وقعت فيه حكومة الطاشناق مع أنقرة معاهدة الكسندربول آخر عمل لأرمينيا مستقلة.

المباحثات التركية-السوفييتية وسقوط جيورجيا (خريطة رقم ٣٠-٤)

لقد تم أخيراً الارتباط بين روسيا وتركيا الكمالية الذي كان يخيفها كثيراً وتتمناه. وبقي الآن التباحث حول الحدود وتسوية مصير العقبة الأخيرة «جيورجيا». وبما أنه لم يكن لدى السوفييت نية الاعتراف بمعاهدة ليتوفسك ومعاهدة الكسندربول التي كانت تحرمه منطقتين هامتين في القفقفقاس الكسنروبول وباطوم فكانت المباحثات تبدو صعبة.

رغم ذلك بعد أزمة شهر تشرين الثاني تبادل الطرفان علاقات صداقة وأعلنا استعدادهما بالعودة إلى المباحثات. وظهر أول اتفاق حول المشتركين في المباحثات اذ كانت موسكو تريد ادخال اذربيجان وأرمينيا السوفييتيتين بينما أنقرة لا تريد ذكرهما بل كانت تقترح عوضاً عنهما جيورجيا. أخيراً تمت المباحثات بين الطرفين فقط وكان الموضوع الثاني الذي يملأ صدريهما شكوكاً، تلك المباحثات التي تجريها كل منهما مع الحلفاء في لندن. دعيت أنقرة إلى مؤتمر مهمته إعادة النظر في معاهدة سيفر لصالح الرغبات الوطنية التركية. وبدأت موسكو المباحثات الأولى التجارية مع لندن، وقد أبدى الطرفان نوايا حسنة اذ تبادلا معلومات حول تطور مباحثاتهما، ولكن كانت موسكو قلقة من محاولة جديدة على جبهة القفقاس التي تهدف هذه المرة إلى جعل جيورجيا تابعة لتركيا فيسمح ذلك بالمحافظة على باطوم في أحضان الغرب وهكذا يتوقف تصدير البترول الروسي. وقد طلب ذلك بالحاح من رئيس وفد أنقرة في لندن ومن الوفد التركي الذي كان ماراً في تيفليس في طريقه إلى موسكو فردت موسكو باجراءين: الاسراع بالمباحثات مع تركيا واجتياح جيورجيا. وعندما وصل الوفد التركي إلى موسكو في ١٦ شباط كان الجيش الأحمر قد دخل إلى جيورجيا.

في ١٦ شباط نفسه أبرق ممثل أنقرة في تيفليس قاسم بك إلى قائد الجيش الشرقي التركي ليخبره بالهجوم السوفييتي ويقترح عليه مساعدة الجيش التركي. وفي

اليوم نفسه تلقى قائد الشرق برقية ثانية من رئاسة أركان أنقرة تخبره بقرار الحكومة أن يدخل في اتحاد في القفقاس وتطلب إليه أن يكون جاهزاً لحملة جديدة نحو الشرق. فأجاب القائد أنه من الحكمة أن تكتفي باحتلال ارتيڤان واردهان ويعلن حياده في الخلاف الجيورجي السوڤييتي وبما أنه لا يوجد خلاف حول هذا الموضوع مع موسكو بدأت أنقرة بالاحتلال أولاً ووجه انذار إلى جيورجيا التي بعد أن احتجت بدون جدوى أخلت في ٢٣ شباط تلك المقاطعات التي كانت جزء من مكاسب تركيا في معاهدة بريست ليتوفسك.

وقع القفقاس مجدداً في غليان في ١٨ شباط احتلت ثورة الطاشناق يريڤان. وزار الممثل التركي في هذه المدينة فوراً رئيس الوزراء الجديد ڤراتيزيان ليعبر له «عن فرحته بتحرير أرمينيا» ووعد بالدعم التركي.

افتتحت المباحثات التركية السوڤييتية في موسكو في ٢١ شباط في الوقت الذي كان فيه الجيش الأحمر يحاصر تيفليس. وكانت الأجواء متوترة جداً. وكان التشتشيرين يلوم الأتراك لأنهم لم يخلوا الكسندربول، وقد ساعدوا الطاشناق. وذهب الوفد التركي ليحتج على ذلك الاستقبال إلى ستالين الذي كان يهتم كثيراً بقضايا القفقاس الشرقي. في الحقيقة كان لينين طيلة المباحثات يستخدم تارة مثالية تشتشيرين وتارة مادية ستالين ليوصل الأتراك إلى تفاهم. عادت المباحثات في ٢٦. أخلى المنشيفيك في تلك الأثناء تفليس ، وتقدم الجيش الأحمر باتجاه باطوم، وكان الموقع السياسي للأتراك أن يتركوا باطوم في آخر مرحلة ويطالبوا تعويضاً عنها باقليم سورمالو (أغدير) التي احتلتها روسيا عام ١٨٢٨. ولكن لم تتوافق الاضطرابات فوق الأرض مع هدوء قاعات المؤتمرات. أعيدت المفاوضات في موسكو وفي اليوم نفسه أبرق الممثل التركي في جيورجيا قاسم بك إلى أرضروم ليخبر بدخول الجيش الأحمر إلى تفليس وبانسحاب حكومة المنشيفيك إلى كوته ويسأل اذا كان الجيش التركي لا ينوي احتلال باطوم. فكتب قائد جيش الشرق بعد أن وجه السؤال إلى

أنقرة إلى قائد جبهة القفقاس في الجيش الأحمر ليخبره أنه أمام خطر مؤامرة الحلفاء في باطوم ينوى الجيش التركي أن يتقدم نحو هذه المدينة. فأجاب اورجو نيكيتزه انه ليس الموضوع أن يحتل الجيش التركي باطوم التي سيتقرر مصيرها في مؤتمر موسكو، في الأول من آذار، أمر اورجو نيكيتزه الجيش الأحمر بالتقدم على طريق آخاليتسيخ باطوم لكي يمنع أي تقدم تركي وفي اليوم نفسه تلقى القائد التركي في جيش الشرق الأمر بالسير نحو باطوم.

تطورت الأمور بسرعة: بينما كان يبدو في موسكو أنه تم الاتفاق على حدود بريست ليتوفسك تاركين باطوم وأراضيها القريبة، ولكن أعطيت تركيا ضفة الأراكس اليمينية أي سورمالو، وقرر مجلس الوزراء المنعقد في أنقرة أن يقترح حياد خاليتسيخ وآخال كالاكي. وفي اليوم الثاني في لندن اقترح ليود جورج على الوفد التركي تشكيل اتحاد كونفدرالي قفقاسي مناهضاً لروسيا. بعد يومين ثار سكان خاليتسيخ ضد المنشيفيك وشكلوا مجلساً. طلبت حكومة جيورجيا من الأتراك أن يحتلوا باطوم وآخاليتسيخ وآخالكالاكي، وأمام الدلائل المطابقة القادمة من جيورجيا ولندن قررت أنقرة في ٨ آذار أن تحتل الأقاليم الثلاثة. فاحتلت آخاليتسيخ في ٩ آذار ولكن تحاشى الجيشان المواجهة وفي اليوم نفسه وصل فصيل من الجيش الأحمر إلى خاليتسيخ وهنأ قادة الجبهات بعضهم بعضاً لهذا اللقاء.

حاولت موسكو أمام هذه الأخبار أن تنهي المعاهدة فتم عطاء آخر إلى تركيا في ١٠ آذار فيما يخص منح الحكم الذاتي لناخيشيفان في اطار جمهورية اذربيجان شريطة أن لا تمنح هذه الأخيرة حقوقها لبلد آخر.

في اليوم نفسه الذي فيه قبل المبعوثون الأتراك في موسكو التنازل عن باطوم إلى روسيا أعلن وزير خارجية أنقرة فى المجلس الوطني القرار باحتلال تلك المدينة وأبرق قائد جبهة الشرق ذلك القرار إلى اورجو نيكتزةالذي نقله بدوره إلى موسكو، فأجابت موسكو عبر الخطوط نفسها وأرسلت قرارات المؤتمر ولكن أكدت أنقرة على

طلبها. في ١١ آذار دخل باطوم ثلاث كتائب تركيا حيث لجأت حكومة المنشيفيك. وقررت موسكو تقدم الجيش الأحمر (سلمياً) نحو باطوم وطلبت من اورجون نيكتزة أن يتفادى الاشتباك.

في ١٢ آذار قرر مجلس وزراء أنقرة أن يشكل ادارة تركية مدينة في باطوم وآخاليتسيخ وآخالكالاكي. وفي ١٤ آذار احتل الجيش التركي أيضاً آخالكالاكي. وأعلن قاسم بك في باطوم عن نيته باعلان نفسه قائد القوات الاسلامية في خدمة المنشيفيك. ولكن قد وقّع هؤلاء في ١٥ آذار هدنة مع الجيش الأحمر وقبلوا باخلاء المدينة خلال ٢٤ ساعة. هيأ قاسم بك انقلاباً ضد المنشيفيك كان هدفه اعطاء السلطة للوطنيين الجيورجيين الذين سيقبلون بالحماية التركية. وطبع في ليلة ١٥-١٦ آذار مناشير تخبر بضم المدينة إلى تركيا. وفي ١٦ آذار اليوم الذي فيه وقعت معاهدة الصداقة التركية السوفييتة التي تعطي باطوم إلى روسيا كانت في باطوم جيش وحكومة منشيفيك وادارة عسكرية تركية ومجلس اداري قيد التشكيل بينما تخيم خارجاً حكومة جيورجية سوفييتية والجيش الأحمر الجيورجي والجيش الأحمر الروسي. وبعد أن أبحرت حكومة المنشيفيك على بواخر الحلفاء حاول الأتراك أن يجردوا سلاح الجيش المنشيفيك، فانضم الجيش إلى مجلس الادارة المحلي وبدأت الاشتباكات الأولية. وفي اليوم الثاني دخل الجيش الأحمر إلى المدينة واستمرت الاشتباكات حتى ٢١ آذار التاريخ الذي قبل فيه الأتراك باخلاء المدينة ومعها آخالتسيخ وآخالكالاكي، حصل الخلاف المسلح الوحيد بين روسيا السوفييتية وتركيا الكمالية

في اليوم الثاني من توقيع معاهدة صداقة تركية سوفييتية. وخلال الفترة نفسها قدم وزير الحرب في حزب الطاشناق الذي استقر مجدداً في يريفان ليوقع في أغدير اتفاقاً مع الأتراك الذين تعهدوا أن يقدموا له أسلحة وذخيرة.

حصلت الاضطرابات الأخيرة وانتصرت أخيراً معاهدة ١٦ آذار. وانتظرت

أنقرة رغم ذلك هزيمة الطاشناق لتخلي الكسندربول في ٢٣ نيسان. وفي أيلول انعقد مؤتمر كارس الذي يتألف من الأتراك والجمهوريات القفقاسية السوفييتية الثلاث وروسيا. تثبت معاهدة كارس الموقعة في ١٣ تشرين الأول الحدود التركية والروسية الحالية ولكنها تنص في الوقت نفسه على الحكم الذاتي لناخيتشيڤان ضمن اطار جمهورية اذربيجان السوفييتية مع المنع أن تعطى لدولة أخرى. وأعطيت أيضاً الحكم الذاتي إلى آجاري أي منطقة باطوم وآخاليتسيخ وآخالكالاكي المكونة لجيورجيا الاسلامية في اطار جيورجيا السوفييتية. وهكذا يتبين أن حدوداً داخلية في الاتحاد السوفييتي تضمنها معاهدة دولية موقعة مع تركيا.

سقط الستار فوق القفقاس عام ١٩٢١ وحتى هذه السنين الأخيرة لم تشغل هذه المنطقة التاريخ الدولي ومن هنا تنبثق المفاجأة العامة اذ ترى بعد ٧٠ عاماً عودة المسألة ذاتها. كأنه لم يحدث شيء خلال تلك الفترة كلها ولكن لم تقل أهمية الوضع الجغرافي السياسي للقفقاس نتيجة لذلك بل ازدادت أهمية وبروزاً بعد ظهور دولة جديدة ومرنة بين الدول، دولة ايران، وتبرهن لنا الأحداث القريبة انه لا زالت الفوارق العرقية تحتفظ بقدرتها فيكفي أن تتلاشى قبضة امبراطوريته في القفقاس حتى تلبي الشياطين القديمة النداء.

الفهرس:

مطابع الادارة السياسية